كاراكتاكوس

ثورة العراق

ترجمة

خيري حماد

منشورات المكتب العالمي للتأليف والترجمة - بيروت

ص . ب : ٣٦٤٠

توطئة المترجم

عن لي ، عندما قرأت هذا الكتاب ، ان انقله الى العربية ، لاطلع ابنـاء قومي ، على ما يراه كاتب غربي منصف ، في مشاكلنـا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، من آراء وعيوب، وما يراه على ضوء تجرده وانصافه ، من مسؤولية تقع على سياسة بلاده انجلترا ، وحلفائها في الغرب ، وفي مقدمتهم امريكا ، وفي خلق هذه المشاكل ، وتجسيدها ، والعمل للابقاء عليها وتغذيتها ، بدلاً من تقديم العون والمساعدة لحلها والقضاء عليها .

والكتـاب بالاضافة الى واقعيته وتجرده ، وتحدثه عن الحقائق ، وهزئه بالخيالات والانطباعات التي يحملهـا الغرب عن الشرق ، درس عميق ودقيق لمشاكل العرب عامة والعراق خاصة فيه الكثير من سبر الاعمـاق ، بحثاً عن جذورها واصولها ، واستقصاء الحقائق من مصادرها الحقيقية لا من منابعهـا المزيفة التي كثيراً ما يلجأ اليهـا كتاب الغرب ، في كل ما يضعون من صور ومؤلفات عن الشرق واوضاعه ومشاكله ، في الماضي والحاضر والمستقبل .

ولعل عنصر الصراحة في هـذا الكتاب ، وهو ما سيراه القارىء بنفسه عندمـا يطالعه بامعان وتبصر ، لا سيا وقد راعيت الامانة والدقة في النقل والترجمة ، هو الذي يجعل له قيمة علمية بارزة بالاضافة الى الاهمية الـتي اشرت اليهـا في هذه التوطئة والنابعة من التجرد والعمق في الدراسة فالمؤلف يتوخى الحقائق ويجمعهـا ثم يسردها في قالب علمي صريح ، مستعيناً بالنظريات العلمية والاجتماعية والاقتصادية ، لينفذ منها الى الآراء التي يود اعلانها ، حتى ولو كان في هذا الاعلان بعض الاساءة الى بلاده وسياستها الاستعمارية الطويلة المدى تجاه

الشرق العربي .

وكاراكتاكوس، وهو الاسم المستعار الذي يطلقه المؤلف على نفسه في كتاباته الاسبوعية في مجلة الاوبزرفر البريطانية المستقلة الواسعة الانتشار له مكانة بارزة في عالم الصحافة البريطانية نظراً لما عرف عن صاحبه من عرض واقعي لاحداث العالم ، وصدى في نفوس قرائه الذين يعدون بالملايين فالمؤلف ، شخصية صحفية بريطانية عرفت بتجوالها الواسع في الشرق ، ودراستها لمشاكله واوضاعه ، واتصالاتها الواسعة بالرأي العام العربي في مختلف طبقاته واتجاهاته .

ان هذا الكتاب مجموعة من الحقائق والدراسات ، وضعت في قالب صريح ومجرد وكلي امل ان تلذ القارىء مطالعته بعد الفراغ من تلاوته .

خيري حماد

مقدمة المؤلف

يتناول هذا الكتاب صراعات فكرية ، لا بين آراء الافراد ومعتقداتهم ، بل بين الافكار الشائعة بين شعوب أمتين ، ومن الواضح الجلي لكل انسان ، ان السياسة البريطانية في الشرق الاوسط قد منيت بسلسلة من الهزائم والفشل ، بعضها بلغ حد الكوارث ، في السنوات التي تلت الحرب الماضية واني لأعتقد ان هذه الهزائم نجمت عن عدم فهم قادتنا للشرق الاوسط والا لما قدر لها ان تقع . ففي العراق مثلاً وهي البلاد التي اعرفها معرفة شخصية وثيقة ، اهملت السياسة البريطانية عن سابق تصميم واصرار ، آراء المثقفين العراقيين . وان غرضي من هذا الكتاب ، هو ان احاول ابراز حقيقة واقعة ، وهي ان هذه الآراء ، التي كان من السهل على اي امرىء مستعد للاستماع الى الاشخاص العاديين وتفهمهم ، اكتشافها ، كانت السبب الحقيقي في ثورة العراق في تموز عام ١٩٥٨ .

وبعض الوقائع التي اسردها في هذا الكتاب، قد جرى التوثق منها وتحقيقها مرة وثانية اما البعض الآخر ، فقد كانت من الشائعات وقد نعتها بهذا النعت الصادق . وسواء أكانت صادقة ، او مبالغ فيها او كاذبة ، فهذا لا يعنينا في قليل او كثير ، لكنها في الوقت نفسه تعبير عما يعتقده العراقيون ، وهذا ما استطيع الجزم من معرفتي الشخصية ، وسواء أصدقت هذه الشائعات او كذبت فانها تفسر للرأي العام الذي يشرح بدوره الثورة التي وقعت . ومن اللازم اللازب ان نفهم ما حدث وما قد سيحدث ، اذا اردنا في المستقبل اتباع سياسة يقدر لها النجاح ، على ان نستقي هذه السياسة من الرأي العام .

وسأحاول في القسم الاول من الكتاب وصف العهد البائد في العراق كما يراه العراقيون انفسهم وكل ما سأذكره في هذا القسم كان عقيدة عند العراقيين في صيف ١٩٥٨ اي قبيل قيام الثورة وهو ما سيفسر سبب قيامها والشكل الذي حدثت فيه . اما في القسم الثاني فسأحاول وصف الموقف البريطاني من العهد البائد ومن معارضيه ، وشرح العوامل التي أدت الى تجاهلنا الرأي العام الذي اثبت دوره الحاسم في ما وقع . وفي القسم الثالث سأستهدف تبيان ان الثورة عندما حدثت جاءت تعبيراً عن الآراء التي تبلورت ونضجت قبل وقوعها وان كل ما حدث كان امراً متوقعاً لدى كل مطّلع على هذه الآراء . وبوصفي رجلاً عشت هذه الحقبة في بغداد عن كثب استطيع الجزم بصحة ما اقول . وفي الجزء الاخير من كتابي سأقول اننا سننتقل من خيبة الى اخرى ، ومن فشل الى فشل ، الا اذا تعلمنا ان نأخذ في اعتبارنا وحسابنا حقائق الرأي العام العربي . وقد تعجبنا هذه الحقائق او قد لا نستسيغها لكن هذا امر ثانوي ، فعلينا اذا توخينا اتباع سياسة تخدم مصالحنا ان نواجه الحقيقة ونطور سياستنا على ضوئها .

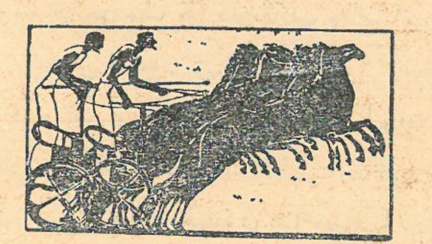
وكل ما اطلبه من قارىء هذا الكتاب ، ان يشرع في قراءته وقد اخذ بعين الاعتبار ، ان العراقيين وجميع العرب ، لا يختلفون عن الشعوب الاخرى ، وكثيراً ما نظن انهم يختلفون لان خيالاتنا قد غذتها الكتب والقصص التي قرأناها عنهم منذ طفولتنا ، وكلها تمثل صوراً غير صادقة لعصر مضى وانقضى . ولقد عاش بعض البريطانيين كجنود بين العرب ، ولكنهم لم يختلطوا الا بالشراذم الحقيرة من الطفيليين منهم ، وهي شراذم نجد مثلها عند كل شعب . وقد يكون من الصحيح بمكان ان يقال ان الكثيرين من سكان الارياف في البلاد العربية ما زالوا يعيشون عيشة بدائية يحاولون التخلص منها بطريق او بآخر ، وهو ما نرجوه لهم عن سبيل الاصلاح والتطور . لكن سكان المدن يعيشون كما نعيش ، ويحيون كما نحيا ، وعلى كل فهؤلاء او اولئك لا يشبهون في حال من الاحوال الصور التي تكونت لدينا عنهم من قراءاتنا للكتب او مشاهدتنا للاشرطة

السينمائية التي وضعت عنهم .

والحياة في جميع انحاء العالم واحدة في المدن . ففي بعض ساعات الازدحام تتعرقل المواصلات وتكتظ الحشود في مواقف الباصات . وفي بغداد ؛ في ايام الجمعة لا السبوت او الآحاد تكتظ الشوارع بالمارة وتخرج الجماهير الحاشدة من دور السينما . وفي الامسيات يجلس الناس حيثما وجد العشب او الخضرة ، او ينتشرون في الشوارع ذاهبين آيبين . وفي ايام الصيف يستحم الاطفال والرجال في مياه النهر حيث يلهون ويلعبون ويشربون الكوكاكولا . اما في ايام الشتاء فتنتشر عربات الاطعمة الساخنة في كل مكان ، والاطفال عند خروجهم من المدارس يحدثون من الضجيج ما يحدثه نظراؤهم في أي مكان في العالم والعراقيون لا يلعبون الكريكت ولكنهم يلعبون كرة القدم . ويجلس الناس في المقاهي ، وقد انتشرت اصوات الراديو في كل مكان تبث الاغاني والاخبار . ويهتم العراقيون بما نهتم به نحن من مشاكل كالوظائف والضرائب والاجور والعطل والشراء بالتقسيط ، ويدرس الشبان كل شيء ليتثقفوا وليتجادلوا في شؤون السياسة وقضايا الفلسفة والفن والفرق الكبير بيننا وبينهم ، انهم اكثر ايماناً منا بالعمل السياسي وبامكانهم تحسين مستقبلهم ، فالمجالات امامهم واسعة في التقدم الفني . لكنهم في الحقيقة لا يختلفون عنا مطلقاً فالفروق التي تبدو في البداية ، لا تلبث ان تظهر تافهة لا اهمية لها . فالراديو يبث انغاماً تختلف عن موسيقانا ، وكتابتهم الابجدية وطعامهم يختلفان عن كتابتنا وطعامنا لكن الموسيقى والكلمات والغذاء كلها تعني لهم ما تعنيه لنا. ولن يكون في استطاعتنا فهم الشرق الاوسط ، اذا ما فكرنا بان العرب يختلفون عنا . انهم مثلنا ولكن لهم تاريخاً يختلف عن تاريخنا ولهم اوضاعاً تختلف عن اوضاعنا وعلينا ان نتخيل ما كنا سنشعر به أو نسلكه فيما لو كنا في موقفهم ووضعهم .

وليست لدي الرغبة ، في ان الحق بأي كان بعض الأذى ، ولذا تجنبت قدر المستطاع ذكر الاشخاص بأسمائهم . ولكني ليس في مكنتي ، ان اتجاهل جميع

الأسماء ولا سيما تلك البارزة في تاريخ العراق المعاصر . وإذا سبب ذكري لها بعض الألم ، لاقربائهم ، فيؤسفني ذلك ، وان كنت اعتقد ان عليهم ان يذكروا ما لحق بالكثيرين من اذى ، كانوا هم أعجز عن دفعه او حتى الاعتراض عليه . وان هدفي في ما اكتبه ، المساعدة الى حد ما في تجنب ما وقع ، اذا تمكنت من اقناع قرائي بقبول نتائج المعلومات التي اسردها عليهم في هذا الكتاب .



الباب الاول

ماذا فكر العراقيون

مذكرة ايضاحية عن الباب الاول

لا يحاول هذا الفصل اعطاء صورة علمية عن العراق في عهد نوري السعيد ، كما انه ليس تقريراً صحفياً مسهباً عن هذا العهد ، لكنه وصف للوضع كما كان العراقيون يرونه لانفسهم وهذا لا يعني ان الصورة التي يعطيها كاذبة ، بل على العكس ، هي اقرب الى الحقيقة من اية صورة يمكن لاجنبي ان يرسمها. فالقليلون منا في مكنتهم ان يعطوا صورة مدعومة بالأرقام عن الوضع في بلادنا الى أي بحاثة اجنبي . والقليلون منا يحفظون التفاصيل في ادمغتهم أو الوثائق في خزائنهم لدعم الآراء التي نبني عليها احكامنا السياسية او تعليقاتنا على الانباء اليومية او قراراتنا في الاتجاه الذي نسير عليه في الانتخابات ، وهذا لا يعني اننا غير مطلعين ، أو اننا نبني آراءنا دون مستندات او براهين، او اننا لا نعرف الكثير عن بلادنا . فالكثير من الحقائق والوقائع قد امتصتها عقولنا ، ومعرفتنا الشاملة الجامعة للبلاد التي عشنا فيها منذ طفولتنا تجعلنا في موقف يمكننا من اصدار الاحكام الصادقة التي قد لا يستطيع الغريب الوصول اليها مهما اوتي من الذكاء والنباهة والتجرد والعطف . وكغريب عن العراق ، لم احاول في هذا الفصل تصوير الانطباعات الشخصية التي احس بها بل سرد ما فكر به العراقيون انفسهم ، العاديون منهم ، لا المتطرفون أو السياسيون وأبناء الطبقة الوسطى لا الثرية أو المدقعة . وقد حاولت تجنب آراء الاثرياء جداً او القريبين منهم لتحيزهم الى العهد البائد الذي كانوا ينتفعون منه ، كما حاولت تجنب آراء الفقراء جداً لانهم كانوا غير مطلعين على الامور وإن كانت غالبيتهم متحدة في الرغبة في حدوث تبدل جذري . أما رأي الطبقة الوسطى فكانت مجمعة كل الاجماع على

ان ثورة ستقع في العراق في وقت ما .

وقد يكون من المفيد جداً تحذير القارىء من نسبة ما سيقرأه في هذا الفصل الى اذاعة القاهرة . ان ما سيقرأه ثمرة تجـــارب دامت عشر سنوات على الاقل وبعضها يرجع في اصوله الى اسباب ثورة رشيد عالي عام ١٩٤١ . ولا ريب ان كل من عرف العراق قبل عام ١٩٥٢ وقبل ان يبرز عبد الناصر الى عالم السياسة يستطيع التأكيد بان العراق سيقف ضد حلف بغداد وان موقفه من عهد نوري السعيد هو ما كان عليه ، ولم تتعدّ مهمة اذاعة القاهرة الجهر بما همس به العراقيون لاصدقائهم ومعارفهم .

الفصل الأول

رأي العراقيين في الملكية

جاء على لسان ملكة سبأ في القرآن الكريم : « ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها » . ولقد جرت عادة رجال القبائل من العراقيين ان يقابلوا ملوكهم بترديد الآيات القرآنية الكريمة حتى قيل ان بعضهم في الايام الاولى من عهـد الانتداب ، كانوا يستقبلون ملكهم بالآية السالفة الذكر .

ويعتقد المؤرخون العرب ان الملكية كانت دائماً غريبة عن العقلية العربية . فصحابة الرسول اشتهروا ببساطتهم وبعـدهم عن حياة البذخ والترف ، وعلى الرغم من انهم قهروا امبراطوريتين عريقتين فقد آثروا ان يعيشوا كما يعيش فقراء البدو اليوم عن حاجة واملاق . ولا ريب ان المعارضة التي لقيتها أسرة الخلفاء الامويين نجمت عن كره العرب للملكية وهذا ما أمن لثورة عام ٧٥٠ – الثورة العباسية – التأييد الشعبي . وعلى الرغم من ان الخلافة العباسـية التي تلت ، والمعروفة عند الغربيين بشخص هارون الرشيد ، قد توسعت في الصورة الملكية المتسلسلة، الا ان الملكية العربية كانت في القرون التي لم تعرف من الحكم الجمهوري في العالم الا النزر اليسير تتسم بالحرية والتسامح والتواضـع . فملوك العرب العظام ، كصلاح الدين مثلاً ، تسنّموا سدة العرش بمؤهلاتهم الشخصية واستعدادهم . ووراثة العرش لم تكن تنتقل في الغالب عن طريق التسلسل بل ان الشخص الاكثر كفاءة من الاسرة الحاكمة . والاسر الحاكمة لم تكن لتختار

زيجاتها من الاسر النبيلة بل كان لها مطلق الحرية في التزاوج من عامة الشعب وحتى مع العبيد . ولما جاء عام ١٩٢١ بانتهاء الحكم التركي وجد العراقيون انفسهم ، احراراً بعد ان عاشوا قروناً تحت ظل ملوك لا يمتون اليهم بصلة الجنس او اللغة ومن المحتوم ان هذه الحرية ، لو مكنتهم من حق الاختيار لما اختاروا سلالة ملكية لتحكمهم . وهذه هي النقطة الرئيسية في الخلاف بين ما اعتقد به العرب ، وبين ما اعتقد به الانكليز الذين يرون في اسرتهم المالكة مصدر خير وفائدة .

ولا شك بأن الاعتراف الرئيسي على الملكية هو الامتياز. ففي بريطانية من الشائع التأكيد بأن الخدمات التي يقدمها الملك وغيره من افراد الاسرة المالكة هي نتيجة العمل الشاق المجهد . وفي بريطانية حيث تم ترويض الملكية منذ عهد بعيد اصبح الشعب قانعاً بالسماح للاسرة المالكة بالتمتع بالامتيازات التي بقيت لها . اما في البلاد التي لم تجر فيها عمليات الترويض هذه ، والتي يندر فيها الحديث عن الخدمات العامة للاسرة المالكة، فان اسم الملكية ووجودها مرتبطان بالامتيازات التي تتمتع بها . فمن الشائع ان تسمع مصطلحات كهذه «الملكية والديموقراطية» كشيئين منفصلين او « الملكية او الديموقراطية » كشيئين متناقضين . ويتمتع الملوك بامتيازات تجعلهم طبقة منفصلة عن الشعب . ويلتف حول هؤلاء الملوك اولاً اقرباؤهم ثم اعوانهم ثم افراد حاشيتهم وبطانتهم من الطفيليين الذين غصت بقصصهم ونوادرهم كتب الأدب والتاريخ . وأخيراً يتطلب وجود الملوك نظاماً سياسياً يؤمن لهم الاستمرار والبقاء . وفي عصر الرجل العادي لا نستنكر ظهور رجل عبقري يختلف عنا ، فنمنحه الحب والتبعية والاحترام ولكننا نستنكر الحاكم الوراثي ، الذي لا يختلف عنا في شيء ، إلا في الامتيازات التي حصل عليها بالوراثة والتسلسل .

وشعوب الشرق الطالعة ، التي لا ترى في الملكية امراً معقولاً ، لا تقرأ كتب الفلاسفة الذين يعتقدون ان عصر الملكية لم ينته بعد . فالملكية ليس لها مكان في العالم الذي تتطلع اليه هذه الشعوب ولذا فهي لا ترى فيها ما يستوجب

البقاء والحفاظ . وفي استطاعة شعوب اوروبا الشمالية ان تقول ان الملكية ، في رأيها ، معقولة ومقبولة على ضوء تجاربها ، ولكن جواب الشعوب الاخرى لها ، ان هذه الملكية غير مقبولة لديها ومعظم الشعوب التي لا تعيش في ملكيات اوروبا الشمالية الدستورية ترى ان الملكية من الرواسب المصطنعة في العصور القديمة ، وانه حتى لو فرضنا وجود بعضها على الاسس الدستورية فسبب بقائها ، انها قد خرجت عن معنى الملكية الحقيقية وأصبحت بديلاً عما يسمى بالجمهورية . وعلى ضوء هذا الرأي فان الابقاء على ملك دستوري امر لا ضير فيه ولا اذى ، لكن كثيرين من الملوك يبدون كرواسب وبقايا للماضي يحتفظون بتقاليده ومخلفاته ومعتقداته . وقد سميت الملكية في العراق كثيراً « بالاقطاعية » وهو اتهام طالما وجه الى ملكيات اخرى في البلقان او في الشرق . وفي ظل نظام كهذا يستند الملوك الى تأييد وتحالف اقلية من اصحاب الاراضي الذين بدورهم يستغلون الاكثرية من الفلاحين الفقراء والتعساء . وهذه الاقلية لا تعمل على تطوير ثروة البلاد الزراعية إلا بقدر ما تتطلبه حاجاتها ومطامعها وليس من شأني في هذا الكتاب ان اناقش ما اذا كانت تسمية هذا الوضع بالملكية الاقطاعية تسمية صحيحة .

وفي رأي الملايين الذين تبدأ دراستهم للتاريخ الاوروبي عام ١٧٨٩ — الثورة الفرنسية — تسير لفظة الملكية مع الطغيان جنباً الى جنب . وكان الشعب البريطاني يرى هذا الرأي منذ عهد طويل ولكن الاجراءات التي اتبعها هذا الشعب والتي كان أبرزها ما وقع عام ١٦٤٩ (ثورة كروموبل واعدام شارل الاول) وعام ١٦٨٨ (خلع الملك جيمس الثاني) تجعل هذا الشعب يستغرب اقدام بعض الشعوب على الطفرة وعلى عدم التزام جانب التطور الطبيعي عن طريق سلسلة من القوانين الاصلاحية . لكن الشعوب الاخرى لا تريد ان تحذو حذو البريطانيين وان تسير على نفس طريقهم البطيء ، اذ انها ترى في الملكية ارثاً سيئاً للماضي البغيض .

والعرب والعراقيون لا يودون التطلع الى الماضي بتسامح . لقد عاشوا اربعة

قرون ونصف في ظل الحكم التركي بمساوئه ومذلاته . وهذه الكراهية التي يحملها العراقي للماضي تجعل نظرته تختلف عن نظرة البريطاني، والقرون المظلمة بالنسبة له ، وهي التي انقضت بذلة وعار ، لكنه يرى كما يرى البريطاني ان من الواجب ان يثق بشعبه ، وهـــذه الثقة هي التي تخلق له الامل في المستقبل . ولم تكن الملكية المنبثقـــة عن الماضي في يوم من الايام مظهراً من مظاهر طموح العرب لمستقبلهم .

ولا شك ان كل من يذكر هذه الحقيقة ثم يندهش بعدها من الشعبية العظيمة التي يتمتع بها جمال عبد الناصر يكون ضعيف الادراك والتصور. ان عبدالناصر من رجال القرن العشرين . وليس في امكان ايدن نفسه الذي شبهه –ويا للغرابة ذلك – بهتلر ان ينكر عليه ذلك ومن المعروف عنه ، وهذا حق وصدق انه ينتمي الى الطبقة العاملة ، ثم ارتفع منها الى الطبقة الوسطى وان كان ما زال يعيش في بيت متواضع في الضواحي كغيره من العرب من ابناء الطبقة الوسطى في كل بلد عربي ، وانه يرفض الامتياز ويأبى الرشوة والفساد . وكانت اذاعـة بغداد في العهد البائد كثيراً ما تذيع اغنية عن البوسطجية للتعريض بعبد الناصر وان اباه كان بوسطجياً . ولم ينس رئيس محكمة الثورة في عهد الجمهورية عنـد محاكمة بعض رجال الاذاعة في العهد البائد ان يشير الى ان هذا التعريض محل فخار لعبد الناصر .

ان عبد الناصر رجل بسيط لا يحب الابهة والعظمة . وقد وصفه البعض لي بانه « نبي عربي جديد » . واني لارى في هذا الوصف ما ينطبق على الحقيقـة . والسبب الرئيسي في شهرته خارج بلاده اي مصر ، لا في زعامته السياسية ، او فلسفته ، او قيادته العسكرية بل في انه الرجـــل الذي استرد للعرب ثقتهم وايمانهم . وهو ليس بالنبي بالمعنى الحرفي للكلمة اي انه يحمل رســـالة من الله . ولكنه كالنبي اذ انه اوحى للعرب بالايمان بأن في وسعهم ان يكونوا من ابناء القرن العشرين وان يعملوا ما عمله الغرب . وان في وسعهم ايضاً ان يخلقوا دولة لا تؤمن بالامتيازات او بالرشوة ، وان تسمو في معاملاتها سمواً خلقياً واكثر من

هذا ان في وسعهم ان يحلوا مشاكلهم بأنفسهم وان يديروا شؤونهم بحذق ومهارة لقد اوحى اليهم ان في وسعهم ان يصلوا الى كل ما وصل اليـه الغرب وان يحتفظوا فوق ذلك بعروبتهم . ومع ان عبد الناصر يعيش في هذا القرن الا انه يشبه الى حد ما صحابة الرسول في ان العظمة التي وصل اليـــها لم تصرفه عن بساطته الاصلية . واكثر من هذا فقد تعرض لعدوان الغرب لكن الله كان دائماً معه ، وخرج من المحنة اقوى مما كان عليه قبلها . والجميـع في كل مكان يحسون بالعطف على ضحية العـــدوان الآثم ، وفي الاسلام يقدس شهداء العدوان وضحاياه . ولا ريب ان ايدن في غزو السويس قد اعطى لعبد الناصر مزايا الشهداء ، مع ثمار النصر الذي حصل عليـه ، فأصبح رمزاً للاستقلال الحقيقي الذي توصل اليه العرب بعد عهد طويل كما غدا رمزاً للامل في المستقبل والكرامة في الحاضر . انه الرجل الوحيد البارز الذي انجبته الامة العربيـــة في العصر الحديث الذي تقبله نفوسهم والذي في وسعـــه ان يعمل حقاً وصدقاً على المسرح العالمي . انه المواطن الاول الذي عمل للوحدة العربية التي ستتحقق حتماً مهما جاء بعده من أبطال أبرزتهم ثورة العراق او تبرزهم كفاحات المستقبل . انـــه سيظل الاول دائماً وسيظل في عيون العرب نبي القومية العربية الحديث حتى بعد ان يزول . وكانت مئات الصور لعبد الناصر تعلق في بيوت العراق وحوانيته كاحدى الصور المقدسة حتى في عهد حكم نوري السعيد ، وعندما كان رجال شرطته يبحثون عن غير الموالين للعهد البائد . كان عبد الناصر رمز الطبقتين الوسطى والدنيا في العراق، وهما الطبقتان اللتان خلقتا الجمهورية .

وفي السنوات الاخيرة للملكية اتبعت اذاعة بغداد طريقة معيبة في الزراية بعبد الناصر وعلى الغربيين الذين تعودوا على الاستماع الى الشكاوى من نغمـــة الاذاعات المصرية ان يدركوا ان العراقيين ولا سيما المثقفين منهم والذين يحملون شعوراً قوياً بالمسؤولية ، كانوا يرون في اذاعات بغداد مصدر عيب وعار ، لقد كانت بعيدة كل البعد عن السياسة ، اشبه ما تكون بارتداد المرء عن دينه الى ديانة اخرى، مما يدل على ذوق رخيص ودنيء . وقد انتشر هذا الشعور بين جميع

الطبقات ، ولا سيما الطبقات الجاهلة التي تعتمد على الاذاعة اعتماداً كلياً . وعندما كان العراقيون يسافرون الى الخارج كانوا يلقون اللوم على هذه الاذاعات ، لا في الجمهورية العربية المتحدة فحسب بل في امارات الخليج ايضاً . وكانوا يحسون بمرارة النقد ويشعرون بالرغبة في وضع حد لهذا العار وكان هذا الاحساس تجاه عبد الناصر يقابله شعور مضاد كل الضد للعائلة المالكة التي كان افرادها يعيشون في ثراء ورخاء ، ولا يهتمون إلا بمصالح عائلتهم ووراثتهم وحياتهم البوهيمية . وكانت الصورة الايجابية لعبد الناصر تقابلها في اذهان العراقيين صورة سلبية لعائلتهم المالكة .

وكان عبد الناصر في رأي الجميع كريماً وكريماً للغاية مع اعداء العرب المهزومين . فقد أصر على ان يترك فاروق يذهب وشأنه ، دون ان يلحق به اذى ، كما اصر على ان يترك الرعايا البريطانيون المقيمون في مصر يغادرونها عند حرب السويس ، بينما كان زملاؤه يودون اعتقالهم . وعلى النقيض من هذا التسامح كان يبدو عبدالاله ، اكثر افراد الاسرة المالكة العراقية مقيتاً في قلوب العراقيين موصوفاً بالقسوة والكراهية . وكانت هذه الصفة اكثر ما تكون وضوحاً في عام ١٩٤١ عندما صادر كل ما كان يملكه رشيد عالي ، وعندما اصر على تنفيذ الاعدام بالضباط الاربعة الذين حملوا السلاح في وجهه . وكان معظم العراقيين من ذوي التفكير السياسي يرون من الامور البديهية ان شعب العراق بأسره قد اشترك في تلك المعركة القصيرة وان القتال لم يقتصر على زمرة ثورية قامت في وجه حاكمها . وبينما يرى الشعب البريطاني ان القيام بعمل ضد التاج خيانة عظمى ، لا يفهم الشعب العراقي هذا المفهوم لانه يعتقد ان التاج وبعض ممثليه يمكن ان يكونوا كغيرهم خونة للشعب العربي .

والزائرون البريطانيون الذين استمعوا الى ما كان يشعر به العراقيون دون ان يتأثروا باحاسيسهم انفسهم تجاه اسرتهم المالكة كانوا يدركون فوراً ان العراقيين يرون في افراد عائلتهم المالكة ، غرباء مستوردين . وفي الحق ان الاسرة الهاشمية لم يكن لها في العراق اية جذور او اصول . فقد جيء بهم من

الحجاز ، اعطوا تاج العراق كجائزة ترضية ، بعد ان قرر الحلفاء الغربيون حرمانهم من تاج سوريا الذي خططوا للوصول اليه ، كما طردهم عبد العزيز بن سعود فيما بعد من مركزهم الوراثي في الجزيرة العربية . ولا ريب ان الصراع بين الدول الكبرى قد لعب دوراً كبيراً في مجيئهم الى العراق وعلى الرغم من ان فيصل الاول كان يتمتع بسمعة عالية ، فانه واقرباءه لم يكونوا صالحين لاختيارهم لتولي شؤون العراق ، إذ لم يكن ليربطهم بالعراقي اي رابط . ولم يكن وليد الصدفة ان البلاد التي اعطيت في عام ١٩١٩ للانتداب الفرنسي قد وضع لها النظام الجمهوري وان الاراضي التي اعطيت للانتداب البريطاني قد رسم لها النظام الملكي . فكلا الامرين قد تم منسجماً مع نظام الحكم في البلدين المنتدبين . وهكذا تمت الصورة على الشكل الآتي : نظام ملكي يفرضه البريطانيون للاسرة الهاشمية الغريبة عن البلاد .

وكهاشميين من ذرية الرسول، وهو ادعاء يعودون به الى الحسن اقل حفيدي الرسول اهمية وشأناً ، كانوا يتوقعون ان يلقوا الاحترام والتقديس من المتدينين . وقديماً كان يقال ، ان المصريين اكثر تمسكاً بالدين من الاخلاق ، والعراقيين بالاخلاق اكثر من الدين ، والسوريين لا بهذا ولا بتلك (كذا) . وعلى الرغم من ان هذه الصورة الكاريكاتورية قديمة للغاية إلا ان لها بعض الواقع في عصرنا هذا . إذ على الرغم من ان الكثيرين من العراقيين متحمسون للدين ، فانهم يحكمون على زعمائهم من ناحية سلوكهم . وعلى كل حال فان المنزلة الدينية التي يدعيها الهاشميون ليست من الاهمية في الصورة التي تبدو لاول وهلة . فعام ١٩٥٨ يرمز الى الربع الثالث من القرن الرابع عشر للهجرة الاسلامية ، اي الى خمسين جيلاً منذ عهد الرسول ، تكاثرت فيها ذريته وسلالته وبين افرادها الغني والفقير والمتوسط والحاكم وكلهم يتمتعون بمنزلة محترمة ولكنهم لا يستطيعون طلب المال والقوة لمجرد انتمائهم الى هذا البيت العظيم. وقد يقال ان بعضهم لا يستطيعون اثبات نسبهم ولكن للبعض الآخر من قوة النسب ما يضاهي اصالة البيت الهاشمي من ابناء الملك حسين الذين حاربوا الى جانب لورانس وكوفئوا بعروش في

الاردن وعلى ضفاف دجلة . وقد تكون نظرة الاجانب وحتى بعض المسيحيين العراقيين الى النسب الهاشمي من الناحية السياسية اكثر جدية من نظرة عامة المسلمين العراقيين ، الذين مع احترامهم الشديد للرسول لا يرضون مطلقاً ان تمثله ذريته كل التمثيل .

وكل ما كان العراقيون يتطلعون اليه ، الحكم الصالح الذي يحترم نفسه ، فقبل ظهور عبد الناصر بعهد طويل ، كان العراقيون يقبلون زعامة اي رجل يأتي لهم بالحكم النزيه والاستقلال الصادق وكل من منحهم هذين الامرين كان خليقاً بأن يتلقى ولاءهم واخلاصهم . ولعل رشيد عالي الكيلاني في عام ١٩٤١ خير مثال على هذه الحقيقة . وربما كان غازي بن فيصل الاول مثلا آخر اقل جدارة واستحقاقاً . ومن الصعب ان نثبت كثيراً ما عمله غازي لاستقلال العراق ولكن الذي لا مرية فيه ، انه كان يشعر بالتعاسة اثناء دراسته في كلية هارو وكان يتضجر من صلابة البريطانيين . وكثيراً ما كنت ترى صورته او تمثاله معلقين في بيوت العديدين من العراقيين غير المتعصبين ، بعد ما ينوف على عشر سنوات من وفاته . لكن هذا اصبح نسياً منسياً بعد الثورة وكان تأثيره قوياً على معاصريه من الشبان الذين هم في مثل سني انا ولعل مأثرته الرئيسية انه قد لاقى حتفه بشكل عنيف في حادث سيارة يعتقد ان البريطانيين او اعوانهم من العراقيين قد افتعلوه ، اما البريطانيون بدورهم فقد نسبوا هذه القصة الى الدعاية الالمانية ولعل القليلين من العراقيين لم يصدقها اذ ان تصديقها لم يكن مقصوراً على اعداء بريطانيا فكثيرون من الافراد الذين ربطوا مصيرهم بمصالح بريطانيا كانوا يرغبون في تصديقها على اساس ان صداقة بريطانيا فعالة وذات نتائج وعداوتها بعيدة وقاسية لا ترحم .

ولقد تبوأ العرش بعد وفاة غازي طفل صغير هو فيصل الثاني . وهنا يبرز في المقدمة رجل قدر له ان يتحكم في تاريخ العراق وتاريخ اسرته الحاكمة جيلين كاملين لا بقوة شخصيته ، بل بفضل مركزه واطاعه . وقد حكم هذا الرجل مع نوري السعيد العراق حتى نهايتهما ، فقد قدر لهذين الشخصين المكروهين ان يموتا في غضون يومين . وهذا الرجل هو عبد الاله ، ابن عم غازي وشقيق زوجته

الذي اعلن وصياً وولياً للعهد . فهو خال الملك الطفل ولعل المأثرة الوحيدة في حياته هي حنانه وعطفه على ابن اخته . وقد شب فيصل ليرى في شخص عبد الاله والداً له وليعهد اليه بمهمة الحكم الفعلي .

ولم اسمع قط في حياتي من اي فرد عراقي عادي اي مديح لعبد الاله سوى هذا الحنان ويقال ان سياسياً عراقياً معروفاً بولائه للبيت المالك قال له ذات مرة : « اني على استعداد لان اقذف بنفسي في النار من اجل فيصل ولكني لا اقذف بنفسي في الحديقة من اجلك انت » . وكان الناس يرون فيه الرجل الذي لا تهمه المصلحة العامة مطلقاً وانما تطغى عليه مطامعه وأنانيته الشخصية بحثاً عن الفوائد لنفسه ولعائلته . لا يخضع لأي قانون ، ولا لأي عرف سياسي او اخلاقي . وقد قيل الكثير عن حياته الشخصية وزيجاته الفاشلة فصدق الناس العديد من المبالغات حول هذين الموضوعين ولم يقتصر تصديقها على المعارضين من السياسيين او على رجل الشارع العادي الذي كان يرى فيه رمز الحياة الداعرة . ولعل الذين احتكوا به وعرفوه لم تكن نظرتهم اليه لتختلف عن هذه النظرة . وكثيرون من الرجال الاشراف الذين عملوا معه في الايام الاولى لوصايته قد اضطروا فيما بعد الى الوقوف في صف المعارضة ومن ثم قبلوا العزلة السياسية الى ان جاءت الثورة وحررتهم منها وقد حاول احد الوزراء مرة مناقشته ومعارضته في الاجراءات غير القانونية التي كان يتبعها للاستيلاء على الاراضي ، فأبلغه عبد الاله انه لا يتوقع العودة الى الوزارة مرة ثانية ، وحقاً فقد اصبح هذا السياسي من المشبوهين الذين يعتقلون في كل مناسبة ويستهدفون لنقمة عبد الاله وروحه التي تريد الثأر والانتقام . وتعود بي الذاكرة الى حادث رأيته بعيني قبل نحو من عشرة اعوام ، حي كامل من الاكواخ تهدمه الجرافات ويشرد اهله في كل حدب وصوب ، لان احد ساكنيه قد تجرأ فقذف بحجر امام سيارة عبد الاله وهي في طريقها الى القصر الملكي .

وهذا الرجل كان صديقاً لبريطانيا وقد ارتبط بحياة الغرب ، ولا سيما بالحياة البريطانية وكثيراً ما جاء عبد الاله الى لندن وحل ضيفاً على الاسرة المالكة

البريطانية . وكان يتعمد كثيراً في حياته العامة تقليد مظاهر حيـــاة الاسرة المالكة البريطانية . فتقاليد القصر قد نقلها عن القصر البريطاني ، وحتى النشيد الملكي كان نغماً غريباً يعزف ببعض النشاط ليأخذ طابعاً شرقياً ، وسيارات الرولس رايس ، ورحلات الصيد الملكية ، حيث يطارد افراد الحاشية بملابسهم التنكرية الثعالب كما في كتب كبلنغ (شاعر بريطاني معروف) . كلها مظاهر مقتبسة من بريطانيـــا . حتى انه اقتبس عن الملوك البريطانيين العربة الملكية ليستخدمها في الاحتفالات العامة وهي عربات كان الشعب العراقي يتطلع اليهـا بازدراء على انها مظهر من مظاهر الرجعية العنيفة وهذا الجو الذي ســاد البلاط العراقي كان يختلف كل الاختلاف في الحقيقة عن جو البلاط البريطاني بالرغم من محاولات التقليد التي لجأ اليها عبد الاله . ففي بريطانيا ملكية دستورية عريقة تعرف حدوداً ما وفي العراق ملكية ناشئة ليس لها جذور او اصول دستورية .

ومن الناحية السياسية مكن عبد الاله لرجله نوري السعيـد ان يحكم حكمه البوليسي . فالخوف الذي سيطر عليه بعد انقلاب رشيد عالي عام ١٩٤١ وهو الانقلاب الذي تمكن من الفرار منه مختبئاً تحت أبسطة سيارة بعض البريطانيين كما قيل ، او في زي امرأة وفقاً لرواية اخرى ، جعله يعمل على خلق ملكية تحكم وفقاً لما تشاء رغم تبدل الحكومات وتغييرها . وكان عبد الاله الذي سيطر عليه الخوف ثانية بعد مظاهرات معاهدة بورتسموث عام ١٩٤٨ هو الذي سـلم الحكم المباشر الى نوري السعيد والف الحكومات طبقاً لما يشاء ويهوى. ولا شك ان عبد الاله يتحمل مسؤولية كل ما عمله نوري السعيد الذي على الرغم من كراهية الشعب الشديدة له لم يكن ليقابل بالازدراء والاحتقار كعبد الاله بالذات . ولا ريب ان اطماع عبد الاله في عرش سورية وهي الاطماع التي حظيت بتأييـد نوري الكامل وعطفه ، قد جاءت للرجلين بنهايتهما الفظيعة . وفي جميع دوائر الدولة كانت صورة عبد الاله بعينيه البارزتين وذقنه السائبة الطويلة معلقـة في براويزها الذهبية ، تذكر الشعب العراقي بأن هذه الملكية الغريبة عنهم كانت تحمي المستغلين والانتهازيين .

اما فيصل الثاني فعلى العكس من ذلك ، كان يمثل في طفولته للشعب العراقي الامل في المستقبل ، وان كان في هذا التمثيل الكثير من الغرابة . فلمـاذا كانوا ينتظرون منه وضع الامور في نصابها الصحيح عندما يبلغ سن الرشد ؟ فكل ذي ادراك في الامور السياسية ما كان يتوقع ان يتسلم فيصل السلطة حقيقـة بيديه على الرغم من ان الكثيرين كانوا يرون فيه الامل المرتجى ؟ فحياته المؤلمة كانت تثير الاسى لدى الكثيرين ولا سيما من النساء فوالده مات موتة فظيعة وهو رضيع ، وقد تلقى العلم في بلد غريب حيث عاشت امه الى جواره وما كاد يبلغ سن الشباب حتى فقد امه من جديد بعد اصابتها بالسرطان .

ومن الناحية السياسية لم يكن امامه مناص من اتباع مشورة خاله الذي عمل كثيراً من اجله والذي عرف جميع رجال السياسة وخبرهم . وحتى ولو كان لفيصل الشخصية المستقلة لوجد من الصعب عليه ان يتحدى التقاليد العربيـة التي تقضي باحترام الكبير من ابناء العائلة وهكذا قضي على فيصل ان يكون اول ضحية للنظام الملكي . ومن المحتم انه كان شخصـاً أسعد لو لم يتسلم زمام الحكم قط . ولو قدر له ان يخلق شخصاً عادياً لعاش حياة سعيدة طيبة فعندما بلغ سن الرشد لم يتغير نظام الحكم قيد انملة ؛ وهو ما تنبأ به الكثيرون من رجال السياسة وهكذا خاب فأل الذين كانوا يرون فيه الامل المرتجى ، وعلى الرغم من انهم لم يحملوه الاخطاء الا انهم اخذوا ينظرون اليه دون اكتراث وعندما جاءه بعض الطلاب يناشدونه انقاذ زملائهم الذين كانوا يعانون من تعـذيب رجال الشرطة في السجون قيل انه بكى معهم عندما سردوا عليه ما يلقـاه هؤلاء الزملاء ولكنه طبعاً لم يستطع القيام بأي عمل . وكثيراً ما اعلن عن رغبته في التبرع لمشروع خيري فيسرع مستشاروه الى اذاعة هـذا الاعلان بينما يتلقى القائمون على امر المشروع الامر بأن المنحـة الملكية جزء من التبرع الذي سبق للحكومة ان قدمته اليهم .

وفي غضون ذلك ، كانت رقعة الاراضي الملكية تتسع يوماً بعد يوم حول مدينة بغداد ، وهذه الاراضي كانت تغتصب من املاك الدولة . والاراضي الملكية

في الحارثية في ضواحي بغداد قدرت قيمتها وحدها بستين مليون دينار . فبناء قصر ملكي جديد في هذه الضاحية جعل المضاربة على شراء الاراضي للبنـاء في هذه المنطقة مشروعاً مربحاً . وكان عبد الاله يتوقع الانتقال الى قصره الجديد في نهاية تموز عام ١٩٥٨ وكانت رغبة الكثيرين من الاثرياء ان يبنوا قصوراً لهم وبيوتاً تحيط بالقصر الملكي .

ولم يكن احد ليلوم الملك الشاب ، انه لم يكن في العير ولا في النفير . ولا ريب ان الدور السلبي الذي قام به الملك او الذي خطط له من قبل بطانتـه والمحيطين به كان عاملاً رئيسياً في النكبة التي حلت به . وعلى العموم فان العائلة المالكة لم تلعب دوراً هاماً في حياة البلاد العامة . وكثيرون من مؤيدي العهـد البائد البارزين الذين لم يكن ليلحق بهم اي شك او شبهة من ناحية معارضتهم السياسية للنظام القائم ماكانوا ليحظوا بأي تأييد ملكي لمشاريعهم الخيرية ، لان البطانة الملكية ، مخالفة بذلك للتقاليد العربيـة ، كانت تريد ان تعزل الملك عن الحياة اليومية وعلى الرغم من تقليدهم للحياة في بلاط سان جيمس ، الا ان النشاط الاجتماعي الذي يقوم به افراد الاسرة البريطانية المالكة لم يكن ليحفزهم على الاقتداء به . ففي الحياة الفنية لم تقم العائلة المالكة باي دور . وقد يقال ان الملك كان يمتلك بعض الصور الا انها جميعاً من الطراز القديم

وقد يقال انه وافراد عائلته بنوا بعض القصور الا ان هـذه الصور وتلك القصور كانت جميعهـا من تصوير او بناء الفنانين الاجانب الذين لم يكونوا في رأي المثقفين العراقيين وكلهم من دعـاة الاساليب الفنية الحديثة ، غير ملهمين وغير بارزين . ففي العراق مواهب عظيمة كامنة ، ولم تفلح العائلة المالكـة في ابرازها او مساندتها على البروز . وفي الحقيقة لم يسهم افراد العائلة المالكة في اي ميدان مساهمة فعالة اللهم الا في الميدان السياسي حيث تبنى عبد الاله حكم القوة وحكم الفساد . وهكذا أضاعت الاسرة المالكة آخر فرصة لها .

فالصورة التي ظهرت الملكية العراقية فيها لرعاياها كانت على الشكل التالي: غريبة في أصلها ، أقامهـا النفوذ البريطـاني فاقتبست عن البريطانيين أساليبهم

ولم تكن دستورية الا في مظهرها وادعائها ، وهذا ما جعل الانقلاب الدستوري امراً محتوماً. فالغالبية من الناس كانت تدرك ان ايام الملكية في العراق أصبحت معدودة ولكنها لا ترى كيف ستكون هذه النهاية . وعندما كان ممثل الملكية يمر في شوارع بغداد كان يلقى بعض التصفيق الخالي من الحماس ، ومن الظاهر ان كثيرين من الانكليز كانوا ينظرون الى هذا البلاط الصغير بعين الاحترام ، وهذا ما حمل أصدقاء بريطانيا الحقيقيين في العراق ، وجلهم من غير ذوي المطامع والآراء السياسية ، على النظر اليها كحقيقة مسلم بها ، وهي ان المصالح البريطانية مرتبطة بمصالح هذه الاسرة المالكة في العراق .



الفصل الثاني

العهد البائد : فساد وظلم

رأى العراقيون في حكومتهم دولة بوليسية تدعم نظاماً يقوم على الفساد والرشوة ، وهذا الفساد مما لا يتطرق الى وجوده الشك . فعندما تعرف موارد المرء المشروعة وتكون معقولة محدودة ، ثم يبدأ في بناء الدور الشواهق ، ويقيم فيها ويحيا حياة بذخ وترف ، ويقتني سيارة فاخرة ، ويقضي اجازاته في الخارج فليس في هذه الحالة إلا تفسير واحد . ولنضرب مثلاً بشخص لم تكن له موارد كبيرة ، كان يتبجح بان البيت الذي بناه كلفه ٢٦ الف دينار ثم باعه بخمسين الفاً ، وكان قد بناه على ارض مساحتها ١٧٠٠ متر مربع ثم اضاف اليها ١٧٠٠ متر اخرى جعل منها حديقة وثمن المتر الواحد ثلاثة دنانير . فمن اين جاء هذا الشخص بكل هذه الاموال ؟ وكان الجميع يتحدثون عن طبقة جديدة من الاغنياء حديثي النعمة اخذت تطبع المجتمع الثري في بغداد بطابعها فتنظر الى كل من لا يحيا في مستواها نظرة الازدراء والزراية . فمن هم افراد هذه الطبقة .

يبدو ان الفساد كان يبدأ في الاسرة المالكة التي تتسع رقعة املاكها يوماً بعد يوم ثم تنزل الى الوزراء وابنائهم وبعض كبار رجال الاعمال الذين يتمتعون بالنفوذ اكثر من بعض الوزراء ثم ينتقل الى اعضاء البرلمان فكبار الموظفين الى ان يصل الى زمرة الطفيليين واضرابهم . ويعتقد ان بعض الوزراء قد اشتهروا بالرشوة والفساد وعرفت اسماؤهم عند القاصي والداني . حتى ان احدهم كان

موضع الحسد من كبار رجال الاعمال . فهو يدير اعماله متمتعاً بالامتيازات التي يمنحها لنفسه كوزير او يمنحها له زملاؤه من الوزراء الآخرين وكان آخر لا يكترث بالطريقة التي يجمع بها المال طالما انه ينجح في جمعه له . وقد سمع عن نوري السعيد قول مشهور له تناقل به الناس في كل مكان وهو عجزه عن القيام بثلاثة امور فقط اولها منع هذا الوزير بالذات عن السرقة والنهب . اما الامران الآخران فيتعلقان بحالات مشابهة مع شخصين آخرين لا يقلان عن الاول بروزاً واهمية .

واشتهر ابناء الوزراء الذين جمعوا ثروات كبيرة بين عشية وضحاها . فأحد الشبان من هؤلاء أضحى على جانب كبير من الثراء بعد أربع أو خمس سنوات من انتهاء دراسته . وعندما تحدث الضابط المسؤول عن حراسة المعتقلين من رجال العهد البائد بعد قيام الثورة قال هذا الشاب : (لماذا تعتقلونني هنا ؟ لقد كنت أقضي جل وقتي مع النساء وفي احتساء الويسكي ولم يكن لي شأن بالسياسة مطلقاً) . ولا شك ان هذا الشاب أسوأ مثل على أسوإ حالة من حالات الرشوة والفساد فهو يرى ان من حقه ان يعيش على الفساد . ولا شك ان هذه الطبقة من ابناء الوزراء لم تكن لتدرك ان الفساد والرشوة انحطاط خلقي، يمتد في شخصية الانسان واخلاقه ، وينتقل كالوباء عن طريق العدوى . وهذا! الشاب نفسه ، حدث ان اوقفه في العهد البائد احد رجال الشرطة بتهمة مخالفة انظمة السير فرفض الاذعان للأمر في البداية ، فلما هدده الشرطي باطلاق النار واجهه بالشتائم والسباب ، ومن ثم كان سبباً في طرده من وظيفته . وكان من المعتقد الشائع ان جميع ابناء الوزراء لا يتقيدون بانظمة السير وقوانينه ويسرعون في قيادتهم لسياراتهم وكثيراً ما تسببوا في حوادث مميتة كقتل احد الاساتذة في يوم ما ، دون ان يتمكن رجال الشرطة من توجيه التهمة الى ابن الوزير الجاني . وهذا السلوك أسوأ بكثير من الرشوة المباشرة اذ انه يرمز الى التحدي الصارخ للقانون نصاً وروحاً. وجميع هؤلاء من ابناء الوزراء كانوا من السكيرين المدمنين ، وكان احدهم معروفاً بانه من الخطرين عندما يسكر ، فتأخذه الحدة والرغبة في

الشجار ، ويخلق انواعاً من المشاكسات دون سبب او مبرر . ولا يجرأ على التصدي له أي انسان . وكثيراً ما الحق الأذى بالآخرين حتى ولو كانوا من النساء . لقد انتشر امر هذه القصص وذاعت اخبارها فأثارت في نفوس الشرفاء مشاعر الاشمئزاز . اما رجال الثورة فقد تميزوا على النقيض بطهارتهم وبعدهم عن الخمر والميسر ومسارح اللهو والنوادي الليلية التي كانت مظهراً من مظاهر الفساد في العهد البائد .

ومن الجدير ان اذكر على سبيل المثال الوسائل التي لجأ اليها نجل احد الوزراء للاثراء السريع . كان هذا النجل الكريم يتبوأ منصبين هامين في دائرتين من دوائر الدولة تشرفان على المواصلات . وقد عرف عنه في احد هذين المنصبين عمله المستمر في التهريب حتى للمخدرات . أما في المنصب الثاني فقد ابتكر نظاماً جديداً للتفضيل والأسبقية . فعندما تصل الى ميناء البصرة كميات كبيرة من البضائع ، كان يخصص العربات الشاحنة للتاجر الذي يدفع له اكبر كمية من المال لينقل عليها بضائعه ويبيعها باسعار احتكارية، بينما تكون بضائع التجار الآخرين ملقاة في ميناء البصرة لا يسمح لها بالنقل الى بغداد حتى يبيع ذلك التاجر جميع بضاعته . وقد قيل ان احد التجار باع ما استورده من الالواح الحديدية عن هذا الطريق بسعر اللوح ٩٥ ديناراً بينما سعره العادي ٤٩ ديناراً فقط ، في الوقت الذي كانت بضاعة منافسيه مكدسة في البصرة تنتظر رحمة ذلك النجل الكريم لتأمين وسائل نقلها الى بغداد .

وكان هناك طريقان مشهوران للاثراء السريع غير طريق الرشوة المباشرة . اما الطريق الاول فهو الاحتكار . فالاقتصاد العراقي يفتقر الى التصنيع ويعتمد الى حد كبير على البضائع المستوردة وفي مقدمتها الكماليات التي تشتمل على معجون الاسنان والشوكولاته والمواد الطبية والصابون والمنسوجات وغيرها . وكان الطلب شديداً على ساعات الايدي مثلاً . ولبعض الشركات الاجنبية وكلاء عامون لتصريف بضائعها يحددون اسعارها ويسرقون المستهلك بجميع السبل والوسائل . فاذا تعذر عليك الحصول على بضاعة معينة لفقدها من السوق

فاعلم ان وكيلها قد تجاهل طلبها او تناسى ، لتنعدم من الاسواق وليجبر المستهلكين على شراء مثيلاتها من المواد التي سبق له اختزانها . يضاف الى هذا النظام نظام آخر يتعلق باذونات الاستيراد عن طريق الكوتا ، وهو نظام مكن المستوردين من فرض الاسعار التي يريدونها . وكانت الكوتا تحت اشراف الوزراء المباشر الذين يحتفظون لانفسهم ولشركائهم بحصة الاسد منها ، ثم يمنحون ما تبقى الى التجار الذين يصلون الى نوع من التفاهم معهم وكانت سطوة صغار المستوردين على المستهلك عظيمة للغاية ، اما سطوة كبار المستوردين فلم يكن لها حدود مطلقاً . وعندما لفت احد النقاد نظر احد الوزراء وكان من كبار المستوردين في الوقت نفسه الى ان العالم لم يعرف بلداً يفرض فيه نظام الكوتا دون تحديد الاسعار ، اجاب هذا الوزير بان تحديد الاسعار أمر لم يألفه الشعب العراقي .

والنتائج السيئة المترتبة على هذا الفساد قد يصل اليها القارىء اذا ما ذكرنا له ان راتب المعلم في المدرسة الابتدائية كان يتراوح بين الاثني عشر ديناراً والتسعة عشر (وهذا بعد رفع الرواتب) بينما كان ثمن البدلة الواحدة لا يقل عن عشرين ديناراً . وهكذا كان الكثيرون من أصحاب الحرف والمهن عاجزين عن ابتياع بدلة جديدة ، فأقبلوا على شراء الملابس الاميركية المستعملة . وقد يكون من الصحيح القول بأن العمال الفنيين كانوا يتقاضون أجوراً أعلى من هذه الرواتب لكنهم كانوا يعملون دون تأمينات عمالية وفي الوقت نفسه يعجزون عن شراء الكماليات الاخرى التي يشتهون ابتياعها كالساعات بالنسبة لأسعارها الخيالية . وكثيراً ما اقبل الرجال من الموظفين على قبول أعمال اضافية في الامسيات وبعد الدوام للحصول على رواتب اضافية يستعينون بها على الحياة وهذا متبع في الكثير من بلاد العالم كاسبانيا مثلاً ، لكن الرجال العراقيين يحبون بيوتهم على وجه العموم ويرغبون في قضاء أوقات فراغهم مع أفراد عائلاتهم ، ولذا فان المرارة التي شعروا بها من جراء رؤياهم هذه الطبقة الجديدة من الأغنياء تثري على حساب الشرف والامانة بلغت حداً لا يطاق .

وكان الشكل الثاني من أشكال الفساد المتمثل في مضاربات الأراضي اكثر ما يتحدث عنه أهل بغداد قبل الثورة . فالاراضي الزراعية حول العاصمة كانت ملكاً للدولة وفي وسعها توزيعها على المزارعين المقتدرين الذين يبرهنون على استطاعتهم فلحها وزراعتها . لكن هذه الاراضي ما كانت لتوزع على اصحاب الثروات المعتدلة أو صغار المزارعين الذين يتقدمون بطلبها بل على الوزراء وشركائهم الاغنياء بعد ان يأخذ أفراد العائلة المالكة حصتهم منها .

وكثيراً ما كانت تتألف شركات وهمية من الوزراء للحصول على هذه الاراضي وامتلاكها فتقوم هذه الشركات بفلاحة جزء صغير منها . أما الاجزاء الباقية ، فتخطط لها المخططات ، وتبنى فيها بعض المساكن والأحياء التي تسمى باسماء أصحابها لتصبح ارضاً سكنية . وكان في مكنة الاستغلاليين القيام بهذه الاعمال لان الاثمان التي يتقاضونها فيما بعد كانت تغطي معظم النفقات التي صرفوها . ولقد وجدت داخل حدود المنطقة البلدية مساحات كافية لتطوير مشاريع الاسكان اللازمة لكن أمانة العاصمة كانت تمنع البناء فيها لحل مشكلة المساكن ، وأصبح في مكنة الاستغلاليين تحديد الاسعار والاجور التي يطلبونها في المناطق التي أخذوها خارج حدود المنطقة البلدية ، لا سيما وان أزمة المساكن من الحدة بالشكل الذي يؤمن لهم الأسعار التي يطلبونها للارض الخالية وللمسكن المبنى حديثاً . وفي احدى الضواحي رفض شخص ابتاع الارض بسعر دينارين ونصف للمتر الواحد عام ١٩٤٩ ان يبيعها مقابل عشرة دنانير للمتر في عام ١٩٥٨ وارتفع سعر الارض في شارع جديد شق داخل العاصمة الى ان بلغ ٢٢٨ ديناراً للمتر الواحد ، بعد ان ادى فتحه الى تعاسة عشرات العائلات الفقيرة التي كانت تعيش في الاكواخ (والصرائف) التي تم هدمها وصحيح ان اصحاب هذه الاكواخ قد عوضوا بسخاء على هدمها ، ولكن ساكنيها من الفقراء أجبروا على استئجار أكواخ ليست أحسن حالة منها تبعد عشرة أميال عن العاصمة واجور أعلى من الاجور التي كانوا يدفعونها .

وقد منحت الحكومة موقعاً ممتازاً للاباء اليسوعيين الامريكيين لبناء جامعة

عليه ، فسارع الوزراء إلى المضاربة في الأراضي المحيطة بهذه الارض . أما الجامعة الرسمية فقد منحت أرضاً ابتيعت من أصحابها بسعر دينارين للمتر ، حتى يقوم الوزراء بالمضاربة في الاراضي المجاورة لها. وهكذا نشأت أحياء سكنية جديدة وأصبح من واجب الاساتذة والطلاب التنقل في أربعة باصات للوصول من الدور التي يقيمون فيها الى الجامعتين المذكورتين. ومن الممكن تصور الأرباح التي جناها الاستغلاليون اذا عرفنا ان شركة من شركات الاراضي في جانب آخر من المدينة قدمت كهدية بلا ثمن مليون متر مربع لتقام الجامعة هناك آملة في الفرصة التي تتاح لها لاستغلال ما تبقى من الاراضي التي تملكها في تلك المنطقة . ويتضح من هذا الحديث العوامل التي أدت إلى ارتفاع أسعار الاراضي بشكل جنوني كارتفاع الصواريخ وكان موضوع الأحاديث عامة في النصف الاول من عام ١٩٥٨ هو التساؤل عن موعد انفجار هذه الصواريخ .

وقد بلغ الفساد حداً مزعجاً حدا بالنظام البائد أن يفكر جدياً تحت ضغط اذاعات القاهرة وايضاحها للحقائق في اقامة لجنة تطهير ، فصلت عدداً من الموظفين الفاسدين جلهم اما من صغار الموظفين أو من الذين كان لهم اعداء من المتنفذين وجميعهم من الذين لم يرتكبوا سوى جريمة الاقتداء بالبلاط الملكي أو باعضاء الوزارة . اما الاخرون من الصغار الذين تسندهم حماية القرابة للمتنفذين فقد واصلوا فسادهم . وكان خدم الوزراء يتقاضون رواتبهم وأجورهم من ميزانية أمانة العاصمة كما كان العديدون من رجال الشرطة يقومون باعمال الحراسة والخدمة والبستنة في دور الوزراء والمتنفذين الذين كانوا يرفضون السماح لهم بالقيام باعمال الشرطة عندما تتطلب الضرورة استدعاءهم للقيام بها .

ونظر الشعب الى رجال الشرطة على انهم من زمرة الفاسدين والمرتشين ايضاً وعندما نجحت الثورة ، تبين أن أكثر من ثلاثمائة موظف في أمانة العاصمة التي كانت السباقة في ميدان الفساد والرشوة ، تليها دائرة الشرطة ، لم يصلوا قط إلى مراكز وظيفتهم الا في نهاية كل شهر للحصول على مرتباتهم . وفي وزارة الاشغال وكان عدد كبير من المراقبين كما كانت غالبية الممرضين في المستشفيات

موظفين وهميين يتقاضون الرواتب دون القيام باي عمل وربما كان معظم هؤلاء من طلبة المدارس الصغار ، بينما كانت امهات المتنفذين ونساؤهم واخواتهم يتقاضون رواتب من وزارة المعارف مقابل خدمات وهمية . فاذا ما عرفنا كل هذا ، تبين لنا الدافع الى مقابلة الشعب للجنة التطهير بالزراية والاستخفاف إذ ان هذه اللجنة لم تمس من قريب او بعيد كبار المرتشين والفاسدين وفي مقدمتهم رجال العهد البائد .

وكان البريطانيون الذين يعتقدون ان كل بلد شرقي بل كل بلد غريب مصاب بداء الفساد والرشوة الذي لا اثر له في بلادهم ينظرون الى كل هذا بعين الاحتقار المتسامح ، اما العراقيون فكانت تحز الآلام في نفوسهم لهذا التدهور الاخلاقي الذي لم يكونوا قط مسؤولين عنه . انهم يرون فيه مظهراً من مظاهر السيطرة الاستعمارية . ويشعرون ان زعماءهم لم يكونوا يستغلونهم فحسب ، بل يصمونهم بالعار امام انظار العالم بالاضافة الى ضمائرهم .

وكان من المعتقد ان السبب الرئيسي في هذا الفساد يعود الى التوزيع غير العادل في الثروات دون القيام باي عمل مجد لاصلاح الوضع فالبترول هو اكبر مصدر لثروة العراق الطبيعية . وكانت الدول الغربية تشعر ان حصة الاسد من استنباط هذا البترول وبيعه يجب ان تعود الى اولئك الذين يقومون بالعمل . اما العراقيون فشعورهم يتلخص في ان البترول ملك لهم وان الحصة الكبرى من الارباح يجب ان تعود اليهم ، وكان الناس يقولون كما ذكر عبد السلام عارف بعد الثورة ان ليس من حق اهل لندن ان يرتدوا افخر الثياب على حساب العراقيين الحفاة . ان البترول ملك للعراق وعلى الرغم من هذا فإن شركات البترول حتى مظاهرات بورتسموث وتأميم البترول في ايران كانت تسير على سياسة وزارة الخارجية البريطانية ومن ثم ادركت الخطر الذي يهددها فسارعت الى تبديل سياستها بذكاء واستجابة وادركت هذه الشركات ان الواجب يحتم عليها التفاهم مع القومية العربية فتحركت بسرعة مبتعدة عن سياسة وزارة الخارجية وقام ممثلوها بالتفاوض مع نوري السعيد والوصول الى اتفاقية لم ترض

قط الرأي العام العراقي وإن كانت خطوة كبيرة في هذا الاتجاه ، وهنا تم انشاء مجلس الاعمار ليتولى انفاق عائدات الدولة من البترول بالشكل الذي يضمن زيادة الثروة القومية .

ولقد قام المجلس حقاً ببعض الاعمال العظيمة ولا سيما في انشاء السدود والخزانات لكن الثقة فيه كانت معدومة ، فكل ما يعمله نوري السعيد لا يدعو الى الثقة والطمأنينة ولا حتى الى التفكير فيه كعمل اصلاحي بالاضافة الى زيادة الثروة انتفع منها بصورة رئيسية الاغنياء وصحيح ان المخازن قد امتلأت بالاشياء الجديدة والقيمة ولكن من يستطيع الحصول عليها او شراءها ؟ فالدولة لم تخلق المشاريع الصناعية الجديدة على نطاق يمكنها من استيعاب اعداد كبيرة من السكان الفقراء والذين كانت تنتشر اكواخهم داخل العاصمة او وراء سدود الفيضان في الضواحي ، ولقد قام المجلس باعمال سلبية طيبة في منع الفيضانات ولكنه لم يقم بايجاد الاعمال لضحايا التغييرات الاجتماعية التي وقعت مؤخراً في البلاد . ولعل اسوأ عجز للمجلس في أعين الشعب العراقي كان تأخره في اقامة صناعات جديدة. فالعراق كان يستبدل بتروله بالسيارات الاميركية والكماليات. والموارد المالية لم تكن لتنفق في اقامة صناعات كبيرة او في تطوير الزراعة على نطاق واسع ولا حتى في الخدمات الصحية والاجتماعية بشكل واف لا سيما وان المشاكل الصحية في العراق كانت معقدة الى حد كبير .

ومن الناحية السياسية كان العهد يقوم على برلمان ينتخب وفقاً لنظام معقد يسهل التزوير في انتخابه . واختيار رئيس الوزارة كان من حق التاج بصورة مطلقة ولا سيما بعد ان اطلقت صلاحياته بعد عام ١٩٤١ ، وكان حشد النواب الموالين في البرلمانات المتعاقبة يجري في منتهى الدقة والعناية وكثيراً ما كانت توزع الدوائر الانتخابية بين الوزارة والبلاط والسفارة البريطانية . وعلى الرغم من ان العراقيين كانوا يقولون ان تدخل السفارة لم يكن واضحاً إلا انهم اعتقدوا ان مجرد مديح من رجال السفارة البريطانية لاحد الاشخاص كان كافياً لايصاله الى الندوة النيابية . ومع ان الكثيرين من السياسيين الحقيرين كانوا يترددون

على دار السفارة للاتصال بالسكرتيرين والملحقين وعرض خدماتهم اذا ما ساعدتهم السفارة على النجاح في الانتخابات إلا انهم كانوا يلقون دائماً الصد والخيبة ، فبدون تدخل السفارة كان النظام فاسداً وفاشلاً والكثيرون كانوا ينتخبون بالتزكية وترشيحهم يتم إما عن طريق البلاط او طريق الوزارة . وفي مجلس النواب الاخير قبل الثورة قيل ان مائة وثلاثة وثلاثين نائباً من مجموع ١٤٤ قد نجحوا بالتزكية ، بينما نجح في المجلس الذي سبقه مائة نائب بالطريقة نفسها . والمرشح الراغب بالنجاح كان يتبع احدى طريقتين إما ان يتقدم الى عبد الاله ليكسب رضاه بالطريقة التي ترضي الامير ، او يتقدم الى نوري السعيد طالباً تأييده وعونه ، والأمير والوزير يعملان معاً يداً بيد . وهذا التأييد كان ذا نفع من ناحيتين ، الناحية الاولى مكافأة الموالين المخلصين والناحية الثانية تأمين السيطرة على البرلمان ، وقد جرت العادة على السماح لفئة من المعارضين المعتدلين بالوصول الى المقاعد النيابية لايجاد معارضة أليفة وان كان هذا الاجراء الاخير قد اهمل ايضاً في الآونة الاخيرة . وكان الوزراء مسؤولين نظرياً أمام البرلمان (على الاقل حتى عام ١٩٤١) اما مسؤوليتهم العملية فأمام البلاط الملكي وهو عكس الامر المعروف في بريطانيا . فعبد الاله هو الشخص الوحيد الذي يرجون رضاه . وإذا ما تجرأ احدهم ولم يمتنع عن النقد والتجريح ، يجد نفسه بعد حين خارج الحياة السياسية وهذا ما وقع فعلاً في اوائل عهد عبد الاله لمحمود صبحي الدفتري الذي ادى نقده المستمر لتجاوز البلاط الملكي على حدود الدستور الى اخراجه من حياة البلاد السياسية وحتى من عضوية مجلس الاعيان الذي يختار البلاط اعضاءه .

وتتألف غالبية اعضاء مجلس النواب من الشيوخ الذين يمثلون اصحاب الاملاك والاقطاعيين ممن يكرههم ابناء الطبقة الوسطى . فالفساد الذي استشرى في المدن والذي بحثنا امره فيما سبق قد امتد الى اراضي البادية . وكثيراً ما تحدث الناس عن فضيحة استعمال مياه سد الكوت . فقد قيل ان هذا المشروع الذي كلف خزانة الدولة ملايين الدنانير ذهبت فائدته الى املاك ثلاثة رجال فقط كان

احدهم يفاخر بان مساحة املاكه تبلغ مساحة سويسرا . واعتقد ابناء المدن ان الابقـــاء على الاحوال البدائيه المتأخرة في الارياف كان امراً مبيتاً ومقصوداً ، فقانون العشائر في الصحراء يقوم مقـام قانون العقوبات البغدادي والفرق بينهما شاسع كبير ، وهـــذا يعني ان العراق يسوده قانونان احدهما سن لكي يلائم ظروف شعب متمدن كغيره من الشعوب وآخر لتحكم بموجبه جماهير المتوحشين المسلحين (كذا) الذين تسيطر عليهم مثل الشرف البربرية . وهكذا فان الاستعمار كشأنه دائماً ، قصد الابقاء على الاحوال التي يعيش فيها البدو الرحل اطول امد ممكن والحيلولة دون خلوصهم من ماضيهم وقد حافظ العهد في العراق على ما بدأه الاستعمار .

ويدرك جميع العراقيين المهمة الحقيقية لشيخ القبيلة الذي يجب ان لا يكون اغنى من افراد عشيرته، وإنما أكبر منهم سناً وأكثر حكمة وبالتالي زعيماً طبيعياً لهم . اما الشيوخ العصريون فقد كانوا مختلفين كل الاختلاف عن ذلك ، وهو ما يثير الدهشة . انهم السند الرئيسي للعهد القائم ، وقوتهم ، مع ان نوري السعيد قد استغلها ، وضع اسسها البريطانيون الذين حفزهم الى ذلك دافعان مشتركان اولهما اعجابهم الطبيعي بالطبقة النبيلة الارستقراطية وثانيهما استغلال هذه الطبقة السياسية الجديدة استغلالاً انتهازياً . ولا شك ان قانون العشائر نفسه كان مثلاً على هذا الاستغلال . فقد سنه اداريو الجيش البريطاني الذين جاءوا من الهند في نهاية الحرب الاولى ولعل ابرز ما ارتكبه البريطانيون في عهـــد انتدابهم وضع قانون التسوية الذي يخول موظفي محاكم التسوية ، تسجيـل الاراضي الشاسعة التي كانت فيما مضى ملكاً مشاعاً للقبيلة ، كممتلكات شخصية لشيوخهـــا . ولا ريب ان نتائج مثل هذا القانون وتأثيره تتوقف على طريقة استخدامه . وكنت حتى الان اصف الوضع في بغداد كما بدا في عيون العراقيين ، ولكنني سأنقل هنا بعض ما كتبته الآنسة وارنر إذ تقول : « ومنذ عام ١٩٣٣ بدأ الموظفون البريطانيون في تنفيذ تسوية الاراضي على اساس منظم . فجميع اراضي القبيلة

كانت توضع تحت تصرف شيخها كممتلكات خاصة له »[1] ومما اثار سكان المدن وأفزعهم أيضاً ان القانون المذكور اعطى الملاكين حق وضع المستأجرين او العمال الزراعيين في السجون وفاء للديون . وساد الشعور ان هـذا القانون قد وضع بصورة خاصة لبنـاء طبقة سياسية جديدة لديها القوة الاقتصادية الكافية لدعم نظام يؤيده الانكليز أو بعبارة أدق طبقة موالية للبريطانيين بالاضافة الى الطبقة السابقة من سياسيي بغداد من رجـال العهد القديم . وكانت محاكم الاراضي في السنوات التي تلت عام ١٩٣٠ تحت سيطرة البريطانيين وهذا ما خول لهم منح الشيوخ الموالين لهم سياسياً الاراضي وجعلهم اثرياء ، أما الشيوخ الذين لم يوالوهم فقد اصبحوا بفضل هذا القانون ، يعانون الفقر التدريجي . وقيل ان عدداً من الشيوخ قد استحدثوا، وخلقوا ، وقد قيل لي ان شواقا (وهو الذي يجمع روث الابل لبيعه كوقود) قد رفع الى مرتبة الشيوخ . وهكذا اقـام الشيوخ في غضون بضع سنوات وبسرعة فائقة طبقة اقطاعية جديدة لم يعرفها العراق من قبل ، ومكنتهم الامــلاك الشاسعة التي اعطيت لهم ، بالرغم من عجزهم عن استغلالها استغلالاً صحيحاً ، من الاقامة أكثر أيام السنة في فنادق بغداد يحتسون كؤوس الويسكي . وقد أدى السبب نفسه الى اجبار الفلاحين ، نتيجـة فقرهم المدقع على الهجرة من الريف الى بغداد سعياً وراء الرزق . وقد اطلق على هؤلاء اسم الشروقيين نسبـة الى الشرق إذ ان معظمهم جاءوا من لوائي الكوت والعمارة في جنوب بغداد الشرقي وقد اقام هؤلاء البؤساء في كل زاوية من زوايا بغداد ، حيث لا بيوت ولا مساكن ، اكواخاً من الطين تدعى « بالصرائف » ، يعيشون حياة البؤس أمـام ابصار الجميع ، وكان بعضهم ، وهم احسن حالاً ، يعيشون في الدور الكبيرة بمعدل عائلة كاملة في كل غرفة . ومع ان بعض التحسن قد اصاب هؤلاء في عام ١٩٥٨ من ناحية مستوى معيشتهم إلا ان الاحوال السيئة المخيفة التي كانوا يعيشون فيها قد ظلت كما هي دون أي تغيير .

وقد اصبح هؤلاء التعساء يؤلفون ما يسمى برعاع بغداد ، وهم الذين طبقت

(١) اصلاح الاراضي وتطويرها في الشرق الاوسط -- المس وارنر .

شهرتهم الآفاق . ويذكر اصحاب الحوانيت في بغداد بيأس وأسى ما وقع عام ١٩٤١ عندما غادر رشيد عالي البلاد ، وظل الجيش البريطاني خارج العاصمة في انتظار نجاح عبد الاله بتأليف ادارة جديدة ، وسمح للرعـــاع بنهب الحوانيت والمخازن ، كما يهوون دون زاجر او رادع . وهنا قد يتساءل المرء لمـــاذا سمح عبد الاله بذلك أخوفاً من الرعاع أم رغبة في ارهـاب البورجوازيين واقناعهم باهمية وجوده ؟ ومع ان الدرس ظل ماثلاً في الاذهان في السنوات التي تلت ، إلا أن أي عمل جدي لعلاج اسباب الاضطراب والفوضى ، لم يقم به المسؤولون، مع ادراكهم ان السبب الرئيسي هو وجود طبقة من السكان لا ثقافة لافرادهـا ولا عمل ، انتزعوا من ماضيهم وتاريخهم وتقاليدهم واجبروا على العيش في محيط جديد بالنسبة لهم . اما شيوخ القبائل فقد صدقوا الدعايات التي خلقوهـا هم ، والتي تقول ان أبناء قبائلهم يحبونهم وان في وسعهم استخدامهم في القضـاء على الفتن والثورات التي قد يقوم بها ابنـاء المدن ، لكن الحقيقة ان هؤلاء الشيوخ كانوا مكروهين وان معظم سكان المدن الثائرين أو الذين يستعصى حكمهم هم من ابنـــاء قبائل أولئك الشيوخ ، الذين انتزعت منهم اراضيهم ، ولحق بهم الفقر ، فتركوا الارياف هرباً من حكم شيوخهم الظالم . وعندما قامت الثورة لم يقم احد من ابنـــاء القبائل في الارياف بأية حركة مضادة ولم يتحركوا لانقاذ شيوخهم من الاعتقال . وهكذا لم يصدق حدس البريطانيين ويصب اعتقادهم كما فشلوا في كل خطة سابقة .

ومن الجدير القول ، ان بعض هؤلاء الشيوخ كانوا على خلاف ما قلناه . ولعل اصدق شرح لذلك ان نسرد قصة ليست بالهامة ولكنها تحسر النقاب عن ذلك. فقد عاش احد الشيوخ الذي انتشر افراد عشيرته في مساحات شاسعة من البلاد. وكانوا مستقلين عنه كل الاستقلال . ولم يكن من عائلة هذا الشيخ أي عضو في مجلس النواب ، ونشأ أبناؤه والجيل الجديد من عائلته ، كما ينشأ أفراد الطبقـة البورجوازية العادية ، وكانوا جميعـاً من انصار البريطانيين وكثيراً ما اخذت صورهم كمثل للعرب وهي الصور التي تزدان بها كتب السياحة . وكان لهذه

العائلة املاك في ضاحية بغداد المساة بالكاظمية حيث تنافسهم عائلة عريقة وكثيرة الغنى من انصار نوري السعيد وحلفائه القدامى . وفي عهد الملكية البـائد اعتقل الشيخ المذكور دون مبرر ودون مذكرة لالقاء القبض عليه . وقد وقع الاعتقال بتحريض من مليونير من ابناء العائلة المنافسة وبأمر من عبدالاله بالذات وبتأييد كما قيل من دبلوماسي بريطاني ، وبعد اسبوعين اطلق سراح الشيخ ، بعد ان رفع ابناؤه عريضة الى الملك ، ودفعوا كما قيل مبلغاً طائلاً ، وعندما جاءت الثورة اعيدت لهذا الشيخ حقوقه المسلوبة فكان طبيعياً ان يؤيد النظام الذي اطاح بالملكية ،وعلى الرغم من بعض التحفظ الذي قد يبديه تجاه بعض الاصلاحات الاشتراكية إلا انه حتماً شديد الولاء للجمهورية .

ولا ريب ان افراد الطبقة الوسطى قد تأثروا كل التأثر برؤية الفقر المدقع يحيط بهم من كل جانب وقد يكون في هذا التأثر بعض العطف الشيوعي ، لكن الغالبية لم تتأثر بأية آراء شيوعية . وقد انعكست صور هذا الفقر في اللوحات التي رسمهـا فنانو العراق كل على طريقته . فبرزت في لوحات محمود صبري صور الفقر مجسمة بشكل عقلي اكثر منه حسي . بينـما برزت في صور فائق حسن وجواد سليم صور الفقر المصحوب بالانحلال البدني والصحي .

ويمثل هؤلاء الفنانون المجتمع العربي خير تمثيل إذ يشعرون بوحدتهم مع رجال من طبقة اخرى وفي هذا يشبه العرب الاسكوتلانديين اكثر من شبههم للانكليز. فعند الاخيرين ما زال المجتمع مقسماً الى طبقات تنمو باضطراد ، كل ما اصابهـا انحلال أو تأثر ، وتحافظ كل طبقة على نفسها . اما عند الاسكوتلانديين فهناك نقيضان بعيدان ، بينهما طبقة كبيرة من الناس يتحدون في كل شيء ويتبادلون الدرجات والمستويات بسهولة ويسر . وهكذا فعند العرب فروق شاسعة بين الشيخ والشاب والغني والفقير ، والحضري والريفي . ومع ان ابنـــاء الطبقة الوسطى عند العرب اكثر انعزالاً من الغربيين عن ابناء الطبقة الفقيرة ، إلا انهم يشعرون بشعورهم ، كما يشعر الاخ بما يصيب اخاه من هم أو غم . وهم يستنكرون هذه الفاقة اللاحقة بالآخرين ولا ريب ان هذا الشعور كان قوياً وحقيقياً .

وبدأ هذا الشعور في عام ١٩٥٨ يتطور من الاشفاق الى الاحترام عندما اخذ الشروقيون يحسنون مستوى معيشتهم وظهر منهم عدد لا يستهان به اظهروا نبوغاً مدهشاً في الاعمال الجديدة التي احترفوها ، كأعمال البناء بالاسمنت ، وأخذوا يبدون اهتماماً شديداً بالشؤون العامة . فبعضهم شرعوا يبتاعون اجهزة الراديو بالتقسيط وقد اصبحت للكثيرين منهم ، وهم اميون مصدراً للعلم والمعرفة ، كما بدأوا يستمعون الى اذاعات القاهرة في الوقت الذي اخذ رجال الطبقة الوسطى يشجعون هذه الظاهرة الجديدة من الوعي والادراك ، عند عمالهم ومستخدميهم من الشروقيين . ولكن ظلت الحقيقة ماثلة ، وهي ان الحكم الفاسد في البلاد ، قد اوجد بوناً شاسعاً بين الذين يملكون من الاغنياء وهم قلة ، والذين لا يملكون من الفقراء وهم الاغلبية الغالبة ومن المدهش ان الطبقة التي تقف بين النقيضين كانت تعارض حتماً العهد القائم .



دولة بوليسية

وقد اعتمد هذا النظام كلية وتفصيلاً على رجل واحد ، هو نوري السعيد ، وهو رجل بارز بل وعظيم خلق في غير عصره . وكضابط عاش في العهد التركي، بدا نوري السعيد كغيره من الساسة العرب من رجال العهد القديم ، مثل الملك عبد الله ملك الاردن، وكأنهم يعيشون في العهد العثماني والامبراطورية العثمانية. وكان الشائع الذائع ، ان نوري السعيد نفسه لم يكن فاسداً أو مرتشياً . وقيل انه على العكس من زملائه ، لم يكن ثرياً ، ولم يكن يعيش في بذخ وابهة . لكن نوري كان الراشي لا المرتشي . وهمه الحكم وهوايته اللعب برجال السياسة. وهو يريد تقرير مصائر الشعوب لا رسم الخطط لحكومة بلاده . والعراق في نظره جزء من البلاد التي يشعر نحوها بالولاء . فالعالم العربي في رأيه ، كما في رأي غيره من القوميين العرب ، وحدة حقيقية وقائمة ، فرقتها ظروف سياسية سيئة ، ولكنه عالم يقوم في نظره كما كان يقوم العهد العثماني على اكتاف الامراء ووزرائهم.

وكانت سيطرته على وزرائه عظيمة ومدهشة تشبه سيطرة المنوم المغناطيسي على وسيطه . وقد اعترف بعض هؤلاء امام محكمة الثورة في بغداد ، ان بعض الوثائق التي كتبوها هم بخط ايديهم كانت من وضعه وانشائه . وعندما يكونون في مجلسه يبدون مسلوبي الارادة ، ولكنه عندما يغيب عنهم ينتقدونه، وكثيراً ما يقررون معارضته في بعض آرائه . ومع ان قضاة محكمة الثورة لم يصدقوا هذه الادعاءات إلا انها تبدو صحيحة كل الصحة . فقبل الثورة ، كثيراً ما كان احد الوزراء ، يتخذ قراراً في موضوع ما ، بعد درس وتمحيص طويلين ثم لا يلبث ان يلغيه بسرعة فائقة . وليس من السر ان يقال ، ان السبب يعود

إلى قرار نوري المعاكس . أما الوزراء الاكثر دهاء ، فكانوا يمتنعون عن اتخاذ قرارات من انفسهم دون الرجوع إلى رأي نوري ، وكثيراً ما اعتذروا بان هذه القرارات كانت خارج صلاحياتهم ليتجنبوا الوقوع في المآزق . وليس من المبالغة ان يقال ان نوري بالرغم من حماسته في العمل في حقل العلاقات الدولية لم يكن يشعر الا بالازدراء لشعبه ومع انه لم يكن من المتطهرين في حياته الخاصة ، الا ان الرذائل لم تكن شغله الشاغل ، كما لم يكن اهتمامه محصوراً في شؤون شعبه الداخلية بل في العالم الذي يعيش فيه . انه ليس من ابناء عصره .

وهذه الحقيقة التي سردتها تفسر عجز نوري السعيد ، عن فهم دعوة جمال عبدالناصر كما تعلل فشله في خلق الدعاية التي تعتبر في عصرنا الحاضر لازمة لتحبيب السياسات إلى الشعوب . وحتى اللحظة الاخيرة من حياته اعتقد نوري ان مئات من الطلبة والمتطرفين فقط كانوا يعارضونه . ولم يؤمن قط بالرأي العام ، واهميته ، كما لم يدرك ، انه في الربع قرن الذي حكم العراق فيه ، قد اتسعت أهمية الرأي العام ، واشتدت عما كانت عليه في الماضي ، لقد عاش في عقلية « تركية عبد الحميد » وهي العقلية التي ارتبطبها أثناء دراسته والتي امتدت جذورها الى العهد الذي كان السلاطين لا يفهمون معنى لآراء رعاياهم واتباعهم ومع ان نوري السعيد لم يكن دائماً في الحكم الا ان الاعتقاد السائد ، ان نوري كان دائماً في الحكم سواء أكان على رأس وزارته أو في الاجازة بعيداً عن السلطة . والفرق الوحيد هو ان الشدة التي يمتاز بها حكمه لم تكن في نفس القوة والعنف ، عندما يكون خارج الحكم .

هذا هو الرجل الذي قدر له أن يضع جهازاً سياسياً ، يقيم عن طريقه دولة ثابتة الاركان ، موالية كل الولاء للعرش على ضوء التجربة التي مرت به وبسيده عبد الاله ، عندما اضطرا الى الفرار عام ١٩٤١ ففي تلك السنة وصل رشيد عالي الى الحكم عن طريق انقلاب ، تطلع الى المساعدة (عن رغبة او بدونها) من الحكومة الالمانية التي عجزت عن تقديمها . وقد اطلق على هذا الانقلاب اسم النازي كوسيلة مناسبة لوسم الرجال الذين ايدوه بطابع النازية وحرمانهم من

اي عطف بريطاني ، وابعادهم عن الحكم واضطهادهم . ومن الحق ان يقال ، ان رشيد عالي قد اتجه الى المانيا لانها كانت عدوة لبريطانيا وهذه كانت صديقة لعبد الاله. واذا لم يكن هناك حقاً من سبب يدعونا الى تسمية الحركة بالفاشيستية ، فليس هناك ايضاً من سبب لتسميتها بالثورية . فرشيد عالي كان يرغب في رؤية عراقه أحسن من العراق الذي عاش فيه ، ولكن الطريقة التي اتبعها كانت مرتجلة وليست وليدة عقيدة او مبدأ . وعلى العموم ، لم يتسع لديه الوقت ليعلن نظريته في الحكم او برنامجه . وكل ما لقيه من تأييد الشعب العراقي ناجم عن الحقيقة ، ان الشعب يرى في كل تغيير اتجاهاً نحو الاحسن . اما بريطانيا فلم يكن في وسعها الابقاء على نظام تراه المانيا في مصلحتها ، ولذا قدمت الى العهد المطرود المساعدة العسكرية التي عجزت المانيا عن تقديمها في الوقت المناسب الى رشيد عالي . وقد يرى النقاد العراقيون ان جميع الحكومات قد تقوم بتصرفات شاذة في اوقات الحرب ، ولكنهم يزعمون ان احداث عام ١٩٤١ شجعت بريطانيا على التدخل في شؤون العراق حتى في عهود السلم مما أصبح عادة فيما بعد ، وان بريطانيا ايام الحرب كانت ترى في كل معارض شخصي لنوري السعيد عدواً لها وللحلفاء . وهكذا عاد عبد الاله الى عاصمته تحت الحراب البريطانية وبدأ نوري السعيد في اقامة الدولة البوليسية ، التي دامت ، وفي كل عام يزداد ارهابها حتى تم قلبها والقضاء عليها في اللحظة التي خيل للعالم انها بلغت منتهى القوة والثبات . وكان ضحايا نوري الاوائل ، رجال ابرياء من كل طموح وغرض ، وابرياء من كل عاطفة نازية ، ايدوا رشيد عالي ، رغبة منهم في ايجاد حكم أفضل في العراق . وهكذا بدأت في العراق تلك الظاهرة الغريبة وهي معارضة نوري السعيد لكل اصلاح ، ومقاومته لكل مصلح وهي الظاهرة التي ميزت حكمه حتى ايامه الاخيرة .

وقام نوري بعد الحرب ، بمحاولة فريدة، لاقامة حزب ، على غرار الاحزاب في البلاد المتحضرة يؤيد حكمه وعهده ، ومن الجدير بنا ان نحلل هذه المحاولات بايجاز ، فقد كان فشلها امراً محتوماً بالنظر الى الطريقة التي اتبعها نوري ، والى

الآراء التي يؤمن بها . فبعد انتهاء الحرب بدل بعض الافراد مواقفهم،وأصبحوا نواة للحزب الذي رغب في انشائه . هناك مثلاً ، شخص اصبح في ما بعد ، وزيراً معروفاً ، كان معتقلاً طيلة الحرب في احد معسكرات الاعتقال ، ولكنه الآن تزوج احدى قريبات نوري السعيد،وتسلم منه اعلى المراكز.ووقعت هناك عدة ارتدادات مماثلة وان كانت الجوائز التي حصل عليها المرتدون أقل قيمة وأهمية . ويتحدث الكثيرون في الاوساط الجامعية ، عن ذلك النفر من الاساتذة ذوي النفوذ الذين قدم لهم نوري السعيد الرواتب المغرية والمقاعد النيابية فرفضوها رغم ما فيها من اغراء كبير . ولكن بعد عامين تجددت المحاولة عن طريق احد الوزراء ، الذي سبق ان غير موقفه ، وبعد مفاوضات طويلة ، أظهر فيها الاساتذة ميلاً لقبول بعض الاصلاحات في الشؤون الداخلية ، التي وافق نوري على القيام بها ، اصطدمت الآراء بصخرة السياسة الخارجية وقضية الوحدة العربية .

وكانت فكرة اقامة حزب سياسي على أساس عصري حديث له برنامجه المنبثق من مبادىء محددة ، فوق ادراك نوري السعيد ، الضيق في هذه الناحية رغم عبقريته، ولكنه رأى انه في حاجة الى تأييد ذوي الادمغة، وهذا ما حدا به الى البحث عنهم في الاوساط الجامعية . ولكن هؤلاء الاساتذة لم يكونوا فقط في حاجة الى الرشوات (اذا أخذنا برأي نوري في ان كل انسان معرض للشك والاغراء) ، بل كانوا في الوقت نفسه يتطلعون الى برنامج حزبي مقبول ، وهو ما لم يدخل في حساب نوري السعيد . ولذا قرر المضي في الطريقة العثمانية التي الفها وهي تقديم الهدايا الصغيرة الى بعض معارضيه من مستويات معينة . وقد حدثني احد هؤلاء فقال انه كان يتلقى بين الفينة والفينة هدايا من التبغ الجيد من نوري نفسه ، وعندما وقف المذكور من جديد في صفوف المعارضة ابان ازمة قنال السويس محتجاً على سياسة نوري ، اشار الطاغية العجوز الى تلك الهدايا ذاكراً انها ربما كانت مغشوشة لانها لم تؤد الى نتائج مثمرة . فرد الرجل المذكور عليه قائلاً : ان كل شيء في العراق القائم مغشوش .

ولسوء الحظ لم تتوقف أساليب نوري عند ذلك الحد من محاولة بناء حياة حزبية ، فوفاء منه لتقاليد الاتراك القديمة ، لم يكن نوري ليعرف الا سبيلين للتعامل مع معارضيه الهدايا والقوة ففي أيام الاتراك القديمة على ضفاف البوسفور كان الخليفة إذا ما فشلت هداياه ، يلجأ الى الاعتقال الصامت، والاعدام بصورة سرية . وقد احتذى نوري هذا الحذو عام ١٩٥٠ . فبينما كان يحاول خلق حزب لتأييده ، أعلن حل جميع الاحزاب القائمة ، وأغلق صحفها ، ثم عندما فشلت محاولاته ، لاجتذاب المثقفين الى صفوف حزبه ، استند إلى اولئك الذين لا يكترثون بالمبادىء الحزبية والعقائد والبرامج.وكان يرى في معارضيه متطفلين يتدخلون دون اختصاص في شؤون الحكم فليس من شأن المواطن العادي ، في رأيه ، ان يتدخل ، او يقترح شيئاً يتعلق بما يقوم به حكامه ، او بما يقع في بلده . وإذا ما تدخل او اقترح ، استحق العقاب . وقد لا يكون نوري حقوداً او لئيماً بطبعه كسيده عبد الاله ولكنه كان يرى في الارهاب ، وسيلة للوصول إلى هدف . والارهاب اصطلاح فني نطلقه على استخدام القوة ، لاسكات كل صوت معارض في البلاد عن طريق الخوف . وإذا لم يكن الارهاب عقيدة لنوري فقد اصبح كذلك فيما بعد عن طريق التجربة والخطأ وصار نوري السعيد طاغية من الطراز التقليدي المعروف .

ومن ناحية اخرى كان نوري السعيد مثلاً للعقلية المحافظة في كل مكان في العالم ، فهو على استعداد فوري لاطلاق لقب الشيوعي على كل من يرغب في الاصلاح ولو كان معتدلاً في آرائه (وليس من شأني هنا ان اقنع القارىء بأن هناك آخرين غير الشيوعيين المحافظين) . وقد خدم هذا الاستعداد الفطري عند نوري سياسته ايضاً . ففي عالم تكون فيه الدعوة ضد الشيوعية وسيلة للحصول على المساعدة الاميركية ، تصبح الفرصة ذهبية عند كل نظام فاسد ، لتسمية المعارضة – اية معارضة – بالشيوعية . فكثيرون من الذين اعتقلوا في عام ١٩٤١ كانوا طلبة في بريطانيا وغيرها من دول الغرب ، وكانوا من العقائديين التواقين إلى المثل العليا . وربما كان منهم الكثيرون من أعضاء النوادي الجامعية العمالية

او اتحاد عصبة الامم ولا ريب ان عدداً من الذين درسوا في انجلترا لم ينضموا إلى إحدى الجمعيات فيها ولكنهم تشربوا العقلية الاصلاحية العامة التي تسود جميع البريطانيين حتى من أنصار حزب المحافظين ، والتي ترى في بعض الامور الاصلاحية حقائق مسلم بها . ومع ان التحرر الاصلاحي ليس ظاهرة مقتصرة على البريطانيين ، الا انه طابع يطبع الحياة البريطانية ، وقد وجد هؤلاء العراقيون الذين اعتادوا عليها هناك عندما كانوا يدرسون انها بضاعة غير قابلة للتصدير . وسرعان ما وجدوا أنفسهم مضطرين لتأييد فئة خاصة ذات رأي معين قوامه خيبة الامل والصدمة النفسية من رؤية ممثلي الديموقراطيات الغربية ما وراء البحار يخرجون على المثل التي يؤمنون بها في بلادهم من عدالة ونزاهة واصلاح . فبريطانيا في عام ١٩٤١ كانت تخوض أعنف معركة من أجل الحرية كما آمن كل جندي بريطاني حارب في الميدان ، ولكن هؤلاء الشبان العراقيين – الذين درسوا في بريطانيا – رأوا « اصدقاء بريطانيا » من العراقيين يطبقون أساليب الدولة البوليسية ضدهم . وبعد ست سنوات أصبح من الواضح ان كل مواطن انكليزي من ابناء الطبقة الوسطى يرى شبيهه في العراق ، وقد امضى سنوات الحرب في احد معسكرات الاعتقال ، بعد ان اطلق عليه لقب « عدو بريطانيا » . حقاً انه عدو بريطانيا ، لانه يلومها على اعمال حليفها نوري السعيد الذي اصبح يمضي الآن في طريقه لاقامة حكم الارهاب .

وقد اصبحت معسكرات الاعتقال في ايام الحرب ، كما بدا في ضوء الحوادث التي تلت ، ادانات ثابتة . وكما هو متبع في الاعتقالات السياسية ، كان رجال البوليس يفدون على بيوت من يودون اعتقالهم في الساعات التي تلي منتصف الليل ، لاعتقالهم واقتيادهم الى المعتقلات الصحراوية . وهناك بعد عدة اشهر كان كل معتقل يتلقى وثيقة تبلغه ان الدليل قائم على انه سيقوم في المستقبل بعمل ضد سلامة الدولة والامن العام ، وانه تبعاً لذلك ، وجد من الضروري سجنه في معسكر الاعتقال لم يكن هناك اي تحقيق ، وظل المعتقلون في هذه المعسكرات طيلة المدة التي رأتها الحكومة التي كان نوري السعيد يرأسها ، والتي

كان صالح جبر وزير داخليتها ، مناسبة . وقد شهدت هذه المعسكرات احداثاً وغلماناً من طلبة المدارس الثانوية لم يتجاوز بعضهم السادسة عشرة، وعلى اولئك الذين لا يعرفون طقس العراق وجوه ان يتصوروا الحياة الشاقة في هذه المعسكرات الصحراوية اذا ما عرفوا ان درجة الحرارة في الظل في بغداد تبلغ ١٢٠ درجة فهرنهيت ، وقد تتعدّى ذلك في بعض ايام الصيف ، وان هذه الحرارة العالية تمتد سبعة أشهر طويلة في السنة . وفي الشتاء يشتد البرد القارس مدة ستة اسابيع وتهب رياح عاصفة . اما في الصحراء ، فالحرارة والبرودة اكثر منها في بغداد ومن الطبيعي ، ان العائدين من هؤلاء المعتقلين لم يكونوا ليحبوا نوري السعيد او حلفاءه الأجانب ، وبعضهم ، حتماً قد يقررون ، الابتعاد عن السياسة ومتاعبها ، وهذا مما يثلج قلب نوري السعيد ويرى فيه تحقيقاً لعقيدته العثمانية في ان الارهاب هو الوسيلة الصالحة للحكم .

ومضت السنوات الأخيرة من الحرب والسنوات التي تلتها دون وقوع حادث . وكانت هذه السنوات عهد قطاف لعبدالاله ، لكن الهدوء لم يستأثر باهتمام نوري السعيد ومشاعره . وبينما كانت جيوش حلفاء الشرق والغرب تزحف نحو النصر ، بدت سيطرتهم على الشرق الاوسط وطيدة الاركان لا يمكن ان يصيبها وهن او ضعف . وكان المفروض ان روسيا ستترك العراق لبريطانيا عن طريق الاتفاق فبدت سيطرة بريطانيا تبعاً لذلك ثابتة الدعائم وبدا مظهر المستقبل ثابتاً ومقرراً . ولكن فترة ما بعد الحرب ، بدلت هذه الحالة تبديلاً سريعاً . فالنشاط الذي قامت به السفارة الروسية في بغداد والنمو المضطرد للحزب الشيوعي الفعال ، وتوقع انسحاب القوات البريطانية العاجل بعد النصر كلها عوامل أدت إلى نشوء وضع خطر للغاية . فالحرية تقوم في كل مكان إلا في البلاد العربية . وعندما وقعت معاهدة بورتسموث كبديل لمعاهدة التحالف البريطانية العراقية التي أشرفت على الانتهاء ، أدت تواقيع صالح جبر وفاضل الجمالي وغيرهما مع توقيع آرنست بيفن إلى نشوب اضطرابات فورية في بغداد . ومن الغريب ان اسم هذا الميناء الانكليزي الذي يخيم عليه الضباب والذي

تهدمت أكثر مبانيه ايام الحرب يعني للعراقيين شيئاً خلاف ما يعنيه للانكليز . وقد سقطت الحكومة العراقية دون اي كفاح او صدام باستثناء حادث اطلاق النار من رجال البوليس على بعض الطلبة المتظاهرين عند مرورهم فوق أحد جسور نهر دجلة في وسط العاصمة . فمن الناحية التكتيكية ، كان منع المتظاهرين من اجتياز الجسور امراً مرغوباً فيه ، لكن اطلاق النار من الناحية السياسية كان حماقة ما بعدها حماقة . ومن الناحية الخلقية كان جريمة لا مبرر لها حتى ولو كانت الغاية تبرر الواسطة . فقد قتل نحو من ثلاثين شخصاً معظمهم من الطلبة واعتبروا فوراً كشهداء مقدسين . وقد لا يعجب هذا الاصطلاح بعض البريطانيين ولكنهم من ناحية التقاليد الاسلامية شهداء حقاً ، فالمسلمون يرون في الجهاد فرضاً لحماية الوحدة الاسلامية ، وكان توقيع هذه المعاهدة بالنسبة اليهم خيانة لهذه الوحدة . وعلى كل حال تعتبر كل وفاة نتيجة العنف والقوة ، ابان اداء الواجب ، أمراً جديراً بالاحترام . وإذا ما استهزأ بعض البريطانيين باطلاق اسم الشهداء على هؤلاء فامر مرده إلى قلة الذوق ، كأن نستهزىء بقتلى الحرب في بريطانيا وهكذا لم تمض اربع وعشرون ساعة حتى سقطت الحكومة واصبحت المعاهدة ورقة لا قيمة لها .

وقامت حكومة محايدة، وبعد بضعة أشهر قامت حكومة اخرى أقل حياداً، ولم تمض سنة على الاضطرابات حتى كان نوري السعيد على رأس الوزارة من جديد . لقد كان نوري مشتركاً في المعاهدة ، ولكن من وراء الستار والكواليس . ومنذ هذه اللحظة بدأ نوري يدرك خطر ترك الحكم الحقيقي الفعال في ايدي رجال من الصف الثاني ، حتى ولو كان على رأسهم عبد الاله . وبدأ هذا أيضاً ، وهو مبدّل الوزارات ، يشعر بخطورة الوضع الذي أصبح فوق طاقته ، كما أخذ يحس بضرورة اللجوء إلى نوري السعيد اكثر فاكثر . وبدا ان وفاة الطلاب الشهداء ، لم تؤت ثمارها وأخذ نوري في تشديد قبضته والاستفادة من تجارب الاضطهاد والارهاب التي مرت به سنوات الحرب .

وبدأت الاعتقالات من جديد عام ١٩٤٩ . وأخذ المعروفون بمعارضة

الحكومة يجدون انفسهم ثانية ودون أمر بالاعتقال رهن السجون . وكمثل على هذه الاعتقالات شخصية جامعية بارزة ، كان في معسكرات الاعتقال طيلة سني الحرب ، وسرعان ما وجد نفسه سجيناً في ساعات صبيحة ذات يوم . وقد قضى ليلته الاولى في السراي ، وهي بناية الحكومة المركزية ، او (هوايتهول بغداد) . انها مجموعة من الابنية مبنية على طراز قديم تحيط بسلسلة من الساحات، وفي مجموعة من الغرف التابعة للشرطة اعتقل الرجال المقبوض عليهم . وكانت مساحة الغرفة التي اعتقل فيها الجامعي المذكور لا تتجاوز ثمانية عشر ياردة مربعة تضم خمسين معتقلاً . وفي البهو الخارجي اعتقل زوجان ومعهما طفل صغير ، وكان الطقس بارداً للغاية ، وأخذ الطفل في العويل الشديد ، مما ضاعف على السجناء متاعبهم وعندما احتج هؤلاء في الصباح ، أجابهم أحد كبار رجال الشرطة انه لم يكن في الغرف متسع لايواء السجناء الثلاثة . لقد وقع هذا الحادث ليلة عيد الميلاد .

وفي اليوم الثاني نقل السجين إلى معسكر الوشاش ، الواقع في إحدى ضواحي بغداد حيث حشد السجناء في الغرف الضيقة حشداً وكأنهم السردين ، وقد زعم بعض المسجونين ، انهم قد مضت عليهم سنوات عدة وهم في السجن دون محاكمة ودون أية تهمة وانما أخذوا كرهائن لتضمن الحكومة سلوك اخوانهم او ابنائهم . وما لبث صاحبنا ان نقل إلى سجن دائرة التحقيقات الجنائية في وسط بغداد وهو بناء قديم يقوم على ضفة نهر دجلة ويحيط بباحة واسعة . وعندما كان السجناء في هذا السجن يسألون في الصباح عن الصراخ الذي سمعوه في الليل كانوا يشربون وينقلون فوراً إلى سجن آخر ، وبعد اثنين وعشرين يوماً من الاعتقال تسلم صاحبنا أمر اعتقاله وقدم أخيراً مع نفر من المسجونين إلى المحكمة حيث أصدر القاضي أمراً باطلاق سراحهم فوراً لعدم تقديم الشرطة او النيابة أي دليل على قيامهم باية جريمة . وهذا النفر ، وهم من ذوي المراكز العالية ، كانت معاملتهم حسنة . ثم طبق القانون بحقهم أما الآخرون فحدث عن معاملتهم ولا حرج .

وفي نفس الوقت اعدم أربعة رجال . لقد كانوا شيوعيين ، وشيوعيين حقاً ، وكانت الغاية من شنقهم تخويف الناس ومنعهم من الانضمام إلى الحزب الشيوعي . وكان أحد هؤلاء رغم انه شيوعي في السابعة عشرة من عمره . ولما كانت الغاية من اعدامهم تخويف الناس ، فقد شنق الأربعة كل على انفراد في أماكن متفرقة من العاصمة ، وبصورة عامة . وتمت عملية الشنق في الصباح الباكر على مشهد من بعض الجماهير ، أما عامة الناس فقد رأوا الجثث معلقة عندما كانوا في طريقهم إلى أعمالهم وقد ارتدى المعدمون ثياب السجن ووضعت على كل واحدة منهم لوحة تذكر السبب في اعدامه . ولم يكن القصد من هذا الانذار ارهاب الرجال العاديين فحسب وانما تعداه إلى الآخرين ، فقد شنق أحد الأربعة أمام مدرسة ثانوية حكومية وشنق آخر أمام مدرسة ابتدائية وثانوية تعود إلى رهبنة اخوات القربان ويؤمها طلبة من كافة الديانات والطوائف من أبناء الطبقة الوسطى وهناك أمام المشنقة جلس والد الشاب المشنوق ينتظر السماح له بأخذ الجثمان ، لدفنه . وقد اشمأز كل رجل في بغداد من هذه المناظر المزعجة إلا الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية وهو رجل ذكي ولامع ، وقد صرح بان هذا العمل درس طيب للاطفال . ولكن الكثيرين من العراقيين سمعوا بعض الأجانب من أنصار العهد يتحدثون عن هذا العمل البربري قائلين (ان نوري يعرف كيف يعمل) .

وبهذه الطريقة ضمن نوري السعيد العراق اميناً لعهد ، لا برلمان صحيح فيه ، ولا انتخابات حرة ، ولا وزارة مسؤولة ، ولا ملكية دستورية . وفي عام ١٩٥٨ كان في السجن عدد كبير من الأساتذة والمحامين والضباط ، كما كان عدد آخر منهم إما في المنفى او محالين على التقاعد ، لكن شك نوري السعيد الكبير ، كان ينصب دائماً على الطلاب ، ولم يكن السبب في ذلك ان الشبان كانوا أكثر ثورة على نفاق العهد وكذبه من الكبار ، وإنما لانهم كانوا أقل صبراً ، وكانت عقائدهم تفسح مجالاً لاعمال رجال الأمن العام ووكلائه . وفي عام ١٩٥٢ وقعت حوادث قتل عنيفة في الشوارع عندما قامت المظاهرات مطالبة بانتخابات حرة على درجة واحدة ، كما اعتقل نحو من خمسماية او ستمائة شخص معظمهم من

الرجال البارزين ظلوا رهن التوقيف نحواً من خمسين يوماً . وكان معظم المعتقلين من المعتدلين وقد وضعوا في السجن في أحوال أحسن من التي يعيش فيها الفقراء والطلاب من المعتقلين ، فقد سمح لهم بالاختلاط مع بعضهم البعض وتلقي الاطعمة والملابس من ذويهم وهذا أمر يسمح به في الكثير من سجون العالم لتحسين حالة المسجونين الغذائية . وإذا ما تركنا قلق ذويهم خارج السجن جانباً فان أوضاع هؤلاء السجناء كانت مرضية إلى حد ما . ولكن أي بريطاني، لا يرضى بان يوضع مثلهم في السجن ، لمجرد الافصاح عن رأيه في الأحوال السياسية ، كما ان معظمهم ، من معارضي نوري السعيد ، لم يكونوا ليخشوا بطش رجال الشرطة وقسوتهم بقدر ما كانوا يخافون أن يجدوا أنفسهم فجأة معلقين على حبال المشانق بامر من نوري السعيد وطيلة مدة الاعتقال لم يتلق ذووهم اية إشارة تطمئنهم على مصيرهم .

وكان الطلبة أكثر الضحايا تعرضاً للمحن والآلام ، ففي عام ١٩٥٦ وابان معركة السويس ، قتل رجال الشرطة عدداً من طلبة المدارس في صفوفهم في بغداد والنجف والموصل . ومع ان عدداً قد قتل وان الفزع من هذه الجريمة قد أثار الرأي العام أكثر من اي شيء آخر . فرجال الشرطة لم ينتظروا قيام الطلاب بالاضطرابات ليسرعوا إلى العمل وانما كان لهم عيونهم في كل مقهى حيث يلعب الرواد النرد او الدومينا كما كان لهم عيونهم في كل كلية ومدرسة . وكثيراً ما يكون هؤلاء العيون من المحرضين . وعندما قررت كلية الآداب والعلوم طرد عدد من الطلاب لاتهامهم بالشيوعية ، اصرت قيادة الشرطة على إعادة بعض المفصولين من عيونها طبعاً ، بحجة ان الشرطي لا يشتغل بالسياسة مطلقاً . وكان عدد هؤلاء العيون والجواسيس متضخماً ، فقد صرح مدير الامن العام رداً على سؤال عما إذا كان رجاله من الموثوقين ، بانه لا يصدق التقارير إلا إذا اتفقت أربعة منها على موضوع ما . وكانت ميزانية الشرطة التي بلغت سبعة ملايين ونصف المليون من الدنانير تفوق ميزانية المعارف التي لم تتعدَّ حدود الملايين الستة . وقد قيل لي ان العدد الحقيقي للعيون والجواسيس ظهر بعد قيام

الثورة ، بانه لم يكن كبيراً كما كان متوقعاً ولكن جلهم كانوا من المختارين من جميع المهن ومن الطلبة ورجال الجيش وحتى من الوزراء انفسهم . كانوا اعضاء في الجماعات التي ينتمون اليها اتباعهم العهد ليكونوا عيوناً على اصدقائهم . وكان هناك ايضاً عدد كبير من رجال الشرطة الذين يرتدون الملابس المدنية ويختلطون بالناس في الشوارع والاسواق والحوانيت ، وقد بلغ عددهم جميعاً نحواً من ٢٤ الف شخص .

وكان هذا الإرهاب عملاً أقرب إلى الوحشية منه إلى الاثمار والانتاج . ومن الحق أن يقال أثمر بعض الثمار ، وكان يزداد في كل يوم تأثيراً وذلك لانه كان كالمدحلة يدوس ما أمامه من نشوز في حياة المجتمع العراقي الذي أراده نوري السعيد . لكن شرط الارهاب ليكون ارهاباً صادقاً ، عدم التمييز والتدقيق . فعندما تقوم مظاهرة ، كان رجال الشرطة يبحثون عن الاسماء التي قدمها الجواسيس دون تمحيص او تدقيق . وعندما تقع مظاهرة ثانية يسارع رجال الشرطة إلى اعتقال من سبق لهم الاشتراك في المظاهرة الأولى التي قد يعود تاريخها إلى سنة او سنتين خلتا . وقد كانت هناك قائمة من المشبوهين التي قد لا تنطبق على الحقيقة فهناك رجل اعتقل ولده في احدى المظاهرات ودون اسمه في قائمة المشبوهين مما حمل والده على ارساله لاكمال دراسته في لندن ، وبالرغم من وجوده بعيداً عن العراق ، فقد كان رجال الشرطة يأتون إلى منزله لاعتقاله بعد كل مظاهرة جديدة . وكانت احدى الارامل ، التي توفي ولدها ، تتلقى مثل هذه الزيارات من رجال الشرطة بعد كل مظاهرة بحثاً عن ولدها المشبوه ، ولم يكن من السهل شطب اسم شخص من قائمة المشبوهين الا اذا قام هذا الشخص بعمل يعتبر ولاءً ظاهراً لعهد كريه مقيت . وإذا ما رغب طالب في تطليق السياسة والبعد عنها ، لم يكن ذلك بالامر الهين عليه . فدخول الكليات لم يكن متيسراً إلاّ إذا ابرز الطالب شهادة بحسن السلوك صادرة عن دوائر الشرطة . وإذا ما رغب شخص في الحصول على وظيفة تحتم عليه إبراز مثل هذه الشهادة التي لا تعني في حد ذاتها الاّ حسن السلوك من الناحية

السياسية وعلى الرغم من ان الحصول على هذه الشهادة كان ميسوراً للغالبية ، إلا ان مصير كل شخص ، دراسته وعمله كانا رهناً بارادة الشرطة . وقد امتد اهتمام الشرطة الى المدارس الداخلية حيث كثيراً ما تعرضت لزياراتهم في الساعات غير المناسبة . والاباء الذين يقيمون في الالوية خارج العاصمة ،والذين اودعوا فلذات اكبادهم تحت رعاية الحكومة في مدارسها الداخلية ، لم يكونوا ليشعروا بالطمأنينة على سلامة اولادهم ، لان هذه السلامة رهن بحسن حظهم في الخلاص من وشاية احد الجواسيس . وجميع الاباء كانوا يذكرون القتلى من الطلبة ، اذ لم يكن هناك حد ادنى لسن الطالب ليعتبر في نظر الشرطة انساناً خطراً . وقد اوجس أحد الموظفين خيفة من ان يقع في قبضة الشرطة لمجرد ان ولديه اللذين يبلغان من العمر التاسعة والثانية عشرة قد قلعا عيني الملك في احدى الصور الموجودة على دفاترهم المدرسية .

وفي يوم ما اعتقل بعض الطلبة ولم يسمح لابائهم بزيارتهم إلاّ بعد مضي اسبوعين . وكثيراً ما كانت تلغى هذه الزيارات لان الطلبة المعتقلين كانوا يتعرضون للضرب المبرح ، والتعليق من ايديهم وحتى للعذاب الكهربائي ، كما يعمل الفرنسيون في الجزائر . وذهب مدير أحد المدارس في يوم ما إلى السجن ليرى ولده الذي اعتقل بعد أحد الاضطرابات . وقيل ان هذا الشخص قد تمكن عن طريق تسلق احدى الجدران من رؤية ما يدور في السجن كصب الماء الغالي على الطلبة الموقوفين ، وكم كان سروره عظيماً عندما رأى ولده طليقاً بعد يوم أو يومين . وكل شيء يعتمد على السجن الذي يودع فيه الطالب ، وهذا رهن بحظه قبل كل شيء . اذ لم يكن هناك قياس في توزيع المعتقلين على السجون . ففي سجن أبو غريب المشهور ، كان السجناء يوضعون في غرف ضيقة كالقبور لا نوافذ فيها الا ثقوب صغيرة في أعلى الجدران ، ولا يسمح للمسجون بمغادرة زنزانته الا الى دورة المياه .

ولا ريب ان عام ١٩٥٨ قد شهد رجال العراق وقد اصبحوا في حالة خوف وذعر كالخراف . وكان على الكثيرين منهم ان يقدموا تعهدات بعدم الاشتغال

بالسياسة ، وهي تنطبق حتى على مجرد النقد ، وكان حظ هؤلاء كبيراً إذ ان غالبية الرجال كانوا يخشون الاعتقال ، ويخافون ان تدون اسماؤهم في القوائم ، وان تدمر حياتهم كما يفزعون على مستقبل ذويهم ومناصبهم واعمالهم . وكثيراً ما كان الانسان يتلقى كتاباً غفلاً من التوقيع عن طريق البريد يحذره فيه كاتبه من الاعتقال اذا لم يحسن سلوكه . كما ان بعض الذين ابرقوا مهنئين جمال عبد الناصر على الانتصار في السويس تلقوا انذارات بالقتل ، وكثير من الرجال من ذوي المناصب والاعمال البارزة في الحياة العامة خارج نطاق السياسة ، أجبروا ، إذا رغبوا في الاحتفاظ بمناصبهم، على الاشتراك في بعض أعمال الحكومة كحضور بعض لجانها التي تشمل اعمالها النشاط السياسي، ووجدوا انفسهم فجأة يعملون في مجال كانوا يمقتونه ويزدرونه . وعديدون من شعروا بالقنوط واليأس من كل اصلاح ، فاندمجوا في اعمالهم الشخصية خارج نطاق الحكومة ليحتفظوا بآرائهم وعقائدهم، وبعضهم دفعه القنوط إلى الاندماج في حياة الفساد المستشرية.
وحل عام ١٩٥٨ وشهد العراق تغييراً كبيراً ، فالكراهية للعهد قد اشتدت ، لكن اولئك الذين كانوا في الماضي ينتقدون ويحملون على العهد ، سكتوا الآن على مضض وامتنعوا عن الحديث في هذه المواضيع حتى إلى اصدقائهم ، اذ انعدمت الثقة، واستشرى الخوف ، وامتد اليأس والقنوط . فالارهاب والفساد قد اوتيا أكلهما ، وقاما بواجبهما ، ولم تبق هناك رغبة فورية بالثورة ، كما كان الامر قبل سنوات. واي اضطراب سرعان ما يبلغ عنه وتتخذ اعنف الاجراءات لقمعه ، واصبح الجيش والشرطة وكلاهما – كما ظن – موال للعهد مخلص اليه ، القوة الوحيدة في البلاد . وأخذ الناس يهيئون عقولهم ويعدون انفسهم لتقبل استمرار الاحوال الراهنة على ما هي عليه ، وخيل للجميع ان اي امل في ثورة ناجحة قد زال وانتهى .

الفصل الثالث

في الشؤون الخارجية

قد يتساءل انسان غريب عن العراق ، كيف تمكنت هذه الملكية المكروهة والمحتقرة ، وذلك العهد الذي استشرى فيه الفساد ، والذي قام على الارهاب والطغيان محروماً من كل سند او تأييد شعبي من التعمير والبقاء هذه المدة الطويلة . والرد على هذا السؤال بسيط ، فالارهاب كثيراً ما ينجح ويدوم ، والفساد كلما انتشر قد يكون ناجحاً ولمدة أطول ، لكن العراقي يرد على هذا السؤال قائلاً ان السبب الرئيسي في بقاء ذلك العهد يعود الى تأييد بريطانيا ومساعدتها .

فبأية صورة كانت الحقائق تبدو للعراقي العادي ؟ كانت هناك في الدرجة الاولى معاهدة التحالف التي جعلت من دولة الانتداب السابقة ، دولة مفضلة في مختلف النواحي . فلبريطانيا حقوق خاصة ، ولها قواتها المرابطة في معسكر القوة الجوية الملكية في الحبانية ، والسفارة البريطانية في بغداد بعيدة عن دور السفارات الاجنبية الاخرى . فعلى الضفة الغربية من نهر دجلة وفي حي الكرخ الفقير يقوم سور عال يحيط ببناية ضخمة ، تخيم عليها سدل الاسرار ، كانت فيما مضى مقراً للمندوب السامي . وعلى مدخل الدار وفي ساحة صغيرة أقيم تمثال للجنرال مود فاتح العراق عام ١٩١٧ ، ليذكر العراقيين دوماً بحقيقة وضع

بريطانيا بالعراق . والسفير المعتمد لدى دولة مستقلة بالاسم ، يتوقع دوماً ان يستشار في المسائل الهامة ، ويقدم مشورته الى الملك ، وكأنه وزير من وزرائه . ويلعب السفير وأركان سفارته دوراً هاماً في المحافظة على ممتلكات الاسرة المالكة سواء داخل العراق أو خارجه . وكان نوري السعيد وأعضاء وزارته من زوار دار السفير الدائمين . هذا ما عرفه كل عراقي عادي ، وكثيراً ما ظن العديدون ان النفوذ الدبلوماسي للسفارة البريطانية كان يمتـد حتى الى دقائق الامور وتفاصيلها ، وهي دقائق لا يمكن التثبت منها إلا عن طريق الاطلاع على وثائق وزارة الخارجية السرية . وكان بعض العراقيين يؤمون دار السفارة بحثاً عن العون والحماية ، اما الغالبية الغالبة فكانت تحتقر حتى مجرد التفكير في ذلك .

وكثيراً ما عزا العراقيون اعمال الطغيان والارهاب التي تقوم بها الحكومة إلى السفير البريطاني . وعلى سبيل المثـال ، اذكر ان معظم العراقيين اعتقدوا ان اعمال الشنق التي تحدثت عنهـا في الفصل السابق قد تمت بطلب من السفير البريطاني . وكان المعتقد ايضاً ان جواسيس بريطانيا هم الذين اودوا بحياة الملك غازي . وان جميع الاعمـال البربرية التي تقترفها الحكومة هي ثمرة تدخل بريطانيا ونصيحتها . ولعل التفسير الحقيقي لهذه المعتقدات هو انعدام معارضة الشعب البريطاني لما كان يقوم به حـكام العراق . وقد يقول بعض الانـكليز ، ان هذا الاعتقاد الخاطىء من جانب العراقيين نجم عن حماقتهم وسخـافتهم ، لكن انتشار هذه المعتقدات وذيوعها وشمولها عدداً من ذوي المواهب والعقول النيرة ، يجعلها أكثر احتمالاً للواقع . ولعل نوري السعيد كان يقول لشعبه ، ان الانكليز هم الذين دفعوه إلى عمل هذا او اقتراف ذاك ، وانه كان يحمل بريطانيا مسؤولية اعماله . وهذا وحده يفسر لنا لماذا صدق العراقيون كل مـا قيل عن تدخل بريطانيا .

وادت اعمال البريطانيين انفسهم الى سيادة الرأي القائل بتمييز بريطانيـا في العراق على غيرها من الدول . فالشركات التجارية البريطانية التي كانت قائمة منذ تغلغلت بريطانيا تجارياً في الشرق قبيل عام ١٩١٤ ، عززت موظفيهـا

ووسعت اعمالها ، في سنوات الانتداب وبعده إلى الحد الذي أثار الملاحظـة . ومع ان هذا التوسع أمر طبيعي بالنسبة إلى وجود ادارة حكومية صديقة على رأس العراق ، الا انه ادى حتماً وبصورة آلية الى زيادة الاعتقاد القائل بان لبريطانيا وحدهـا الحرية في استغلال موارد العراق . ووجود شركة بترول العراق ، بمؤسساتها الضخمة وعدد عمالها القليل من العراقيين ، قد جعل الناس يرون فيها قوة استعمارية قائمة بذاتها . ومع ان الشركة ليست بريطـانية كلية ، الا ان الانـكليـز هم الذين يسيطرون عليها ، ومعظم موظفيهـا الاجانب من الانكليز . وعلى الرغم من ان هذه الشركة كانت المؤسسة البريطانية الوحيدة التي استطاعت دومـاً تكييف نفسها وبسرعة وفقاً للظروف المتغيرة ، الا ان العراقيين لم يأبهوا بذلك وظلوا ينظرون اليها دائماً كرمز للثروة والاستغلال والقـوة .

وكان البريطانيون في كل مكان. ففي دوائر السكك الحديدية عدد من الخبراء الانكليز ، كثيراً ما وصفه العراقيون بأنه اكثر من المطلوب. واعتقد العراقيون ان الخبراء الانكليز يحتلون كثيراً من المناصب التي كان في وسع العراقيين القيام باعبائها ؛ بالاضافة الى ان هؤلاء الخبراء ليسوا من الأكفاء والمقتـدرين . وهذا العدد الضخم من الخبراء ، وجلهم من غير ذوي الكفاءة ، جعل العراقيين ينظرون اليه كرمز للاحتكار البريطاني . ولعل معظم انتقاد العراقيين انصب على ناحية واحدة ، وهي ان الخبراء البريطان اقل كفاءة من اشباههم من الامريكان او من الدول الغربية الاخرى وان هذا العدد الضخم من الخبراء الاجانب عامة، مع قلة ما ينجزه من عمل ، ليس لوجوده في العراق ما يبرره. وكانت هناك طبقة من الخبراء لا مندوحة عن وجودها ، فأساتذة اللغة الانكليزية في الكليات يجب ان يكونوا من الانكليز ، لا سيما وان الانكليزية هي اللغة الاجنبية الوحيدة التي تدرس في معاهد العراق . وإذا ما جمعنا هؤلاء جميعاً فقد كان في العراق عـدد ضخم من البريطان ، في التجارة ، في البترول ، خبراء وفنيون للسكك الحديدية والطيران والخدمات العامة والاشغال الهندسية ،اساتذة في المعاهد والجامعات

مستشارون في الوزارات ، وممثلون دبلوماسيون . ومع ان البريطانيين كانوا في كل مكان ، الا انهم لم يختلطوا الا قليلاً بالعراقيين ولا سيما باولئك الذين يمثلون غالبية الشعب . والدبلوماسيون الذين يفترض فيهم ان يختلطوا بالعراقيين بحكم مهنتهم ، لم يكونوا ليختلطوا إلا في حدود المهنة الضيقة . فقد كانوا يقضون ساعات راحتهم ، بعيداً عن شعب العراق ، وهكذا ظلوا على السطح ، كالزيت فوق الماء ، بعيدين عن الحياة التي تحيط بهم ، محتفظين بالوضع الذي يجب ان يعيش فيه المستعمرون .

ولعل عدم الاختلاط بين العراقيين والبريطانيين كان من الاسباب الرئيسية التي جعلت نظرة الأوائل الى الآخرين مشوبة بالكراهية والريبة . فهم يجهلون طريقة البريطانيين خاصة والغربيين عامة في الحياة . وحفلات الكوكتيل وسيلة سخيفة من وسائل الاتصال المباشر ولعل العراقيين كانوا يرون في هذه الحفلات التي تقتصر على تقديم المشروبات الكحولية ، مظهراً من مظاهر الانحلال الخلقي . فللشرق آراؤه الخاصة في الغرب والعكس بالعكس . وكثيراً ما كره العراقيون في البريطانيين صفات هم منها براء ، بينما في الحقيقة لهم صفات اخرى تجعلهم أشد تعرضاً للكراهية ، وهي صفات بارزة ومتعمدة. فدوافع البريطانيين كانت مكروهة على الغالب ولكن عندما يتحدث العراقيون الى شخص بريطاني عادي ، كانوا دائماً يعزون اليه دوافع وصفات لا توجد فيه ، فيخلطون بين الكياسة والصداقة ، وكثيراً ما أدى سلوك بعض البريطانيين الى اعتقاد العراقيين بان البريطان عامة ، حمقى ، وبلداء وسكيرين ، ومنحلين وهذا مرده الى جهلهم من ناحية وسلوك أولئك من الناحية الأخرى .

ومن الواجب هنا ان نؤكد نقطة واحدة وهي ان العراقيين كانوا لا يرون في البريطانيين استعماريين فحسب ، بل دعائم العهد القائم في العراق أيضاً وهم يعتقدون أن هؤلاء البريطانيين يملكون القوة العسكرية الكافية التي في وسعهم استخدامها اذا شاءوا ، أما عن طريق التنفيذ أو التهديد لدعم حلفائهم السياسيين حالة وقوع الثورة . فهم الذين شيدوا العهد القائم واستوردوا

الهاشميين ، وخلقوا وزراءهم ثم دعموهم جميعاً في كافة العهود والازمنة . وبدا البريطانيون وكأنهم شركاء في الفساد المستشري. لا عن طريق شركاتهم ورجال أعمالهم بل عن طريق اسهامهم في تقديم المشورة الى رجال الحكم والوزراء الفاسدين ، ومهما يكن البريطانيون شرفاء في أعمالهم وتجارتهم الا أن نجاحهم في أعمالهم يعود الى مساعدة العهد الفاسد لهم والشعور السائد ان كل دينار يربحه العراق يقابله جنيهان استرلينيان يذهبان الى لندن وكل عمل من أعمال الطغيان ، يقف وراءه تأييد بريطاني ، وسواء أكان هذا حقاً وصدقاً بالنسبة الى كل حالة فردية او لم يكن ، فالعراقي واثق من رأيه . وجميع المصالح البريطانية تعمل في ظل حكم أرهابي فاسد وهي تبعاً لذلك في حاجة الى استمرار هذا الحكم ، حتى تضمن لنفسها البقاء . ولما كان العهد الذي يدعمه الانكليز يود استمرار الفقر الذي يحيط بالعراقي في كل مكان فان هذا الفقر مرده الى الانكليز ايضاً .

وكان من الحماقة من أي بريطاني التعبير عن اي تأييد للطغيان ، مهما كانت الفكرة التي يدافع عنها صائبة وصادقة. فمن المسلم به ان التعليم في العراق اتسع بصورة سريعة للغاية، وعلى درجة لا تسمح بالمحافظة على المستوى الممتاز في التعليم . ولو كان هناك من السنوات عدد يمكن توفيره لكان من الافضل أن يسار بالتعليم سيراً بطيئاً، وان يتسع ملاكه وعدد معاهده خطوة فخطوة لكن هل من الحكمة ان يقول البريطاني ذلك ؟ لا والف لا. إذ ان التفسير الوحيد لقوله آنذاك هو انه يرغب في تضييق الثقافة القومية ، فالتعليم هو الذي حمل الشعب على المطالبة بالاستقلال وحكم نفسه بنفسه . والشعب البريطاني تمسكاً منه بالتفكير الذي تتطلبه احتياجات بريطانيا عاجز عن ادراك حقيقة ما يفكر به الشعب العراقي وهذا ما يجعل الهوة شاسعة بين الفريقين .

وبدأ مركز بريطانيا الممتاز في العراق في عام ١٩٥٨ من نظرة سطحية اكثر ثباتاً من اي يوم مضى . فمنذ سنوات كان الامريكيون يحاولون اخراج البريطان من العراق ، آملين ان يكونوا اكثر قبولاً لدى الرأي العام

العراقي . وهذا ما رآه العراقيون انفسهم، ولكنهم رأوا في الامريكان في الحقيقة صورة ثانية من ظاهرة طبيعية واحدة ، لا خير فيهم الا بوضعهم موضع المنافس للبريطان واستغلال هذه المنافسة ، دون أن يكونوا بديلا صحيحاً عنهم . وسواء أكانوا مكروهين او مستغلين ، فان البريطان والامريكان اعتبروا في بغداد اثرياء ، أقوياء وحلفاء لحكام العراق ، وعلى من يود شق طريقه نحو النجاح تجنب اغضابهم . وأصبح من الواضح انهم يودون مصادقتهم بوصفهم انصاراً للعهد .

والرأي السائد ان عبد الاله ونوري السعيد هما رجلا بريطانيا الاولان . واعتقد الجميع ان الأمريكيين يبنون من فاضل الجمالي ليخلقوا منه نوري المستقبل . وقيل انهم يعتقدون ان بوسع هذا السياسي الثرثار المخلص (ارسلت احدى خطبه من امريكا بطريق البرق الى بغداد فكلفت الخزينة ٢٥٠٠ دينار) ، ان يصبح في مستوى نوري السعيد فضحك العراقيون كثيراً من هذا الاعتقاد . ويعترف معظم العراقيين ان الجمالي رجل شجاع ولكنه مفتقر إلى المنطق السياسي والاحساس التاريخي . وكثيراً ما صرح بعض الدبلوماسيين الامريكان أمام زملائهم المحايدين ان الصحيفة التي يصدرها الجمالي والتي يؤيد فيها مبدأ ايزنهاور ، كانت محقة وواقعية وحكيمة) أما الشعب العراقي فلم يؤمن لحظة واحدة بما يقوله الجمالي ، ولم يحمله قط على محمل الجد ، واعتقد ان هذه الجريدة تغذيها اموال الاستخبارات الامريكية . ووجد هناك بين الامريكيين والبريطانيين في بغداد من يخدع نفسه فيردد الشائعة القائلة بان للجمالي انصاراً واتباعاً بين الطلاب وقيل ان أحد الناس قد اطلق هذه الشائعة ليعرف المدى الذي يصل اليه الامريكان في تصديق الشائعات .

وكان ميثاق بغداد ، النصر الوحيد لبريطانيا في الشرق الاوسط ما بعد الحرب وكان ينظر اليه منذ توقيع عام ١٩٥٥ على انه الرمز الظاهر ، والاداة المنفذة لسياسة الحكومة البريطانية، وقد أضيف اليه، بعد مشكلة قناة السويس مبدأ ايزنهاور ، الذي اعتبر امتداداً لميثاق بغداد عملا ، ان لم يكن شكلا .

ولفهم وجهة النظر العراقية علينا أن نذكر دائماً انه بالنسبة للدبلوماسيين البريطانيين الذين اشتركوا في وضع الميثاق وللامريكيين الذين ايدوه ، كان الميثاق عملا رائعاً املته الحكمة لربط الدول الصغيرة المحاذية لحدود روسيا الجنوبية في تحالف عسكري يشبه حلف الاطلنطي . اما العراقيون فكانوا يرون الوجه الثاني للقطعة النقدية . فاجبار العراق ، على الخروج من اتحاده الطبيعي مع الشعوب العربية الاخرى لخدمة اهداف عسكرية لدول الغرب ، هو مثال بارز للروح الاستعمارية . ورأى العراقيون في المنافع الاقتصادية للميثاق ، كتحسين الاحوال الصحية ومكافحة الجراد والاوبئة واستخدام الطاقة الذرية ، محاولات لجعل الدواء المر حلو المذاق مستساغ الطعم . بل رأوا فيها غطاء للدوافع الحقيقية . فالميثاق لم يوضع حقيقة لمكافحة الجراد . ومن حق العراقي أن يتساءل ، أليست منظمات الامم المتحدة المختلفة كافية للقيام بمثل هذه الخدمات ؟ ان لها في دول الميثاق ، والدول المجاورة الاخرى ممثلين في استطاعتهم القيام ، وقد يكون بصورة احسن ، بالاعمال الاجتماعية والعلمية والثقافية التي احيلت إلى ميثاق بغداد . فالميثاق يستهدف في رأي العراقيين تحالف بلادهم مع الايرانيين والاتراك والباكستانيين وابعادها عن حلفائها الطبيعيين في البلاد العربية الاخرى الذين اختاروا سياسة الحياد ولذا يتعذر اشتراكهم في الميثاق .

فالهدف الحقيقي للميثاق هو الوقوف في وجه روسيا . ونوري السعيد العدو الكبير للشيوعية ، لم يسمح طيلة السنوات العديدة باقامة تمثيل سياسي لروسيا في العراق أما العراقيون فلم يكونوا ليخافوا من روسيا . وهم لا يصدقون القصص التي سمعوها عن فظائع الروس في اوروبا . وما وقع في المجر ، ابان معركة السويس ، لم يترك اثراً في عقول العرب . وهذا ليس بالمستغرب . فالرجال يحكمون على ما يرونه بانفسهم ويلمسون باحاسيسهم انهم يرون البريطان والامريكان يحالفون حكامهم الذين يمارسون حكماً لم يشهد التاريخ مثيلا له في الطغيان والفساد . فكيف يمكن لهم ان لا يعتبروا ما يسمعون عن الحرية

والديموقراطية في الغرب سوى نفاق ومجموعة أكاذيب ؟ وكيف نتوقع منهم أن يصدقوا ما يقوله المنافقون المضللون ؟ واني لاخشى انهم لم يكونوا يصدقون حرفاً واحداً مما نقوله عن روسيا ومن المؤكد انهم اعتبروا اقوالنا مبالغ فيها للغاية . واعتقدوا ان الخلاف القائم بين الغرب والشرق امر لا يعنيهم .

ومنذ نهاية الحرب ، أخذ البريطانيون وبصورة خاصة يعملون على اساس ان الشيوعية الروسية مصممة على استعباد العالم . وان من الواجب ايقافها عند حدها واذا اقتضت الضرورة فباستخدام القوة . وفي الحق ان هناك من يقول ان من الواجب ايقاف الامتداد الشيوعي باي ثمن ، او كما قال احد الاساقفة ، حتى ولو محيت الجزر البريطانية، مخافة أن تدمر أرواح افراد الشعب البريطاني باعتناق الشيوعية . لكن هذا الذعر لا يمتد خارج نطاق حدود الدول الغربية . فالموضوع يشبه تطلع شخصين إلى منظر واحد ، كلاهما يراه من ناحيته وزاويته صورة مختلفة عما يراه الآخر . فالعرب كغيرهم من الاسيويين ، لا يؤمنون باي تهديد روسي وإذا ما ناقشتهم ووصلت الى النتيجة بان روسيا قد تطوقهم وتسيطر عليهم ، قبلوا منك هذه الحقيقة دون أي شعور بالخوف ، كما يشعر الغربيون . فجل العراقيين كانوا واثقين بان ليس هناك اسوأ مما هم فيه ، وان اي تغيير يجب ان يكون تبدلاً نحو الأحسن . وهذه الفكرة سيطرت على الرأي العام العراقي أمداً طويلا وفي أحد الكتب الحديثة قرأت قولاً لاحد الاسيويين يوجهه الى شخص بريطاني عن الشيوعية « انها كابوسكم ، وليست كابوسنا » . ومع ان هذا القول ذكر في اندونيسيا الا انه يعبر عن وجهة النظر العربية تمام التعبير . ويبدو ان بريطانيا استخدمت العراق لطرد الكابوس الذي يؤرق مضجعها عن طريق اقامة حلف عسكري يكرهه العراقيون ، وتأييد عهد قائم على الطغيان والفساد . وكل ما حاولت بريطانيا اجبار البريطانيين على قبول ذلك كلما اشتد مقت العراقيين لها .

فلماذا كانت فكرة اقامة حلف عسكري غير عربي مكروهة لدى العرب؟ ان هذا السؤال يتناول الجواب عليه فهم عقلية العرب . ولعل ما ورد

في الدستور العراقي المؤقت الذي وضع بعد الثورة ، ما يوضح هذه النقطة خير ايضاح . فقد جاء في الدستور ان الجمهورية العراقية دولة مستقلة ، وهي جزء من الشعب العراقي . فالبنسبة للعربي لا تعتبر الدولة ، الا شيئاً ذا ولاء محلي لا يتجاوز ما يشعر به السويسري نحو المقاطعة (الكانتون) التي يعيش فيها فالعراقي صدقاً ، لا يشعر باعتزاز بانه عراقي أكثر مما يشعر به الاسكوتلاندي من انه اسكوتلاندي . وفي الحق فالفروق بين العرب أقل من الفروق بين الاسكوتلانديين والانكليز . وسيبقى العراق دولة مستقلة ذات سيادة طالما ان الظروف السياسية تتطلب ذلك ، ولكن النهاية واضحة ان عاجلاً وان آجلاً ، فستقوم الولايات المتحدة العربية حتماً . وقد تكون هذه الولايات العربية المتحدة امتداداً للجمهورية العربية المتحدة او لا تكون ، ولكنها مهما تكن ، فستكون خلقاً عربياً خالصاً ، لا تحت اشراف اية دولة أجنبية ، وستكون ما اراده العرب منذ عهد طويل ويريدونه الآن ، وهو ما يعبر عنه الامريكان والبريطان ، دون فهم او ادراك ، بالقومية العربية .

وكان بعض الساسة الأجانب في الماضي يعتبرون القومية العربية أمراً خيالياً . فالعرب من الناحية العرقية العنصرية خليط . وقد يكون اسلاف المصريين مختلفين عن اسلاف العراقيين وعدد العرب الذين دخلوا البلاد التي احتلوها في عهد الخلفاء الفاتحين كان أقل من عدد سكان البلاد المحتلة ، وعلى الرغم من ان العراق وسوريا قد تلقتا فيما بعد هجرات كثيرة من الجزيرة الا ان سكان البلاد العربية الاصليين قد امتزجوا بالفاتحين وأصبحوا شعباً واحداً . وليس من حق الشعب البريطاني المؤلف من الولشيين والسكوتش والارلنديين وغيرهم أن ينتقد هذه القومية العربية على اساس اختلاطها ، فالعربي معنى لا يفترق عن البريطاني وقد يكون له معنى أكثر من الامريكي . فالعرب والبريطان تربط كلا منهم تقاليد واحدة ، اما الأمريكي فلا رابطة الا انتقال الولاء من دولة قديمة إلى الدولة الأمريكية . والحقيقة القائمة هي ان العرب يتكلمون لغة واحدة ويشعرون باحساس واحد . ولما كانت القومية احساساً ،

فليس هناك اي مطعن في القومية العربية او شك في قوتها ، لدى كل من عاش في العالم العربي واستمع إلى ما يقوله العرب . والاعتراض القائل بان في العراق مثلاً اقليات عنصرية ولغوية كالاكراد والتركمان ، واقليات عنصرية ولغوية وطائفية ، كالاشوريين والأرمن ، واقليات طائفية كاليزيديين والصابئة واليهود، ليس في الحقيقة اعتراض له ما يبرره ، ففي بريطانيا لم يؤثر وجود الاقليات العنصرية واللغوية والطائفية على وحدة الشعب البريطاني . فالحقيقة القائمة في العالم العربي الحديث هي الوحدة العربية ، وسينظم الاتحاد العربي بصورة رسمية هذه الوحدة القائمة . فما يقع في الجزائر مثلاً ، لا يعتبره العرب بالنسبة لهم سلسلة من الاحداث التي تقع في جزء بعيد من العالم لا علاقة لهم به ، بل احداث تقع لهم ، هم انفسهم .

وهذا شيء طبيعي . فالدول العربية لم يخلقها العرب انفسهم . وقليلون هم العرب الذين ارادوا قيام دولة اردنية باستثناء افراد العائلة الهاشمية الذين خلقوا هذا « التعبير الجغرافي » ارضاء لهم . وإذا كان لبنان ، يدعي الاستقلال الذاتي ووجود الكيان قبل انهيار الامبراطورية العثمانية، فان الحدود الحالية للجمهورية اللبنانية هي من وضع الفرنسيين . أما كيان سوريا والعراق ، فقد وضعه وقرره الانكليز والفرنسيون . ويمكن ان يقال ان مصر وحدها كان لها حدود تقليدية، ولكنها مع مضي التاريخ ومنذ أقدم العصور ، كثيراً ما وسعت هذه الحدود إلى سوريا ، والاثار الباقية خير دليل على ذلك . اما مشيخات الجزيرة العربية المستقلة فبقاؤها كذلك رهن بمشيئة المقيمين البريطان وشركات البترول العاملة في اراضيها . ومن اسم المملكة العربية السعودية يمكن فهم اصلها التاريخي القائم على السلالة السعودية ، واذا كان القوميون العرب يصغون إلى ما يقوله السعوديون فلانهم يعتقدون ان الأمير فيصل يحمل شعوراً قومياً ولان والد الملك الحالي سعود قد أقام دولة على حساب الهاشميين ودون مساعدة البريطانيين والشعور القومي قد يكون ضعيفاً بين البدو اذ انه ينمو ويترعرع في ظل الثقافة وارتفاع مستوى المعيشة وأخيراً فان دول افريقيا الشمالية مع كونها قد أقامت

كيانات مستقلة تقليدية في الماضي الا انها اعتبرت دائماً جزءاً من عالم عربي كبير وهو تعبير سياسي أصبح حقيقة تاريخية ولا يشعر العرب بالولاء للدول التي اقامتها لهم الدول الغربية الا بالقدر الذي نشعر به اذا ما قسمت بريطانيا لا الى ويلز واسكوتلانده وانكلترا فحسب بل إلى دويلات أكثر عدداً ، لها حدودها المصطنعة وحكوماتها البغيضة التي يشرف عليها النفوذ الاجنبي البعيد .

ان من أهم اهداف الجهاد وهو الحرب المقدسة التي تشبه عندنا الحرب الصليبية هو الحيلولة دون تقسيم المجتمع الاسلامي ومما لا ريب فيه ان ذلك الشعور التقليدي العميق حول قدسية المجتمع الاسلامي قد انقلب الآن نحو المجتمع العربي. وكانت التهمة الاولى التي وجهت إلى زعماء العهد البائد في العراق عند تقديمهم إلى المحاكمة بعد الثورة هي التآمر على سوريا وجاءت المواد الاولى في القانون الثوري الذي يشمل ما قبله ، تتضمن عقوبات لكل من يتآمر على العرب . فشأن هذه التهم كشأن التهم بالعمل ضد الانسانية التي وجهت الى المتهمين في محاكمات نورمبرغ ، لا يحتاج مقترفها لتقديمه الى المحاكمة ومعاقبته الى المعرفة السابقة للقانون ، وكانت من التهم الموجهة إلى العهد البائد ، توجيه الحملات والشتائم إلى جمال عبد الناصر والتشويش على إذاعة القاهرة اذ كانت اذاعة القاهرة مصدر اعتزاز للعراقيين كافة . وكان العراقيون يشمئزون من كل ما يؤدي الى اساءة العلاقات مع الاشقاء العرب .

ولقد ظل العالم العربي عدة سنوات يعتقد ان عبدالاله ، يعد العدة ليخلق له عرشاً في سوريا وكان لدى العرب من الاسباب العديدة ما يبرر لهم الاعتقاد بان هذه المشاريع هي من وحي المؤامرات البريطانية والامريكية ، وذلك سعياً منها لتوحيد العرب تحت ظل العرش الهاشمي ، وبالتالي جعلها تابعاً طبيعياً للدول العربية . ولقد زعم الجمالي في محاكمات بغداد ، ان قيام الهلال الخصيب الهاشمي كان خطوة نحو الوحدة العربية ، ناسياً ان هذه العائلة لا يمكن لها ان تحقق اتحاداً مع مصر ، او شمال افريقيا ، او دول الجزيرة العربية التي تسيطر عليها العائلة السعودية المنافسة . اما الوحدة مع الاردن وسوريا فقد

كانت تجتذب الكثيرين وان كانت جاذبيتها تكون أكثر قوة وفعالية لو تمت تحت لواء غير اللواء الهاشمي. فالقومي العربي يعلنها صريحة داوية في كل مكان ، ان الهاشميين كانوا مكروهين في كل أرض عربية ، وان من المحتوم ان تثير سيطرتهم الخلافات والمنازعات مع المناطق العربية الاخرى ، لانهم عرفوا في تاريخهم ، بانهم خدمة الاهداف والخطط الغربية لتقسيم العالم العربي ، وان أملهم الوحيد في الحكم ، هو قيام عهد يستند إلى الفساد والطغيان والمعونة الاجنبية . ويقول هذا القومي ايضاً ان امتداد هذا الحكم الفاسد إلى العرب الآخرين لا يعني سوى العدوان عليهم. وكان عبدالاله يعد العدة لمهاجمة سوريا تحقيقاً لمطامعه الشخصية، ولكن هذا الهجوم لا يتعدى كونه عدواناً اخلاقياً وجغرافياً وكيانياً على سوريا.

واذا ما حاولنا الوصول إلى تحديد جذور الكراهية المتأصلة في النفوس للهاشميين ، نجد حتماً انها تعود الى كونهم « ادوات في يد الاستعمار » اي خدمة الغرب والفساد . واذا ما أردنا معرفة السبب الاول هل هو خدمة الغرب او الفساد ، تبين لنا ان العراقي العادي قبل تموز ١٩٥٨ كان يرى في الهاشميين اولاً وقبل كل شيء اذناباً للاستعمار ، وان الفساد يأتي تبعاً لذلك في المرتبة الثانية . وعندما كتبت جريدة التايمس اللندنية معلقة في مقالها الافتتاحي على الثورة تحدثت عن (موضة القومية العربية) وزعمت ان نوري السعيد كان في وسعه ان يحبب نفسه إلى الشعب رغم جبروته وطغيانه ، لو احسن قرع طبول القومية . ان هذا القول نصف الحقيقة . فليس في وسع اي زعيم عربي ان يكتسب الشعبية والحب مهما قرع الطبول، لان التجربة المقبولة لدى العرب تقوم على الاخلاص لا على التهويش الفارغ ، كما ان ليس في وسع دعوى القومية الصحيحة أن تعمي العيون عن الطغيان والوحشية . ومع ذلك فان من الحق القول بأن آثام عبد الاله ونوري ضد القومية العربية هي السبب الرئيسي في كراهية العرب لهما . وهكذا في وسعنا أن نحدد أن العرب لا يريدون مجرد الوحدة بل الوحدة المتحررة من التبعية . وبكلمة أصح يرغب العرب في السيادة والاحترام . ولذا فان الشعور بالمهانة والنقص لا يمكن التغاضي عنه وهذا

الشعور قد زادته مساوىء الفساد ، سواء اكانت دافعاً أولياً أو ثانوياً ، حدة وشدة .

ان حقيقة الشعور العربي تتلخص في ان الوحدة أمر قائم وموجود . وليس هناك من حدود لقوة هذا الشعور في عقول العرب ، وقد يصبح عنيداً لا يقاوم عندما يمتزج بالاحساس المتطهر وبالرغبة في البساطة ، وبحب الطبقتين الوسطى والدنيا للمعرفة والثقافة ، وبالتحفز للوقوف دون أي عون في كافة الميادين الادارية والفنية . وهناك مشاعر أخرى أقل قيمة وأهمية من هذه ، ويخطىء بعض الدبلوماسيين البريطان عندما يعتقدون أو يحاولون اقناع أنفسهم بوجود شعور للوحدة الاسلامية وذلك لانهم يريدون أن يتوجه العرب في مشاعرهم نحو الباكستان . لكن الحقيقة ، هي ان تطلع العرب نحو الهند ، أشد منه نحو الباكستان . والحقيقة أيضاً ان العرب يشعرون بالعطف نحو جميع المسلمين ويتضامنون معهم شأنهم دائماً في كافة عصور الاسلام ، لكن هذا الشعور لايحمل اليوم أي طابع أو مغزى سياسي . والعرب يدركون تماماً ان اعجاب بريطانيا بالباكستان ناتج عن ضعف الاخيرة واعتمادها على بريطانيا. والشعور السائد ، والذي يتضمن أهمية سياسية ، هو شعورهم بالوحدة الاسيوية . فالعرب معجبون بسياسة الحياد في الهند ، كما يعجبون بالقدرة على التنظيم والتصنيع المتمثلة في الصين (لا فرموزا) واليابان ، ولا شك في ان تحرير الصين لنفسها من العهد الفاسد القائم على المساعدة الامريكية الاستعمارية ، قد خلق لها سمعة هائلة في ارجاء آسيا كافة وفي العراق والبلاد العربية بصورة خاصة . وهذه السمعة قد تمكنت من خلقها بالرغم من شيوعيتها لا كنتيجة لهذه الشيوعية . وعلى هذا الضوء تمثل الحرب الكورية للعرب نجاحاً جزئياً للعدوان الامريكي على دولة آسيوية وخلق عهد فاسد وطاغ في جزء من البلاد ويميل العرب الى تصديق الجانب الصيني من القصة وتفضيله على الجانب الامريكي . اذ ان وجود جانب يقول بعض الحقيقة وجانب آخر عرف عنه الكذب أحياناً يجعل الآخرين ميالين لتصديق ما يقوله الجانب الأول بحذافيره .

وهكذا صدق العرب مزاعم الصينيين عن استعمال الامريكان لحرب الجراثيم في كوريا ، بينما لم يصدق في الغرب هذا الزعم إلا الشيوعيون ، وصدقته في الدول الاسيوية غالبية شعوبها .

وهكذا رأى العراقيون العالم الذي يعيشون فيه ، مباذل ومساوىء في بلادهم يؤيدها البريطان ، ويدعمونها سعياً منهم لايجاد عراق يخدم مصالحهم الاستراتيجية ولأول مرة يبدو للناظر عالمان عربيان ، أحدهما بسيط ونقي ومحايد في المشاكل الدولية هو عالم عبد الناصر وآخر عالم فاسد يسوده الطغيان . وعندما أعلن قيام الاتحاد بين العرشين الهاشميين وصدرت الأوامر للعراق للاحتفال بهذه المناسبة في ١٤ أيار ١٩٥٨ ، لم يكترث الشعب العراقي بهذا الاحتفال ولم تبد عليه أية علائم للفرح والبهجة رغم بعض مظاهر الزينة .

وبعد شهرين فقط عم السرور الشعب العراقي ، عندما أعلن عن انهيار الاتحاد الهاشمي وقيام التعاون الجديد مع الجمهورية العربية المتحدة . فالوحدة العربية يجب أن تكون متحررة ، وان تنبثق من ارادة الشعب لا من الرغبة في دعم العروش والتيجان .

الباب الثاني

ماذا فكر البريطانيون

مذكرة ايضاحية للباب الثاني

ليس من أربي ان أبعث الألم في نفس أي بريطاني من أبنـــاء الجاليات التي عاشت أو قد تعيش الآن في العراق ، والذي قد يقع هذا الكتاب بين يديه . وكلي أمل ان يعترف البريطانيون بحقيقة ما جاء في هذا الكتاب ، دون ان ينسبوا وقائعه الى أحوالهم الشخصية . وطبيعياً ان يكون هنـــاك شواذ ، فيما نسب الى البريطانيين عامة ، فليس من الخير ان نزعم عدم ارتكابنا للاخطـاء ، وإذا ما حاولنا اقناع انفسنا باننا لم نخطىء في الماضي فمن الصعب علينـا ان نصلح هذه الاخطاء . وعلى النقيض ليس في امكاننا ان نتأكد من ان عملنا يجري في خير ما نريد سواء لخدمة مصالحنا أو مصالح العراق ، إلا اذا كان لدينـا الاستعداد الكافي لدراسة سلوكنا ونتائجه وآثاره ، وان نصلحه اذا ما وجدنا فيه أي خطأ . وإذا لم نكن على استعداد للقيـــام بذلك ، فسيتألم الجميع وفي مقدمتهم نحن لا غيرنا .

الفصل الرابع

الجالية البريطانية

لم تتطبع الحياة العراقية قيد أنملة باساليب الحياة البريطانية . فغالبية البريطانيين في العراق لم يجيئوه رغبة في السياحة أو حباً في العراق نفسه ، وانما جاءوا لاداء عمل او وظيفة سيان عندهم لو قاموا بها في العراق او في غيره من اجزاء العالم . والقليلون هم الذين توقعوا قضاء حياتهم كلها في العراق بعد ان تزوجوا نساء من نصارى العراق . وقليلون ايضاً من كان في امكانهم العثور على عمل في بلد آخر ، او على عمل يضاهي عملهم من ناحية المرتب العالي والمكافآت الجزيلة ، لكن الكثيرين هم الذين كانوا على استعداد لمغادرة العراق الى بلد آخر يبعثون اليه . وخلف تلك الاسوار العالية في جانب الكرخ عاش اولئك الدبلوماسيون ، ومعظمهم ليسوا من الخبراء في تاريخ تلك البلاد التي جاءوا لتمثيل بلادهم فيها . ومنذ عام ١٩٤٥ اصبحت العقيدة الظاهرة لدى وزارة الخارجية البريطانية ، عدم اطالة الامد الذي يقيمه موظفها في بلد ما مخافة ان يعرف كثيراً عن شعب ذلك البلد ، وهكذا اخذت مهمتهم تنحصر في العمل الدبلوماسي ليس الا ، والشعور بالعطف على الشعب العراقي ، أصبح يعتبر نقصاً في الولاء لداوننغ ستريت . وبالاجمال فان خطر الدبلوماسي في رأيهم يصبح كبيراً اذا ما اتسعت معلوماته ومداركه . اما جالية رجال الاعمال فقد كان لعدد من الشركات اعمالها لا في العراق او العالم العربي فحسب بل في بقاع العالم الاخرى ، وكان

في مكنتها نقل موظفيها من بغداد الى سنغافورا شرقاً او مرسيليا غرباً . امـا الاكثر ثبـاتاً وبقاءً من البريطانيين في بغداد فهم جماعة الخبراء او المستشارين وبعضهم كان من بقـايا عهد الانتداب ، وقد ظلوا حتى انتهوا وماتوا ، امـا الاتجاه العام فكان لتبديل الخبراء دون الاهتمام بخبرتهم ومعلوماتهم ، وكلما كانت اقامة الخبير أقصر ، كلما ظن ان عمله احسن . واما اساتذة اللغة الانكليزية فكانت اقامتهم اطول ، وان كانت الرغبة في استبدالهم قوية دائماً . وجميع هؤلاء كانوا من موظفي الحكومة العراقية . والعراقيون يرحبون دائماً بالخبير المنتدب لامد قصير رغبة منهم في الاستفادة من خبرتـه الفنية ، ولكنهم كانوا يكرهون المشورة من الاداريين القدامى من مخلفات الانتداب .

والمعروف عن الجاليات البريطانية في الخارج ميلها الشديد الى الاحتفـاظ بمظاهر حياتها الخاصة في بريطانيا وتجاهل حياة شعوب البلاد التي تقيم فيهـا . فقبل ثلاثة قرون كتب قسيس بريطاني يعيش في مدينة حلب الى صديق له في بريطانيا يعمل في جامعة اوكسفورد ، يقول له ، ان الانكليز الذين يعيشون في حلب بعيدون جداً عن حيـاة المدينة ، وفي وسع المرء ان يتخيلهم يعيشون في أوكسفورد نفسها. وفي الحق ليس هناك من مبرر يحمل البريطانيين الذين يعيشون في الخارج ، على التنكر لحياتهم الأصيلة اذا ما رغبوا في عيشها إذ انهم يخرجون من بلادهم ليقوموا بعمل ما . وهذا العمل كثيراً ما يتطلب أية معرفة أو معلومات محلية ، ولكنها فرصة ضائعة ، وكلنا نضيـع الفرص دائماً . فالبريطـاني الذي يختار أن يظل بريطانياً في معيشته في بلاد غريبة وان ينعزل عن أهلها ، ليس من حقه ان يكون فكرة عن هذه البلاد ، وان يستمع إلى رأيه سكان بريطانيا وان يطالب السياسة البريطانية الرسمية بتنفيذ ما يراه ويقترحه . وعلى هـذا البريطاني قبل كل شيء أن لا ينسى بانه مدين لاهل البلاد التي يعيش فيها بامان وسعادة ، وبشعور من الاحترام والتقدير .

ولقد عاش غالبية الانكليز في بغداد في ضاحيتين معينتين ، احداهما كانت في الماضي موئلاً لعقلية سكان « الغيتو » من الانكليز ، ثم توافد عليهم فيها فيما بعد الامريكيون والاوروبيون الآخرون . وتشتمل هذه الضاحية على نادي العلوية

حيث تعرض الأفلام الانكليزية وتقام حفلات الرقص والرياضة ، وتوجد أحواض السباحة ، وتكثر فوق كل شيء المجتمعات الانكليزية التي تسودها الهمسات والوشوشات والاقاويل ، فأصبح هذا الحي نموذجاً للحياة الانكلوسكسونية . ووجد في المدينة ايضاً ناد بريطاني لم يتعد حدود كونه حانة لرجال الاعمال. وفي نادي العلوية كما في بيوتهم ، عاش افراد الجالية الاجنبية الحياة التي كانوا سيحيونها في اوطانهم . وما يصدق على بغداد يصح على مدن النفط العراقية الأخرى حيث أمنت شركات البترول لموظفيها حياة رغدة هانئـة . وفي بغداد عاش معظم الطبقة الوسطى من الانكليز، رجال ونساء ليسوا على كثير من الذكاء او الغباء ، لا يكترثون بالعالم المحيط بهم وانما همهم ان يلعبوا البريدج والتنس وان يتهامسوا ويتناقلوا الشائعات . وكان مستوى المعيشة لهؤلاء في بغداد أعلى مما هو لامثالهم في انكلترا ، فكثرت المباذل تبعاً لذلك واخذوا يشعرون هنا بنوع من الكبرياء ، ما كانوا ليشعروا به في بلدهم ، ففي بريطانيا مثلاً تعتبر العائلة التي تحتفظ باثنين من الخدم على جانب كبير من الارستقراطية ، اما في بغداد فقد اصبح لكل عائلة اكثر من خادمين وهؤلاء الخدم يشبعون نهم سادتهم الى السيادة عندما يسمونهم « بالصاحب » فمن الهند جاء جيش الجنرال مود الفاتح في الحرب العالميـة الأولى ، ومن الهند ايضاً جاءت هذه الكلمة اللعينـة التي لا تعني للبريطاني الا السيادة وللعربي الا العبودية . انها كلمة تعني الامتياز والتفرقة ، عرفها الهنود في عهد الاستعمار كما عرفها العرب في عهد الاستعباد التركي ، عندما كانت تقيم في العراق اقلية ضئيلة من البريطان تتمتع بالثراء الفاحش والمكانة المرموقـة . وما اثار الهنود على هذه الكلمة أثار العراقيين ايضاً بل وعلى مقياس اكبر اذ ان الملك في العراق مهما كان غريباً فهو من اصل عربي لا كما في الهند امبراطور انكليزي يرتدي ملابس الهنود التنكرية . فلا غرو اذا ما كره العرب ايضاً كلمة المستشارين لانها تسير جنباً الى جنب مع كلمة « صاحب » وتحمل معنى الاستعمار . وقـد نشأت هناك طبقة من الخدم ، تنقل افرادها بين البريطانيين من جيل الى جيل مذيعين استعمال هذه الكلمة التي اصبحت شائعة ذائعة .

ولكن امتيازات « الاصحاب » ومزاياهم ، قد زالت بزوال عهد الانتداب، وان ظلت الجالية البريطانية تود الاحتفاظ بها ، وكل ما يهم افراد هذه الجالية ، هو المراكز التي يشغلونها والمدة التي يقضونها في اشغال هذه المراكز وكل ما عدا ذلك ليس بالمهم قطعا . فالعرب في نظرهم، وهو اصطلاح يشمل جميع العراقيين، طبقة من الخدم ، اذ ان الانكليز لا يعرفون منهم الا الخدم . ولم يكن العراقيون يتلقون دعوات الى مآدب في بيوت البريطانيين ، وقد وجدت بعض عائلات بريطانية تفاخر بان عربيا واحدا لم يطأ عتبات بيوتها . ومع مضي السنين ، ظهرت عوامل جديدة ، فقد برزت طبقة من العراقيين واخذ هؤلاء سواء من كبار رجال الاعمال ، او رجال الحكم،يتوافدون الى بيوت زملائهم البريطانيين. وبدأ الاختلاط ولكنه كان من جانب واحد فالبريطاني يريده ان يتم بالشكل الذي يريده هو ، وعلى طريقته الخاصة دون الاكتراث بطريقة زميله العراقي ، ومن النادر ان يتخذ احد البريطان من زميل عراقي ، صديقا في حلقة المقربين والخلص من اصدقائه وقليلون من البريطان ، من ود معرفة شعب البلاد التي يعيش فيها،ولكن لا بنفسية الصديق،بل بنفسية المستطلع الذي يقف متفرجا على جنس حيواني جديد .

وعندما جاء عام ١٩٥٨ كان هذا الجمود البريطاني قد تأثر واهتز كثيرا بسلوك الامريكان . ومن الحق ان يقال ان الامريكيين ارادوا من العراقيين ، الاقتداء بهم في حياتهم الامريكية ولكنهم كانوا اكثر من زملائهم البريطان رغبة في الاختلاط وحماسا له . فقد شعروا في العراق ، كما في اي بلد آخر ، بحاجتهم الى من يحبهم ، وارادوا من العراقيين الاتفاق معهم عن طريق الثقافة ومعرفة الحياة الامريكية البسيطة وغير المعقدة . وبينما كان البريطانيون يريدون اصدقاؤهم من البريطانيين فقط ، كان الامريكيون يريدونهم من الامريكان والعراقيين معا على ان يتأمرك هؤلاء العراقيون . وهكذا عزل الفريقان نفسيهما عن الحياة العراقية والرأي العام العراقي مع الاقرار بان الامريكيين اتخذوا هذا السبيل حماسا منهم لاساليبهم الخاصة في الحياة .

وكانت غالبية من يعمل مع البريطان والامريكان في العراق من المسيحيين ، الذين اشبعوا في نفوس الاجانب ميولهم الطبيعية الى الامتياز والشعور بالعظمة . ومعظم هؤلاء المسيحيين العراقيين كانوا من الجيل السابق ، الذي يذكر عهد الانتداب ، عندما كان كل بريطاني في العراق رجلا عظيماً لمجرد انه يحمل جواز سفر بريطاني . ولم يكن جميع هؤلاء من فصيلة الطفيليين لكنهم كانوا على استعداد للانفصال عن العالم العربي الذي يعيشون فيه لانهم يرون رؤساءهم الانكليز يحتقرون هذا العالم ويشكون فيه . والجيل القديم من المسيحيين خاصة، كانوا يشكون في الغالبية المسلمة مع انهم في الحقيقة ليس لديهم ما يبرر هذا الشك، لان معاملتهم امام القانون لم تكن يوماً اسوأ مما يعامل به الكاثوليك في انكلترا مثلا ومع ذلك فقد رحب هؤلاء بالانكليز اول مرة ، عندما جاءوا فاتحين ، لانهم اعتقدوا بان الانكليز سيفضلونهم على الآخرين لانتمائهم الى نفس دينهم . ففي الشرق ليس الدين موضوع عقيدة في الدرجة الاولى. إنه موضوع وراثة وعنصر. فالمرء يولد في الشرق مثلا مسيحياً او مسلماً او يهودياً او صابئاً، ومع انه ينشأ غير مؤمن بالله ، فهو يحتفظ بالدين الذي نشأ عليه ، ولا يمكن له ان يستبدله ، الا اذا تحول عن دينه الى دين آخر وهو امر لا يغتفر . وتبعاً لذلك كان من الطبيعي، في ايام الانتداب الاولى ، ان يرحب مسيحيو العراق بالمسيحيين البريطانيين كاتباع عشيرة واحدة ، وافراد طائفة مماثلة ، وان يتوقعوا منهم تأييدهم ومساعدتهم ضد الاغلبية المسلمة . ولم يعرف البريطانيون حقاً لماذا رحب بهم مسيحيو البلاد؛ فكثيرون من البريطانيين لا يشعرون بشعور التضامن المسيحي ، واذا كانت لبعضهم أحاسيس دينية ، فهي متجهة الى المجتمع الانكليكاني ، دون اي تقيد بالاتجاهات التبشيرية . ففكرة الديانة بالنسبة لهم لا تتجاوز حدود العقيدة ، ولا تحمل اية قوة كما يحمل الشرقيون . ولكنهم ، اي الانكليز ميلا منهم إلى الشك في كل ما هو اجنبي ، اعجبهم ان يعاملوا من المسيحيين العراقيين كافراد شعب سيد ، فاعتبروهم تبعاً لذلك اصدقاءهم الخاصين . وكثير من البريطانيين من فضل قبول الغش والخديعة من مسيحي عراقي على ان يتعامل مع مسلم أمين . فالبريطاني تعوزه القدرة على تمييز الامانة من الغش ،

في مجتمع غريب يتكلم لغة غريبة . وكان المسيحيون الوحيدين الذين يتحدثون اليه بالانكليزية . والسبب في ذلك يعود جزئياً إلى ان المدارس الوحيدة التي كانت تعلم الانكليزية هي مدارس المسيحيين الخاصة ، ويعود كلياً الى اصرار المسيحيين على استغلال الاحتلال البريطاني استغلالاً كلياً . ولم يكن لدى المسلمين ما يحفزهم على أن يجعلوا من انفسهم تراجمة وادلاء للمحتلين الانكليز . وهكذا تبوأ البلداء والجهلاء من المسيحيين مراكز الخدم عند الانكليز ، بينما تسنم الاذكياء والمتعلمون منهم مناصب الكتابة والترجمة . اما المسلمون فالمثقفون منهم بحثوا عن مستقبلهم في الوظائف الحكومية او الأعمال الخاصة . وهكذا لم يتح للانكليز الاجتماع بممثلي الطبقة الوسطى من المسلمين ، واقتصر اجتماعهم بالمسلمين على افراد الطبقة الدنيا من البستانيين والخدم ، وافراد الطبقة العليا من كبار رجال الدولة والأعمال . ولم يروا في مسلم الدرجة الوسطى إلا رجلاً غريباً و « صعب » كما أفهمهم اتباعهم من المسيحيين الذين تعودوا على القول بان فلاناً « عدو لبريطانيا » وقد أدى كثرة استماعهم لهذه الاقوال الى صيرورتها لديهم حقيقة ثابتة .

وكان وضع السفارة البريطانية اكثر تعقيداً ، فوثائق الدار لم تعتمد فقط على نصيحة المسيحيين . ومع اني اجهل ما كان أعضاء السفارة يقومون به ، إلا انني كثيراً ما سمعت من العراقيين ان عملاء بريطانيا كانوا منتشرين وفعالين وشريرين. ولما كان قيام الثورة مفاجأة مذهلة لدار السفارة ، فمن واجب العراقيين ان يبدلوا تبعاً لذلك نظريتهم في مهارة العملاء البريطانيين وفعاليتهم . ويبدو لي ان رجال السفارة كانوا يشاطرون نوري السعيد ورجاله آراءهم ، في حقيقة ما يدور في البلاد .

ففي الامور الجوهرية كان وضع السفارة مشابهاً لوضع الجالية البريطانية . لقد احاطها نفر يقولون لها ما تريد هي ان تسمعه وان تصدقه . وما يعتقدون هم انها تريد سماعه وتصديقه . ففي حفلات السفارة تحتل اسماء كبار رجال العهد قوائم المدعوين ، وعندما وقعت الثورة،سميت قائمة الساسة الذين جمدت أموالهم

بقائمة حفلة كوكتيل السفارة . وهذا الانتقاد لا يوجه الى السفارة البريطانية فحسب بل الى غيرها من السفارات الاجنبية الأخرى ، والرد عليه يقوم على الادعاء بان السفير ليس « معتمداً لدى المعارضة » ، وعلينا ان نشير هنا الى ان الرجال الذين احاطوا بمعظم الدبلوماسيين الانكليز لم يكونوا من النوع الذي يقول لهم ان البلاد أصلاً وفرعاً ضد العهد القائم .

ولعل الاساتذة الانكليز كانوا الطبقة الوحيدة القريبة من العراقيين،وبعضهم قدم لوزارة التربية والتعليم خدمات جلى ، ونجح في اكتساب ثقة الكثيرين من الطلاب . وهؤلاء الرجال والنساء من المعلمين والمعلمات وبعضهم من موظفي المعهد الثقافي البريطاني ،كانوا أكثر اختلاطاً بالعراقيين من غيرهم ، يتزاورون معهم ، ويستمعون الى اقوالهم . ولعل ندرة من اختلط بالعراقيين من الانكليز هي التي جعلت هذه القلة من الاساتذة العاديين ، الذين يختلطون بالعراقيين بصورة اعتيادية ، يظهرون في صورة لورانس الدراماتيكية مع انهم لا يستحقونها . ومن المؤسف ان بعضهم قد ظهر أمام العراقيين بمظهر عملاء السفارة وعيونها . ولعل الدافع الذي عقد أوضاعهم ، هو عدم تساويهم في الكفاءة والمقدرة ، فبعضهم كان حقاً على جانب كبير من الكفاءة والمقدرة ، ولكن البعض كانت تعوزهم هذه الكفاءة ، فلجأوا الى الدس والوقيعة بزملائهم وقد يكون بعضهم من النخبة الصالحة للتعليم في المدارس الثانوية ليس إلا ، فوجدوا انفسهم فجأة دون سابق استعداد وكفاءة ، اساتذة في الكليات والمعاهد العالية ، مع انهم لو ظلوا في بلادهم لما اتيحت لهم مثل هذه المراكز . ووجد البعض أيضاً ممن لم يشعروا قط بالعطف على العراقيين ولذا لم يتفقوا مع زملائهم العراقيين . وعلى الرغم من الاخطاء ، فقد كانت هذه الطبقة من البريطانيين اقرب من غيرها الى العراقيين . وكانت غالبيتها مؤلفة من أشخاص اكفاء عملوا كثيراً لنشر العلم والثقافة .

وعندما اقترب عام ١٩٥٨ ، بدأت هذه العزلة في الذوبان ، فقد بدأ البريطانيون يعترفون بظهور المجتمع العراقي مع انهم ظلوا يعيشون بعيداً عنه .

وأخذت نظرة المنتدبين الانكليز نحو المسلمين تتضاءل شيئاً فشيئاً ، كما تبدلت نظرة الجيل الجديد من المسيحيين وأخذ أفراده يشعرون انهم عراقيون حقاً ، وانهم ، سواء شاءوا أو لم يشأوا ، عليهم ان يوجهوا ولاءهم للعراق وليس في امكان الاجنبي ان يقدم لهم المساعدة الدائمة .

وتظل الحقيقة ماثلة ، وهي ان البريطانيين عاشوا طويلاً في محيطهم الضيق، ولذا لم تكن آراؤهم تجاه العراق مستمدة من آراء غالبية العراقيين وهي الآراء التي لخصتها في الفصول السابقة ، وإنما بنوها على ما يعرفونه ويفهمونه هم أنفسهم، دون ان يشعروا بالحاجة الى استخدام خيالهم . فهم ينظرون الى المؤسسات العراقية ويحكمون عليها وكأنها مؤسسات بريطانية . وكانوا لا يزالون يعتقدون فيما يرونه ويسمعونه عن الحشرات الطفيلية المنتشرة حولهم وعلى تراجمتهم وخدمهم ، ولم يحاولوا قط ان يفهموا ان للعراقيين مصالح تختلف عن مصالحهم، وان آراءهم تختلف تبعاً لذلك عن آرائهم . وهكذا فمن الطريف ان نجمل وجهة النظر البريطانية في الأمور التي شرحت وجهة نظر العراقيين فيها كالملكية والطبقات ، والفساد ، والدولة البوليسية ، والسياسة البريطانية ، ورأي الانكليز في المعارضة العراقية .

كان البريطانيون ينظرون الى الملكية في العراق بالمنظار الذي يتطلعون فيه الى بلاط سانجيمس . فاحترامنا العظيم لملوكنا لا يجعل من السهل علينا ان نتخيل ان شعبا آخر ، اذا كان شعباً طيباً ، يحمل لملوكه احتراما اقل من احترامنا لملوكنا ، وقد نجد من الصعب حقا ان نتخيل ان لدى هذا الشعب من الاسباب والدوافع ما يحفزه على كره ملوكه . فقبل كل شيء ، كانت هناك مظاهر الشبه بين البلاطين كالعربة الملكية والصيد الملكي والسلام الملكي وجميع تلك الامور التي بدت غريبة في اعين العراقيين ولكنها مألوفة لدى الانكليز تذكرهم باسرتهم المالكة في وطنهم . فحب الانكليز لملوكهم حملهم على التقرب من البلاط العراقي والنظر اليه بعين الاحترام الزائد . فالهالة الرومانتيكية التي تحيط بالملوك تثير في نفس بعض الخياليين ذكريات القداسة التي يتمتع بها الملوك

والتي زلزلت دعائمها في اعوام ١٦٤٩ و ١٦٨٨ ثم انتهت في اعين المثقفين في عام ١٧٨٩ .

وهذه المشاعر الخيالية الرومانتيكية ، سادت ايضا نظرة الانكليز نحو شيوخ الصحراء الذين ما زالوا يعيشون في الخيام حياة البداوة ، وان كان ثراؤهم الفاحش قد مكنهم من وضع سيارات الكاديلاك تحت تصرف ضيوفهم . ومع الاسف ، فقد اصبح ترحال هؤلاء الشيوخ مقتصرا على تنقلهم بين اراضيهم التي حصلوا عليها حديثا وقصورهم في المدن القريبة وفنادق بغداد . ومن الحق ان يقال ، ان دخل هؤلاء الشيوخ كان ينتزع من رجال قبائلهم الرحل او القاطنين الذين لم تتطور احوالهم الاقتصادية ، عما كان اسلافهم عليه في عهد السلطان سليمان القانوني عندما كان ملوك عائلة تيودور يجلسون على عرش بريطانيا . ويرى الانكليز في هؤلاء الشيوخ نظراء للوردات بريطانيا من ذوي الاملاك مع ان الحقيقة ان ممتلكات هؤلاء الشيوخ ، مستحدثة اعطيت لهم بعد الانتداب . وكان اهتمام معظم البريطانيين بالارياف العراقية مقتصرا ، على تلقي دعوة الى مأدبة « قوزي » اي الخراف المحشية في الصحراء عند احد الشيوخ . وهي خراف تشوى وتوضع فوق جبال من الارز تحيط بها كافة انواع المشهيات والاطعمة اللذيذة . وهذه الخراف يقدمها الشيوخ الان لضيوفهم على موائد من الابنوس مغطاة بالاغطية الثمينة تصف فوقها الصحون والملاعق والشوك والسكاكين كأي عشاء في اي قصر اوروبي . مثل هذه الحفلات تصلح موضوعا شائقا يتحدث عنه حاضروها من الانكليز بعد سنوات طوال عندما يتقاعدون ويعودون الى بلادهم في انكلترا الى جيرانهم . ان نظرة الانكليزي الى شيخ القبيلة هي انه العربي الحقيقي .

ولقد عاش حول بيوت الانكليز في المدينة عدد كبير من العائلات ، في فاقة شديدة وقذارة بينة . والنظرة العامة للفقر والتعاسة هي انهما جريرتان لا تغتفران وهذا ما رآه الانكليزي العادي ، والفقر في الصحراء لم يكن أقل منه في المدينة وان كان لا يرى عن كثب . واسطورة البدوي الطيب عاشت الآن في مخيلة

البريطانيين الذين رأوا في البدو وشيوخهم مثـلاً صادقاً للعرب ، فهم في رأي البريطانيين يختلفون عن ابنـاء المدن القذرين واللصوص . وهذه الصورة قد انطبعت في مخيلتهم من قراءاتهم لبعض كتب الأدب والقصة الرومانتيكية التي وضعت في القرن التاسع عشر وبعض كتب السياحة التي وضعهـا الجوالون الرومانتيكيون في عصرنا . أما جنود الحرب العـالمية الأخيرة فلم يشاركوا هؤلاء نظرتهم إلى البدو وشيوخهم ، بل نظروا اليهم على انهم لصوص اوغـاد . ولعلهم نسوا ان الفقر الشديد يدفع الناس إلى السرقـة . فاذا ما رأيت افراد عائلتك يتضورون جوعاً فانك تأخذ كل مـا تمتد اليه يدك لتنقذهم من الموت جوعاً . ولا ريب أيضاً في ان رجال الجيش السابقين ما زالوا يحتفظون بنظرة الاحتقار التي تنظر بهـا قوات الاحتلال إلى المستعمرين مـع بعض الشعور بالحنو والعطف .

وهكذا برزت فكرتان تقومان جنباً الى جنب ، اولاهما تعتبر الصحراء ، مصدراً للاشعـاع وترى الشيوخ ، في أروابهم الزاهيـة ، وعقالاتهم المذهبة وكفياتهم الحريرية ، والاخرى ترى العرب ، قذرين غير أمنـاء ، ومنحطين . وكلتا الفكرتين خاطئة وكاذبة ، ولكن من الصعب على من اقتنع بايهما التخلي عنها بسهولة . فنحن نستنكر انتقال الشيخ إلى الحيـاة العصرية كما نستنكر في بريطانيا تهديم تمثال او بناء جميل . ونحن في نفس الوقت لا نصدق اية محاولة يقوم بها العربي لتحسين احواله ورفع مستواه . ولذا فمن واجبنا ان نبتهج إذا ظهرت الصورتان كاذبتين .

وهناك ايضاً موقف البريطانيين تجاه الطبقات الوسطى الجديدة في العراق وبضمنها الطبقة الوسطى القريبة من الدنيا ، وهذا الموقف من الاهمية بمكان عظيم لان افراد هذه الطبقة هم الذين قاموا بالثورة . ولا شك في ان هذا الموقف مدين الى حد كبير الى كتب الادب وغيرها ، فالكتب التي وضعهـا السائحون كثيرا ما اشارت الى طبقة « الافندية » . فكل من يتعلق عمله بالكتابة والقراءة كالكتبة والسكرتيرين والضباط والاساتذة والمحامين والادباء ينتمون الى هذه

الطبقة . وفي بريطانيا ينطبق لقب « الافندي » علي وعلى العديـد من قرائي . والاصطلاح في حد ذاته غريب ومستورد للتعبير عن هذه الطبقة الجديدة المثقفة التي كانت في العهد العثماني من الضآلة بمكان عظيم . وعندما اخـذت الطبقـة الوسطى في اعداد الرأي العام ، تبين ان هذه الطبقة ستحتل مكانة هامـة في المجتمع ، وبدأ الاهتمام ينتقل من الشخصيات البراقة اللامعة ، الى هذه الظاهرة الحقيقية . وفي سنوات الحرب جرت محاولة نصف مخلصة من جانب البريطان للتقرب من طبقة الافندية عن طريق تأليف جمعية اخوان الحرية . وهي تسمية قوبلت بالهزء والسخرية بالنسبة الى موقف هذه الطبقة والى وجود عدد كبير من ابنائها في معسكرات الاعتقال . ولقد قابل الافندية هذه الجمعية لابالكراهية بل بالزراية والهزء والتعليقـات الساخرة . اذ تاق المثقفون الى منظمة ذات اهداف ثقافية وعاطفية ، لا مجرد زخرفة فارغة مجبولة بالدعاية البريطانية . ولذا لم تقابل هذه المحاولة الغربية الرومانتيكية باي شعور واقعي .

وهكذا فان الفكرة القائلة بأن الطبقة الوسطى المثقفة في العراق قد غدت ظاهرة جديدة وخطيرة ، قد تأصلت في نفوس ابناء الجالية البريطانية . وهذا ما حدا بالبريطانيين الى مقاومة انتشار التعليم والثقافة . وانتشرت الاقوال بأن الكليات ولا سيما كلية الحقوق تدفع في كل عام الى المجتمع عدداً أكبر من الشباب المثقف ولا سيما من المحامين ، الذين لا يجدون عملا لهم ، فيلجأون الى التـذمر والتآمر ونشر الكراهية . وشعر معظم البريطان بان التعليم اصبـح اكثر من اللازم بينما شعر العراقيون بان التعليم حق قائم للرجل . واذا ما ناقشت ذلـك البريطاني الذي يهاجم انتشار التعليم الجامعي وقلت له : (هل تريد ان يظل العرب انصاف رحل ، مستغلين من الاغنياء ، يعيشون في الصحارى والارياف دون المدن ، عاجزين في عالم صناعي يسودهم الجهـل وتنتشر بينهم المـلاريا والامراض التناسلية ؟) اجابك حتما بالنفي . امـا اذا وضعت نفس السؤال في قالب آخر : وقلت له : (هل تعتقد بان العرب سيكونون اكثر سعادة اذا مـا توقف تشجيع الهجرة من الارياف الى المدن ، وظلوا يعيشون حياتهم التقليدية

في الصحراء ، دون ان تعقدهم مظاهر وافكار المدنية الغربية الصناعية ، وانهم سيكونون اسعد حالا لو ان احوالهم الصحية والاجتماعيـة ظلت رهن ادارتهم البدائية الحنونة ؟) لاجابك فوراً بالايجاب مع ان السؤالين يحمـلان نفس المعنى ويؤديان الى نفس النتيجة . وفي عام ١٩٥٨ اخذت الحركة المناهضة لتعليم العرب تتخذ الشكل التالي : (ما اوقح هؤلاء المثقفين العرب بحياتهم البسيطة وتفكيرهم الطموح ، الذي ينصب على مثل التطور والاصلاح . انهـا مثل تقوم على النفاق والكذب ولا اهمية لها مطلقا ، ففي الصحراء مغريات حقيقية ، وكذلـك في التلال والمستنقعات والاهوار ، حيث قد يكون سكانها قساة امين ومسفلسين تسودهم الرذيلة المصطنعة ولكنهم جميعا ذوي مزاج حسن واخلاق حميدة وعلى جانب كبير من الجاذبية) .

ويتضايق العقلاء العراقيون من تلك الصورة الرومانتيكية التي يعطيها الانكليز للشيوخ . وإذا ما اردنا استكمال الصورة فمن الواجب القول ، بـان العقلاء الانكليز يتضايقون من جميع مظاهر الرومنتيكية العربية . فالحقيقة ان العرب يجتازون الآن المرحلة الرومانتيكية . والكتاب القريبون الى قلوبهم هم اولئك الذين يستعملون الألفـاظ الفخمة الطنانة للتعبير عن أفكار نادرة وغير شائعة . أمـــا الكتابة الجزلة ، البسيطة ، التي تخوض في بحث الحقائق الدقيقة وتصوير المجتمع الادنى فلا قيمة لها عندهم . والأمر هكذا بالنسبة للسياسة فهم يقتنعون بتأييد مبدأ معين باخلاص عميق ودون تفكير أو تحفظ . فكل فكرة تنـــال ولاءهم واخلاصهم يلبون نداءها مهما كان هذا النداء . وهذا ما قد يحملهم على ارتكاب الاخطاء . فبينهم رجال يفكرون دائماً باذناب الاستعمار وما شابهه من مصطلحات . وهنـــا مكمن الخطر ، إذ تحول هذه الرومانتيكية بينهم وبين التفكير في ما يقع حقاً ، وتنقلهم من عالمهم الواقعي الى عالم خيالي من المؤامرات المتمثلة وراء كل عمل بسيط . انها منتهى الانانية التي تحملهم على الافتراض بان بريطانيـا مشغولة بالعالم العربي الى الحد الذي لا تجد الوقت فيه للتآمر على جزء آخر في العالم . والمشكلة الحقيقية هنا ، كما يعتقد الكثيرون لا في ان الوزارة في

لندن تعطي من وقتها للتآمر على العرب اكثر من اللازم بل في انها لا تعطي الوقت الكافي لدراسة شؤون العرب ، ثم تقوم بعمل عاجل عبيط دون وعي أو تفكير ، والانتقـاد البريطاني الرئيسي للعرب هو في انهم يجرون وراء التعبيرات الجوفاء فمثلا يذكرون الرجل العقلي والرجل العاطفي ولكنهم لا يذكرون مطلقاً الرجل الاقتصادي ومثلهم العليا لا تتجه بصورة عملية الى رفع مستوى معيشتهم الذي يشعرون شعوراً اكيداً بحاجتهم اليه ، بل يهملون مقتضيـــات مصالحهم جرياً منهم وراء الرغبة العاطفية في تحقيق العدالة او التعلق بقضية لا شأن لهم بها . وهـذا النقد الذي ذكرت يصدر عن بعض الانكليز الذين يحبون الخير للعرب ويبرز حاجزاً طبيعياً لقيام معالم العطف المشترك بين الشعبين .

والحاجز الآخر هو اللغة التي يستعملهـا العراقيون أو العرب في التعبير السيـاسي ، والتي تبعد كثيراً عن لغة الانكليز وأذواقهم . فمثلا يطلق العرب على المستعمرين وهم الانكليز والفرنسيون والأمريكان ، ألفاظ الحيتان والغيلان والثعابين كما يطلقون على انصارهم وأتباعهم لفظ « الاذناب » وهي اصطلاحات لا تتفق مع التقاليد البريطانية وتشبه اللغة التي يستعملها الروس وهي في الحقيقة لغة جميع الشعوب الشرقية . ومع ان هذه التعابير تحمل معنى شيوعياً إلا انها لا ترمز الى انتشار الشيوعية . انها نوع من الشعر كالبحث عن مجازات واستعارات للتعبير عن مشاعر الألم والبغض . وإذا اردت التعبير عـن فكرة وجود شعب يستمد القوة من متاعب الآخرين وضعفهم وعن طريق استغلالهم فهل تجد أفضل من كلمة « الثعابين » وهي كلمة واحدة للتعبير عن معـاني غزيرة في محاضرة تلقيها أمام جمهرة من المستمعين الميالين الى الشعر . فالعرب كالكلتين [1] يقولون ما يشعرون به في التو واللحظة ، بخلاف الانجليز الذين يفضلون التأني في تعبيراتهم حتى يصل بهم الأمر الى ترك ما يشعرون به دون تعبير . وهكذا فان الانكليز الذين يكرهون اللغة التي تعبر آنياً عما يشعر به مستعملها يسيئون فهم العرب كما

(١) شعب بريطانيا الاصلي ،

يسيئون فهم الكلمتين .

واللغة العنيفة التي يستخدمها الخطباء العرب والافكار العنيدة التي يعتنقها الكثيرون وفي مقدمتهم الطلاب « الذين تختلط مثلهم العليـا » بعدم نضوجهم السياسي ، كلها ثمرات تقاليد مختلفة في اللغة عن تقاليدنا . وقد حاولت أن اشرح ذلك باسهـاب وتفصيل . وهي بالاضافة إلى ذلك ، انطلاق بعد كبت وحرمان ، فالرجال العاديون في العراق ، كانوا عاجزين ولامد طويـل ، كانوا محرومـين من التعبير عن آرائهم في اصلاح مجتمعهم ، او في الاستماع الى زعيم يشترك معهم في الامـال والاهداف ، وهكذا اخذت اللغـة تعنف لتعبر عن الكبت ولتكون أشد تأثيراً .

وقد حاول سائح إيطالي جال العالم في القرن السابع عشر أن يقارن بين انكلترا في عام ثورة ١٦٨٨ حيث كان الخطر جاثماً من نشوب الفوضى وبين ممتلكات السلطان العثماني آنذاك ، وكانت مقارنته على العموم ضد بريطـانيا . وعلى الرغم من ذلك فان قرون الشعور بالمسؤولية هي التي اوجدت العقيدة البريطانية الحرة في ان الحكومة منبثقة من الشعب وهي العقيـدة التي ضمنت انكلترا في العصور الحديثة من الثورة . أمـا الأحوال المعاكسة في ممتلكات السلطنة العثمانية فقد أدت الى نتائج معاكسة ، ولا ريب في ان امتداد نوع الحكم العثماني في العراق وانعـدام المسؤولية المشتركة ، جعلت من ثورة العراق ، أمراً محتوماً . وهكذا فان البريطان الحماة السادة ، والعراقيين المتألمين المستعبدين ، لم يشتركا في تجارب مماثلة .

وهذا لا يفسر الخلافات حول الحقائق ، فهل في وسعنا ان نفترض ، ان البريطانيون كانوا عمياناً تماماً عن الفساد والارهاب المحيطين بهم ؟ والاجابة على هذا تختصر بنعم ولا . فهم عن الفساد لم يكونوا بالعميان وانمـا أخذوه على انه أمر مسلم به . وهو أحد الامور التي يتوقعها الانسان من الأجانب . امـا عن الطغيان فقد كانوا اجمالاً عمياناً غير مبصرين . فالانكليز يكرهون الطغيان

والعنف ، ولكن من السهل أن يصدقوا عدم وجوده . فهناك صحيفة انكليزية واحدة تقع في متناول أيديهم ، والصحف عامة ممنوعة من نشر الحقائق بالاضافة إلى ان تلك الصحيفة وهي (العراق تايمس) لم تكن لتنشر الاخبـار السياسية والاشخاص الذين يعملون مع رؤسائهم البريطان ، يشتغلون ضمن نطـاق العهد البائد ولا يريدون تبديله ، انهم يشعرون بالحصانة من التدخل ، وهذا امتيـاز عظيم فما داموا لا ينتقدون الحكومة فهم في مأمن من بطش شرطتها . وهكذا لم يرَ الرؤساء البريطانيون كما ولم يسمعوا شيئاً عن فظائع الشرطة . ومع هذا ، كان من الصعب اخفاء الحقيقة وهي ان هناك اضطراباً ، ولكن الجاليـات الأجنبية كانت تخاف خوفاً شديداً من مظاهرات الطلبة وكان الانـكليز يتوقعون أن يكونوا اهدافاً لهجمات المتظاهرين ، ولذا كانوا يبتهجون عندما يسمعون بان الشرطة قد قضت على الاضطراب وان الخطر قد زال . وكان البريطـان يسمعون احياناً بوقوع اعتقالات ولكنهم لم يسمعوا قط عدد هذه الاعتقالات ، او عن العذاب الذي يتعرض له المعتقلون . وكانوا يسمعون ايضاً باطلاق النـار في أماكن بعيدة ، ولكنهم يعتقدون اما ان ما وصلهم كان كاذباً او مبالغ فيه . وكانوا يعرفون ان الطلاب هم الهدف الرئيسي لحملات رجال الشرطة ، ولكنهم كانوا يكرهون الطلاب للغة العنيفة التي يستعملونها وكانوا يعتقدون ان النظام القائم السليم يواجه اقليـة من الطلاب غير المسؤولين . وهناك كانوا هم يتساءلون ولهم الحق في ذلك . ما دخل الطلاب بالسياسة ؟ . وكانوا يرون أيضاً عن كثب منهم مظـاهر الفقر السيئة ، ولكن لم يدر بخلدهم قط ، ان لهذا الفقر علاقة بالسياسة البريطانية في العراق .

لقد كان اهمالاً في التفكير ، وعلى بريطانيا ان تدفع غالياً ثمن هـذا الاهمال فالخطيئة الكبرى للبريطان ، هي عدم تفكيرهم بالقضايا الخارجية ، ولقد عانت الشعوب الثلاثة الشقيقة ، (الاسكوتلانديون والايرلنديون والويلش) في الماضي من فشل الانكليز في فهم تقاليد هذه الشعوب ، فلماذا لا نصلح أخطاءنا؟ ولماذا لا يقوم الانكليز أنفسهم ولهم الكثير من الفضائل باستخدام أفكارهم أكثر

فأكثر والقيام بالتزاماتهم الخارجية بصورة اكثر جدية . ومن الضروري ، أن يعرف الانسان شيئاً عن الشعوب الاجنبية التي يتعامل معها . واذا كان هؤلاء الذين عاشوا في العراق ، لا يعرفون الا القليل ولا يريدون أن يعرفوا الا القليل فهل ندهش ، اذا لم يكن المسؤولون في لندن يعرفون شيئاً ؟ .

الفصل الخامس

السياسة الرسمية

اذا ما اردنا ان نبحث موضوع سياسة بريطانيا الرسمية تجاه العراق في العهد البائد فعلينا ان نبدأ بما يشك فيه معظم العراقيين ، وهي انها لم تكن سياسة منافقة خادعة . فالحكومة البريطانية ، وحتى في جلساتها السرية لم تكن لتفكر في ان الواجب يقضي بالابقاء على العراقيين في حالة فقر وخوف ليتسع ثراء الشعب البريطاني ، وتزداد طمأنينته . وفي الوقت نفسه ، كانت السياسة البريطانية تتجه الى رفاهية بريطانيا وامنها . وهل هناك مناص من هذا الاتجاه ؟ واذا أدت هذه السياسة كما يتراءى للكثيرين ، الى شل حرية العراق فان الموظفين البريطانيين ينكرون ذلك بصدق واخلاص ، بعد ان اغلقوا عيونهم عن رؤية مثل هذا الاحتمال . واذا كانت هناك خديعة فهي خديعة المرء لنفسه فكيف نفسر هذا التناقض ؟ .

ويقع الجواب كما يبدو في نظرية وجود مستويين . وطبقاً لهذه النظرية ، كان العراق في احوال مرحلة معينة في تطور المجتمع الانساني . وفي وسعك ان تقول ان هذا الوضع يشبه وضع بريطانيا في القرن الثامن عشر وهي موازنة اكاديمية صحيحة . ففي كلتا الحالتين ، بداية للتصنيع وحركة بين اصحاب الاراضي لاستبدال أساليب الزراعة القديمة بأساليب جديدة وعملية دمج الشعوب

المختلفة في البلاد ، والمدينة والعاصمة هما مركز النشاط الثقـافي حيث تتألف الجماعات الصغيرة ، وفوق ذلك كله هناك الفساد والتكتل العائلي في الحيـاة السياسية . وفي السياسة يقبل ساسة العهد القديم على تبني المبادىء ثم نبذها وفقاً لمقتضيات الظروف ودون درس او تمحيص ، فليس هناك من مبادىء ثابتـة أو برامج حزبية معينة ، سوى تلك البرامج التي تتبناها أحزاب المعارضة الممنوعة ، وهي برامج أعلنت السلطات عدم شرعيتهـا لتتمكن من العودة الى الماضي بسهولة ويسر . وحتى وفقاً للطريقة الاكاديمية فان هذه المقارنات على جانب كبير من الخطورة ، اذ انها لا تبرهن على شيء وان كانت تشرح بعض الاشياء وعلى كل حال فهذه المقارنة كريهة لدى العراقيين لسببين اولهما ، انها تعني ان العراق قد أجبر على العودة الى القرن الثامن عشر وان هذا اذا صح يجب ان يقابل بالرفض والمقت لا بالقبول . وثانيهما ان هذه المقارنة انما قصد منها الوصول الى نتيجة تبرر جميع أعمال العهـد البائد وهي ان الطريق ما زال طويلاً امام العراق .

واذا كانت الطريق مازالت طويلة امام العراق ليلحق بركب القرن العشرين فان أي تأخير مقصود ، للتقدم يصبح ممكناً اذا أدى الى نتيجـة من نوع ما . وهذا ما تصور العراقيون وقوعه . وقد رأى البريطانيون نفس هذا الرأي لأن التقدم البطيء والمستمر في نظرهم هو الامر الصالح الطيب ، و « ليس من الخير ان نستعجل الأمور » ، واعتقد البريطانيون القائمون على الحكم ، والموجهون للسياسة ان العراق لم يصبح بعد « مستعداً » (وهو اصطلاح يرضي الاهـداف الاستعمارية) لاتخاذ الديموقراطية بالمعنى الذي يفهمـه الانكليز سبيلاً للحكم . والسبب الكامن في كراهية الغرب لجمال عبد الناصر ، هو ان جمال يريد ان يعمل كل شيء بنفسه . ومن الصعب حقاً ان نفسر أسباب الكراهيـة التي تحملها بعض الدوائر الحاكمة في بريطانيا لعبد الناصر ، لكنني اقول ان مرد هذه الكراهية عامة يرجع الى ان كل شخص في بريطانيا قد افهم ان عبد النـاصر يسير على الطريق الخاطىء ، ويدعم الحاكمون هذا الافهام لا بالاستهزاء ، مع ان

جريرة عبد الناصر الوحيدة هي انه أراد أن يقف وحده على قدمه دون عون او مساعدة . وبوسعنا القول ان الحاكمين في لندن قابلوا اصلاحات مصر السريعة بالسخط وعدم الرضى ، بينما قابلوا تطور العراق في ظل نوري السعيد البطيء والمتستر ، بالرضى لانه يقوم على مساعدة الغرب .

وهكذا يبدو المستويان اللذان تحدثت عنهما ، احدهما بالنسبة للشعب البريطاني والاخر بالنسبة للشعوب المتأخرة . فهذه الشعوب المتأخرة في امكانها ان تأخـذ امورها بيدها بعد امد طويل وغير محدود ، على ان يقوم غيرها لهـا بالعمل في هذه الفترة ، ومن ثم يتسلم ابناؤها شؤونهم عندما يصبحون « اكفاء » لذلـك ، فكيف يصبحون ؟ سؤال لا رد عليـه . ويتمتع الشعب البريطـاني بالحقوق الانسانية الكاملة في الحرية والحكم الذاتي ، ولكن في الظاهر يجب ان لا تسمى هذه الحقوق بالانسانية مطلقا وانما بحقوق الانسان المتقـدم . ومن حق الشعب البريطاني ان يسيطر الان على مستوى معيشته وطرق تحسينها ، امـا بالنسبة للشعوب المتأخرة فان هذا الحق يجب ان لا يعطى لها قبل ان تستغل مواردها تمام الاستغلال (لصالحها من قبل الشعوب المتقدمة) . وهذه الاقوال حتما صورة من الجدل المنطقي القديم القائل بان الفقراء يجب ان لا يعطوا حمامـات لانهم يضعون فيها الفحم والقاذورات ، وبعبارة اخرى ، اذا اعطينا العرب مستودعات للفحم ، فانهم يستحمون فيها . ويستمر هذا النقاش من جـانب البريطانيـين فيقولون ان الشعب يجب ان يحصل بعد جهد على الحقوق التي يطلبهـا ، وان الشعب قبل ان يتحرر ، يجب ان يثبت انه جدير باستعمال هذه الحرية ، وان مستوى معيشته يجب ان لا يرتفع بصورة سريعة ، والا ارتبكت اموره وتعذر عليه تكييف نفسه ويمكن لنا ان نلخص هذه الحجج والاقوال في ان الاستغلال والمستوى الطيب للعيش ليسا حقا بل مكافأة يقدمها الاستاذ الى طلابه وفقـا لمزاجه وتمييزه .

ولم تكن هناك ذرة من الشك في ادمغة البريطانيين الذين اتخذوا هذا الموقف الابوي . واذا ما ارتضينا لانفسنا موقف الابوة هذا ، اي موقف الوالد الـذي

يعرف الاصلح بالنسبة لاولاده فان الشك الوحيد الذي يساور نفوسنا هوالخوف من ان يقوم هؤلاء الاولاد العاقون ، والعصاة بهدم البيت الذي سيعيشون فيه قبل ان يتم بناؤه ، او باحراق « طبخة الكعك » قبل ان تنضج . وفي صيف ١٩٥٨ كان هؤلاء الاباء الحنونون ، يعدون العدة لاجتماع دول حلف ميثاق بغداد ، لدراسة بعض الاوضاع الناشئة ، فقد ادركوا ان العراقيين غير راضين، ولكنهم – اي الاباء – كانوا واثقين من ان منافع هذا الحكم الرقيق – حكم نوري السعيد – قد بدأت تظهر ، وان الجميع سيرضون عما قليل . لكن القدر بيد الله ، فقد شاء ان يتم اجتماع دول الميثاق في ظروف غير التي كانوا يتوقعونها.

ويمكن القول ، ان تفاؤل البريطانيين كان جزئياً بعكس ثقة نوري السعيد وهذه الثقة نجمت عن قنوط خصومه ومعارضيه من ناحية وعن طبيعته الحمقاء من الناحية الاخرى ، فقد أراد ان يترجم للانكليز الذين يستشيرهم ، الفكرة القائلة بان الأعمال الانشائية التي تجري ولا سيما مشاريع مجلس الأعمار ، ستبدأ عما قريب في اظهار الفوائد والمنافع لجميع سكان البلاد . ولعلنا نجد لنوري السعيد الذي لم يكن مغرماً بالتعليم الجامعي بعض العذر في ارتكاب هذه الخطيئة بينما لا نجد للبريطان مثل هذا العذر ففي كتاب « توكفيل – العهد البائد » الذي يعتبر حجة في التاريخ السياسي ، يقول المؤلف ان خالقي الثورات ومؤيديهم ،يخرجون من صفوف الطبقات التي اخذ مستوى معيشتها في الارتفاع لا من الطبقة التي يعميها الفقر وتحط بها الحاجة . وكلما ازداد الناس شعوراً بالفائدة ، كلما شعروا بقدرتهم على تصريف شؤونهم بانفسهم وكلما علا شأنهم وارتفعوا ، كلما تنكروا للاشراف الابوي المفروض عليهم فكيف إذا كان هذا الاشراف تعوزه الكفاءة ومتحيزاً وقاسياً . ولعل نوري السعيد قد أدرك بطريقته الخاصة هذه النظرية ، ولكنه اجبر من قبل البريطان على السماح بدرجة من التطور . لقد أراد البريطان بعض الاصلاح ولكنهم كانوا يحتقرون الرأي العام العراقي في الوقت نفسه ويصفونه بالرعونة والطيش ، وهذا هو موقف المحافظين في كل مكان ، الذين يريدون من الآخرين الانتظار مدة أطول

ليروا منافع ما تم عمله لهم . ومن الناحية الاخرى فان النظرية الاستعمارية تقول باغداق الوعود عن المنافع المقبلة على الشعوب المحتلة ليأخذ المحتلون المنافع الفورية وإذا ما طبقنا هذه النظرية على وضع العراق نرى ان البريطانيين يقولون ان عائدات البترول التي يحصل عليها العراق ستضمن له المنافع والثروة في المستقبل ، بينما هي الآن عنصر هام للاقتصاد البريطاني . وكل من يرى في هذا القول مغالطة ونفاقاً لا يفهم الطبيعة المحافظة . وهذه الطبيعة أول ما تعنى بالاقناع الذاتي، وبان عمل الواجب قد تم ومن هنا ينبثق شعور الرضى والقناعة.

وفي الوقت نفسه ظهر نقد جديد متحرر لسياسة بريطانيا الرسمية وقد تردد صداه في لندن نفسها ، عندما تقدم به في مجلس العموم الجناح اليساري من حزب العمال ، يؤيدهم في ذلك المعتدلون من كافة الأحزاب وبعض المجلات الثقافية . اما غير ذوي الفكر والثقافة ، فلم يسهموا في هذا النقد ، لان الصحف اليومية التي يقرأونها ، كانت تعطي لهم صورة نقيضة عن الأوضاع في الشرق الأوسط تجعلهم جاهلين للحقيقة نفسها . ولم يكن عدد الموظفين المتحررين في وزارة الخارجية البريطانية الذين يحملون هذا الرأي من الكثرة بحيث يضمن لهم التأثير على السياسة التي تتبعها الوزارة في الاحوال العادية وكانت قوتهم تنحصر في ابداء الآراء للسلطة الحاكمة التي تجاهلت آراءهم . ومن الواضح ان القرارات التي اتخذتها وزارة الخارجية والتي تتخذها قد وضعت بعد درس ، وبعد بحث في الحلول البديلة .

وهذه الافكار المتحررة اتخذت اشكالاً شتى . ولكنها اتفقت جميعها على ان الحرية تؤخذ من الناس بانفسهم ، وان قدرة الناس على الوقوف على اقدامهم تتوقف على قيامهم هم دون اية مساعدة او عون . وترى هذه الآراء حق كل شعب في موارده على الفور ودون اية شروط او قيود ، تضعها الفرصة المناسبة . وفق كل ذلك ترى ان شرف بريطانيا يتطلب منها أن تعمل وفقاً للأخلاق وان تجري وراء مصلحتها ضمن الحدود الخلقية . وان ليس هناك من مبرر لتأييد الطغيان . فالحريات الكريمة بالنسبة للشعب البريطاني صالحة لغيره من الشعوب

وان قيمة الحضارة العربية ليست في خلق الابتكارات النافعة وتطبيق المثل والمبادىء في بلاد العرب فقط بل في تعميمها على جميع الأجواء والأنحاء . لقد أثرى الشعب البريطاني ومن ثم تعلم كيفية استخدام هذه الثروة ، ولقد تحرر الشعب البريطاني (ولم يأخذ الحرية دون كفاح) ومن ثم أظهر قدرته على استخدامها . وهذا ينطبق على الشعوب الاخرى ، فلا حرية بجانب العبودية .

لكن ذوي العقول المحافظة ، أخذوا يجمعون الاتهامات ضد هذه الآراء المتحررة فقالوا ان المتحررين لا يرغبون في رؤية القسوة والشدة ، وهما ضروريتان أحياناً ، وان المتحررين غير ناضجين فكرياً ، ولم يحاول المتحررون ، اجهاد أنفسهم في البرهنة على ان اتهامات المحافظين باطلة ، وانها تقوم على العاطفة . فالعاطفة هي التي ربطت بين شيوخ دولتنا وبين الملكية الهاشمية ، التي كانوا يشعرون نحوها ببعض الواجب . والعاطفة وحدها ، هي التي حببت حكامنا بالنظام القديم في الشرق وبما ينطوي عليه هذا النظام من قذارة الماضي والحيلولة دون تقدم التصنيع . واذا كان هناك حقاً من عاطفة في كراهية المتحررين للفظاعة والقسوة ، فهي عاطفة تقوم على شيء واقعي ، له قيمته واهميته ، أما العاطفة نحو الملكيات والشيوخ ، والمناظر المبهجة ، فهي عاطفة لا تستند إلى شيء ، انها ترتكز على السطح الذي ينهار اذا ما لمسته ، على شيء ما كان ليستطيع العيش اذا لم تتخذ جميع التدابير للابقاء على حياته المصطنعة .

هكذا كانت وجهتا النظر في الاوساط البريطانية كلتاهما يدافع عنها اصحابها باخلاص ، وان كان المنطق يحتم ان تكون احداهما على حق والاخرى باطلة . وكان لكل نظرية ما يؤيدها في المعلومات المتجمعة من العراق . فقد استندت النظرية المحافظة على تقاليد كتب السياحة إلى الشرق وهي الكتب التي تؤلف جزءاً رئيسياً من المرئيات الادبية والتاريخية لكل فكرة مركزة محترمة . ومن هذه المصادر كان كتاب جرترود بل ، وهي التي عرفت كثيراً في العراق باسم مس بل . اما خلفاؤها فكانوا من طراز آخر . وكانت الآنسة بل موظفة حكومية في بادىء الأمر ولكنها امتازت بقوة تقدير عقلية للعالم الذي سكنت

فيه ، فليس من الأكيد انها ظلت حتى النهاية تحتفظ بعقلية موظفي عهد الانتداب حتى بعد انتهائه . أما السائحون فيما بعد فقد فقدوا الاهتمام بآراء العرب وافكارهم عندما بدا يقيناً ان العرب شرعوا في تكوين آراء كالآخرين . وانحصر اهتمام هؤلاء السواح بالمناظر السطحية والمرئية والسخافات والأمور البراقة وغير المهمة . وهذا النوع من السائحين استغلهم نوري السعيد وأتباعه تمام الاستغلال . اما من الناحية الاخرى فقد وجد بعض الكتاب من الشبان الذين نشأوا بعد الحرب الأولى ، وهم الذين قدموا المعلومات التي تركزت عليها وجهة النظر المتحررة . وكان الميل الشائع لدى البريطانيين التقليديين ان يلقبوا هؤلاء الكتاب باعداء العراق . وقد نقل عن أحدهم قوله (لا أدري ايها العراقيون ماذا عملتم لمس وارنر حتى كرهتكم كل هذه الكراهية ؟) . وجاء هذا القول في معرض التعليق على كتابها « تطوير الأراضي واصلاحها في الشرق الأوسط » الذي طبعته المؤسسة الملكية للشؤون الدولية ، كما كانت هناك حملة متعمدة ترمي إلى تصوير كتب المستر ستيورت[1] بانها ضد مصلحة العراقيين . والمعنى هنا ان كلا المؤلفين كان ينتقد العهد البائد ، ومن الجدير بالملاحظة ان الذين انبروا للحملة عليهما هم من الانكليز .

واذا لم تكن مطلعا على اسرار وزارة الخارجية البريطانية فمن الصعب عليك ان تحكم على مدى الطغيان في العراق الذي كانت تعرف به الحكومة البريطانية وتتسامح تجاهه . فالمقيمون البريطان العاديون كانوا يعرفون الكثير ولعل المبرر الوحيد لرجال السفارة البريطانية هو انهم كانوا يشعرون بما يشعر به الاخرون من ابناء الجالية . فالعقاب لا يحل الا بالاشخاص الخطيرين وان حكامهم وعلى رأسهم نوري السعيد يعرفون احسن منا كيف يحافظون على النظام في بلادهم . وهذا التفكير الابوي « الحنون » وجد المبررات ايضا للمشانق التي نصبت علنا بالقول « ان الحكومة العراقية تعرف الاصلح لشعبها » . وما ينطبق على هذا ينطبق

---

(١) مؤلف كتب بابل الجديدة ، الانكليزي غير اللائق ، الثعبان في العشب .

على الاعتقال والسجن واطلاق النار ، فيقول المبررون : « حقا ان مثل هذه الاعمال لا تصلح لبريطانيا ولكنها قد تكون ضرورية هنا . انها ستحفظ السكينة والهدوء في هذه البلاد الى الوقت الذي يشعر فيه اهلها بالفوائد في المستقبل ، ولعل بعض ما وقع مؤسف ومؤلم ولكنه قد وقع ، فلنأمل في ان لا يتكرر وقوعه من جديد » . ومثل هذه التأكيدات كانت تهدىء وتطمئن الضمير المحافظ في جميع الاحوال والمناسبات . وفوق هذا كله فقد قبل الموظفون البريطانيون الذين اختلطوا بكبار رجال الدولة العراقيين تفسير نوري السعيد لما وقع وحديثه عن المعارضة واصفا اياها ، بانها قليلة العدد كثيرة الجعجعة .

ضمن هذا النطاق اقمنا سياسة حلف بغداد ، ومبدأ ايزنهاور ، وخلافات فرنسا وبريطانيا واميركا مع الدولتين اللتين اصبحتا فيما بعد الجمهورية العربية المتحدة . والغاية من حلف بغداد كانت ايجاد الطريقة المثلى للمحافظة ما امكن على علاقات بريطانيا القديمة بالدولة التي كانت منتدبة عليها . ولما كان من الواجب عدم تعقيد الامور بالنسبة للصديق نوري وعدم وضع العراقيل في طريق سيطرته واشرافه ، لا سيما وان شعور المقاومة قد اشتهر في العالم العربي فقد وجد من الافضل اخفاء الغاية من حلف بغداد في نطاق اوسع . اما اعمال الميثاق الاخرى فهي اقامة حلف مشابه لحلف الاطلنطي على الحدود الجنوبية لروسيا . وهذا يحصر نشاطها داخل حدودها طبقا لسياسة الحلفاء بعد انتهاء الحرب . وهكذا ضمن الحلف لبريطانيا المحافظة على مصالحها الاقتصادية وعلاقاتها التقليدية بالباكستان وايران والعراق ، وفرض هذه العلاقات على تركيا الدولة العضو في حلف الاطلنطي . ففي تركيا تلتقي المصالح البريطانية والامريكية وتركيا مدينة لتطورها للمساعدة الامريكية ولا سيما العسكرية منها . ولذا كان الطف تحقيقا لسياستها في تركيا . وعلى العموم حفظ حلف بغداد مركز بريطانيا في منطقة تعتبر تقليديا « منطقة نفوذها » وحد من خطر دخول امريكا الى المنطقة لتسلم المسؤولية منها ، وهكذا حققت بريطانيا في نصر دبلوماسي عظيم لها ، حصر روسيا وكبح جماح امريكا والحفاظ على علاقاتها باصدقائها القدامى . وكان

حلف بغداد تنفيذا جديدا لسياسة توازن القوى التي عرفها القرن التاسع عشر . والعيب الوحيد فيه ، وهو عيب جعل المشروع كله فيما بعد عديم الفائدة ، انه لقي في العراق كراهية عنيفة جاءت عن طريق تجاهل الرأي العام .

ومن المناسب ان ندرس هذا الحلف العسكري العظيم دراسة اكثر عمقا ودقة . انه يعكس جزئيا حلم بريطانيا القديم في الصداقة البريطانية الاسلامية ، وهو حلم رومانتيكي ، عرفت به الامبراطورية الهندية القديمة وتحدث عنه موظفوها السابقون . ولم يكن بين دول الميثاق الاربع من رابط سوى الاسلام ، اما من ناحية العنصر والمذهب والتقاليد . فليس من رابط يجمع هذه الدول الاربع اكثر من الروابط التي تجمع بريطانيا الى المانيا والى ايطاليا واليونان . وهكذا فقد كان الحلف تجميعا لاهداف الحكومات المشتركة ، لا لمشاعرها القومية . وكانت تركيا من الناحية العسكرية اقوى دول الميثاق ، وكانت في الوقت نفسه اشدها حماسا له . فبين دوله الاربع كانت تركيا العدو التقليدي لروسيا . ولربما كانت عداوتها وراثية اكثر منها عقائدية للشيوعية ، لكن الحقيقة الماثلة ، هي ان بريطانيا وتركيا كانتا اكثر حلفاء امريكا العديدين استقرارا وثباتا في داخل بلديهما وبالتالي صلاحا للحلف . والاتراك اكثر اهتماما بالحرب من البريطان فالنسبة الكبرى من ميزانيتهم تخصص للدفاع وهذا يجعل وضع المستهلك التركي من الناحية الاقتصادية مزعجا جدا . ومن العسير على تركيا ان تحرم شعبها من القهوة امداً طويلا ، لكنها حرمته منها فعلا ، كما من العسير على بريطانيا ان تحرم شعبها من الشاي مثلا . وفي حزيران عام ١٩٥٨ بلغت قيمة الدينار العراقي ٥٠ ليرة تركية بينما لا يتجاوز سعره الرسمي سبع ليرات فقط ولتركيا جيش عظيم ، وشعبها شجاع باسل ، وقد حارب جنودها في كوريا كما في تاريخهم الطويل بشجاعة منقطعة النظير . وهم يعيشون الان في ضنك وتقشف ليتمكنوا من محاربة الروس بشدة وقوة ، واني لافترض ان بامكان الاتراك الحاق بعض الخسائر بالروس اذا ما نشبت الحرب ، والصمود اياما اطول بل واسابيع ايضا اكثر مما كان في استطاعتهم ، لو لم يضيقوا على حياتهم الشخصية

في سبيل التحالف مع الغرب . وتركيا هي اكثر دول الحلف استعدادا ورغبة في الحرب . فما موقف الاخرين ؟ لم تكن الغاية قط ان يقف العراقيون او الايرانيون والباكستانيون امام الروس بقوة السلاح ، ولا يعود السبب في ذلك الى ان هذه الشعوب لا تحارب ببسالة اذا ما اشتركت في حرب ، بل الى انها لا تحارب مطلقا في معركة لا تؤمن بها . ومن الاكيد ان هذه الشعوب لن تتخلى عن اقتصادياتها للاشتراك في حرب لا تود الاشتراك فيها . وقديكون من السخف استخدام جيوش هذه الدول غير الراغبة في القتال الا كمضيفة لجيوش بريطانيا وحلفائها الغربيين. ويعرف خبراء الاستراتيجية جيدا كيف يمكن للجيوش ان تأخذ مواقعها بسرعة وسهولة في منطقة واسعة كهذه اذا ما نشبت الحرب اما في عهد السلام فمسألة قبول قوات اجنبية امر غير ذي موضوع .

وقد رؤي ان لا يكون الحصار المضروب على روسيا عسكرياً فحسب ، بل بوليسياً أيضاً فبلدان حلف بغداد تسيطر عليها حكومات همها مكافحة الشيوعية ، ومساعدة هذه الحكومات في مكافحتها آخر خدمة عامة تقدمها بريطانيا لهذه المنطقة . وقد لا يكون في حكم الكوارث بالنسبة للغرب أو قد يكون ، ان تصبح دول آسيا شيوعية ،ولكن الشعور السائد انها اذا صارت شيوعية أضحت هناك نهاية ، وانه اذا اصبحت واحدة منها كذلك ، فقد تمسي الاخريات وهذا ما يجب الحيلولة دون وقوعه باي ثمن . ومع ذلك فقد انعكست الثمرة المرجوة من حلف بغداد ، فالطريقة التي اتبعها الحلف في مكافحة الشيوعية كانت خير سبيل لانتشارها ، وقد أخذ الالوف من اهل آسيا لا يشعرون بالخطر الشيوعي. ولعل من حسن حظ البريطان ان لا يكون ما فعلوه مؤدياً الى اعتناق عدد كبير من الناس للشيوعية ، ولعل خير عون تطلبه الشيوعية هو اقامة دول بوليسية لا تفرق بين الشيوعيين الحقيقيين والثورات التحررية الشريفة .

ولا ينطبق هذا الايضاح على الميثاق العسكري ذي الاهمية العسكرية المحدودة فحسب بل على الموقف الرسمي لنوري السعيد ايضاً ، وعلى عقيدة المستويين التي أشرت اليها سابقاً . فنوري هو الرجل القوي الحكيم الذي في وسعه الحفاظ

على العراق سليماً حتى يزول خطر الشيوعية ، وهذا القول هو زبدة نظرية المستويين . فهناك مستويان للحرية ، لان العراق من ناحية عقائدية بلد في حالة حرب . فنحن في بريطانيا أيام الحروب نتنازل مؤقتاً عن حرياتنا لنحتفظ بها في النهاية . وهكذا في امكاننا ان نتوقع من العراقيين دون دجل او نفاق ، التنازل عن حرياتهم حتى يصبحوا أحراراً من التهديد الشيوعي ، وطبعاً هذا التبرير غير حقيقي ولا واقعي فنحن في الدرجة الاولى لا نطلب من العراقيين التخلي عن حريتهم ، وإنما نأمر ونضطهد أو نساعد على الاضطهاد على الأقل ، ونوري يسلبهم هذه الحرية رغماً عن ارادتهم . وفي الدرجة الثانية ، ان الفكرة القائلة بان ثروة البلاد في ازدياد وان الجميع سينتفعون منها ، وان خطر الشيوعية سيزول ، كلها سراب في سراب ، لانها تتجاهل الاحتمال بان نفس الاشخاص الذين يتولون زمام الحكم بمهارة في العراق ويجمعون في ايديهم السلطة، لن يسمحوا مطلقاً ، بانتقال ثروة البلاد المتزايدة الى ايد غير ايديهم ، كما لن يتساهلوا في منح الحرية في أية مرحلة . وتتطلب مصلحتهم الذاتية ابقاء الفقراء على فقرهم ، كما ان ليس من مصلحة شيوخ القبائل الذين يملأون البرلمان ، مثلاً ، ايجاد الجمعيات التعاونية التي قد تهدد مراكزهم انفسهم والتي قد تبرهن إن عاجلا أو آجلا على فساد نظام الملكيات الكبيرة،فتحديد الملكيات الصناعية والزراعية يزيد في ثروة المجموع لكن الشيوخ يملكون اكثر مما يحتاجون اليه ، وهم يرون في كل ما يرفع مستوى الفلاحين مصدر تهديد لسلطاتهم.

والظاهر ان الفئة الحاكمة لن تسمح بانتفاع الجميع من الثروة او بالتعبير عن النقد السياسي فالفساد اولاً يتغذى على الفساد . والمال الموجود المجموع عن طريقه لا يمكن ان يتحول الى ثروة نافعة لان طبيعته تتطلب اساءة استخدامه ، والرجال الذين يبدون استعدادهم للعمل مقابل الرشوة لا يمكن لهم – ثانياً – ان يعملوا على رفع مستوى شعبهم لانهم ليسوا اكفاء لمثل هذا العمل. ولا ريب في ان المدى الذي وصل اليه مجلس الأعمار في عمله ، كان طيباً ، لكن المشكلة هي انه لم يستطع ان يصل الى أبعد من هذا المدى وهناك من الدلائل ما يشير الى ان

نوري السعيد لم يرغب في ان يمضي المجلس في عمله والى ان انصاره من الحاكمين لم يكونوا راغبين بزيادة الثروة الحقيقية ، بالاضافة الى ان عدد الرجال الاكفاء الذين يرغبون في خدمة نظام فاسد ليس بالكبير . والرجال الذين قد يعتمد عليهم الحاكم في فرض نظام بوليسي ويجزل لهم العطاء عن طريق الفساد ليسوا من النوع الذي يتوقع المرء منهم ان يرسوا قواعد الدولة المنتعشة الناجحة .

ومع ذلك فقد توقعنا نحن البريطانيين والامريكان من هؤلاء العمل النافع كا أيدنا ، الفكرة القائلة بأن هذا العهد المكروه قد يوصل المنافع الى جماهير الشعب فنتوقف عن النقد والتجريح . ومن الحق ان الدولة قد اشترت بعض نقادها فضمتهم الى فئة المنتفعين بالفساد وتوقف تبعاً لذلك نقدهم ، بعد ان دفع العهد ثمن هذا النقد ، لكن الموضوع هنا لا يتناول الافراد بل الشعب كله ، والخطر على عهد نوري السعيد يقوم في ارتفاع المستويات لا الاقتصادية فحسب بل والثقافية والصحية ايضاً . فكلما ارتفع مستوى الشعب واتسعت مداركه ، كلما ازدادت قدرته على النقد . والشعور بالكراهية السائد في المدن سيسود الارياف والقرى ايضاً . ولا ريب في ان نوري السعيد كان يدرك كل هذا ، ومع ذلك فقد سمح ببعض التطور ورفع المستوى برغم عدم ايمانه بحكمة هذا السماح لقد فضل نوري السعيد الايمان بالقضاء والقدر .

ويوصلنا هذا الحديث الى موضوع أصدقاء بريطانيا وأصدقاء أمريكا ايضاً فمن واجبنا التأكيد هنا بأن هذه الصداقات كانت احلافاً ذات منافع متبادلة فقد عمل هؤلاء الاصدقاء على المحافظة على العلاقات التقليدية بين العراق وبريطانيا وفي مقابل ذلك قدمت بريطانيا لهم المساعدة السياسية والمشورة ، وقد تكون هذه المساعدة أكثر فعالية وان كانت اقل خلقاً لو اقتصرت على العون العسكري وحافظت على بقاء الشعب في دوامة الفقر والارهاب لكن بريطانيا فضلت ان تخلط بين الخلق والمصلحة ، جاعلة اعمالها بعيدة عن الاخلاق وبعيدة عن المصلحة وهكذا وجد عملاء بريطانيا انفسهم امام معضلة عاملين مختلفين متناقضين فما داموا قد ربطوا مصيرهم بقضية الغرب ، فقد ارتبطوا تبعاً لذلك بنظام الفساد الذي باعوا انفسهم له ، فنظام الارهاب الذي فرضوه وفي الوقت نفسه وجدوا ان

من الضروري القيام ببعض الاصلاح غير الجدي ارضاءً لضمائر اصدقائهم الانكليز والامريكان فمن ناحيتهم كان من العسير على غالبيتهم الوصول الى الحكم دون موافقة الانكليز وكثيراً ما استعملوا اسم بريطانيا لتبرير ما يعملون وما لايدون تحمل مسؤوليته . وبين هؤلاء نذكر افراد الاسرة المالكة المدينة لبريطانيا باربعين سنة من استغلال البلاد وبصورة خاصة عبدالاله المدين لبريطانيا بالسنوات التسع عشرة الاخيرة من حياته . وفي الحقيقة لم يكن هناك من دين ، من اي طرف وانما مساومة تجارية اكثر منها صداقة مجردة .

فأي نوع من الناس كان هؤلاء الاصدقاء ؟ اولاً وقبل كل شيء كانوا موسومين بالفساد . رجال اثرياء يعيشون في بذخ وترف . والقلائل في الحكم الذين لم يكونوا من المرتشين الفاسدين ، والذين لم تتضخم ثروتهم بصورة مفاجئة . كانوا يعتزون بالاحتفاظ باستقلالهم في التفكير واتخاذ القرارات . اما الغالبية فكانوا يقضون شهور الصيف القائظة في اوروبا او في امريكا ، وكان هؤلاء اقرب الى الصفة العالمية منهم الى الطبيعة العراقية وقد وجد البريطان في نوري السعيد صديقاً على جانب كبير من القدرة والكفاءة ، اعترف له بذلك حتى اعداؤه واحترموه تبعاً لذلك ، بينما كان وزراؤه أقرب الى الاشباح منهم الى المساعدين . اما الامريكيون فكانوا يبنون من فاضل الجمالي كخليفة لنوري او كمرشح آخر ينافسه وكان المذكور صورة كاريكاتورية معبرة عما يعتقده الامريكان في المشاكل الدولية .

وقد قبلت بريطانيا اصدقاءها من « توابع » نوري السعيد دون ان يكون لها يد في اختيارهم وامتازت السياسة البريطانية بالحكمة في عدم التصلب والعناد ، والاستعداد لقبول الأشياء على علاتها . اما الامريكان فيفضلون اتخاذ اصدقائهم من الفئة التي تؤمن بما يؤمنون وتفكر كما يفكرون وهذه الفكرة تبدو خالية من تضليل الفكرة البريطانية ومنطوية على الخداع النفسي . فاهتمام الامريكان منصب بشدة على ما يسمونه « بطريقتهم في الحياة » ويشعرون بالألم لكل خروج على هذه الطريقة من اصدقائهم ومع ذلك فقد شجعوا الساسة العراقيين على اتخاذ مواقف « امريكية » في الظاهر وخادمة لمصالح امريكا في التعبير في الوقت

الذي تناقض فيه طريقة العرب في الحياة . ولو كان الدكتور الجمالي مخلصاً لامريكا
لما كان في امكانه ان يكون مخلصاً للعرب . وهكذا خلط الجمالي بين ولائه
لامريكا وولائه للعرب ، فقد رأى له ثلاثة اعداء هم الصهيونية والشيوعية
والناصرية وكان العدد الاول ، الشيء الوحيد الذي يشترك فيه مع العرب
الآخرين ، اما عداؤه للشيوعيين فشبيه بعداء الامريكيين لهم لكن عداؤه
للناصرية تجاوز الحدود إلى الدرجة التي يتعذر فيها على المرء ان يفهم ما يعنيه
بهذا الاصطلاح . وكانت جريدته العمل ، مبذرة ومتلافة في تعابيرها حتى ان
بعض عناوينها العريضة كانت تخلو كثيراً من المعنى . وعندما هاجم بعنف
الوحدة بين مصر وسوريا كحقيقة غير تاريخية ، ذكر العراقيون ثماني اوقات
في التاريخ اتحدت فيها مصر وسوريا بينما لم يذكروا سوى عهدين اتحد فيهما
العراق وسوريا . ومع ذلك فان عداواته الثلاث كانت مرتبطة ببعضها ولا
ريب في ان كراهيته للناصرية انما قامت على أساس رفض عبدالناصر اتباع السياسة
التي اختارها الجمالي وهي التحالف المطلق مع الغرب . ومن الجائز القول ، بان
موقفه مع عدم اتزانه كان منسجماً في تفكيره مع ولائه للغرب ، لكن الشيء
الذي لا يفهم ، هو كيف عجز الامريكيون عن تقدير ان ما يطلبونه منه من
ولاء لهم ، لا يمكن أن يعتبر خيانة في نظر العرب .

ويبدو ان العداء للناصرية كان نوعاً من المرض اصيبت بريطانيا منه بنوبة
شديدة في زمن العدوان على قناة السويس ونقلت اصابتها إلى الامريكان الذين
كانوا في ذلك التاريخ في حالة مناهضة للروح الاستعمارية . أما حقيقة الاعتراض
على الناصرية فيصعب تحديدها وتقريرها . ففي لندن عام ١٩٥٦ قيل ان ناصر ،
هتلر ثان وانه يجب أن يذهب ، وكانت التأكيدات التي يقذف بها المسؤولون
واحدة اثر اخرى خلال حملة السويس لا تجد اي قبول لدى النقاد مهما كانت
جنسيتهم ولا تجد بالتالي اي معنى لدى العرب انفسهم . ولم يرَ العربي في هذه
الحملات المغرضة المتحاملة الا ما يجده الانكليز في تعابير « الافاعي والاذناب »
التي تحدثت عنها فيما سلف . وكانت نقطة التشابه الوحيدة مع النازية هي
« دولة » الحزب الواحد ولكن بين حليفاتنا الكثيرات من دول الحزب الواحد ،

كالبرتغال ، وفرموزا وكوريا الجنوبية والعراق ايضاً . فهذا ليس بالسبب اذن ،
وهناك ناحية شبه اخرى وهي رغبة عبدالناصر في توحيد العرب كما رغب هتلر
في توحيد الالمان ولكن ليس من حقنا أن نعارض في الوحدة ، لان هتلر أراد
الوحدة إلا بالقدر الذي يمتنع منه عن أكل البطاطا (لان هتلر كان يأكلها) ، وقد
زعموا ان معارضة ناصر لحلف بغداد انبثقت عن طموحه الشخصي . (ويتهم
ناصر أيضاً بوجود مطامع عدوانية لديه في افريقيا ولكن هذه الاتهامات
لا يمكن لنا البرهنة على صحتها او بطلانها الا اذا حاولنا اقامة علاقات ودية
مخلصة معه) . ومن التعبيرات البريطانية الرسمية ايضاً « محاولة ناصر ليتسلم
الزعامة في الشرق الاوسط تدعمه في ذلك روسيا » وهنا مكمن الضعف في قضية
الغرب ودعواهم للاسباب التالية : اولاً انها تعني ان الزعامة التي ينشدها معظم
العرب والتي سينشدونها لو لم يوجد ناصر منبثقة من الطموح الشخصي . وثانياً
انها تلوم ناصر على العون الذي لقيه من روسيا مع انه في الحقيقة كان يستغل
العزلة التي فرضتها بريطانيا على مصر والتي تحاول المحافظة عليها . وهم يزعمون
في لندن ان ناصر خلق الشعور العربي بينما الحقيقة هي ان الشعور العربي قد
خلق ناصر . ومع ذلك فان الزعم بوجود مطامع توسعية لعبدالناصر سيظل
الحجر الأساسي في كل هجوم عليه مع افتقار هذا الزعم لاي دليل ملموس يؤيده
وهذا ما يبدو في جميع صحفنا التي تهاجم عبدالناصر . ويبدو لي ان العداء
للناصرية ينبثق من كراهيتنا لسياسة الحياد التي اختارها ناصر والتي سأتحدث
عنها في فصل لاحق ومن سخطنا على عدم وقوفه إلى جانبنا . فناصر يجب ان
لا نثق به لانه لا يثق بنا .

وهناك ميل عام في الغرب الى تسمية الدول التي تقبل المساعدات الغربية
بدول العالم الحر . ويقول بعض الناس ان هناك حكومات فاسدة تفتقر الى
التأييد الشعبي في مختلف أنحاء العالم تعيش على المساعدة الامريكية طبقاً لهذه
التسمية ، وهذا التعبير – أي العالم الحر – لا يشمل الجمهورية العربية المتحدة
وإنما يشمل الحكومة اللبنانية السالفة المفتقرة الى التأييد الشعبي وهي الحكومة
التي كانت ربيبة امريكا وبريطانيا والتي لم تستطع مساعدات هاتين الدولتين بما

في ضمنها نزول القوات الامريكية لانقاذها من المصير المحتوم . ومن الواضح ان هذا التعبير لا يساعد الغرب على اقامة صداقة فعالة مع العرب وكان قبل ثورة العراق حائلاً ايجابياً في طريق هذه الصداقة .

ولمدة سنوات عدة قد تصل العشرة كان عبد الاله يخطط للوصول الى عرش سوريا وهو العرش الذي لا وجود له ، ولو نجح عبد الاله في مشاريعه لاقيمت دولة هاشمية في سوريا الكبرى والهلال الخصيب ، وفي لبنان حاول الرئيس الذي انتهت مدته عام ١٩٥٨ تغيير الدستور لتمكينه من تجديد رئاسته ، بعد ان اعتقد ان في مكنته تأمين هذا التجديد. ولم يستطع شمعون المكروه لاعتناقه لمبدأ ايزنهاور ، وانفصاله عن بقية أجزاء العالم العربي كما انفصل عراق نوري السعيد، ان يتجاهل الاساليب الديموقراطية كما عمل عبد الاله في العراق . وليس من همي هنا ان اتحدث عن الدور الذي قام به البريطانيون والامريكان في تأييد مشاريع عبد الاله لخلق عرش له في سوريا ، لكن المؤكد ان كلتا الدولتين ما كانت لتعارض في مثل هذه المحاولة أو تشك فيها ، ومع ان بعض الوثائق قد ظهرت في محاكمات بغداد إلا ان الصورة الحقيقية ما زالت غامضة . وليس في الامكان معرفة مدى نجاح المؤامرة التي كانت تعد في صيف عام ١٩٥٨ لكن المؤكد ان كلاً من نوري السعيد والجمالي كانا يتحدثان في الاسابيع القليلة التي سبقت الثورة والتي سبقت الاجتماع المقترح لحلف بغداد عن التدخل في لبنان لمصلحة شمعون . وقبل ايام قليلة من الثورة، صدرت الأوامر الى القوات العراقية بالتوجه الى الاردن الذي لا يملك حدوداً مشتركة مع لبنان . فليس من الغريب والحالة هذه اذا ما اعتقد كثير من العراقيين ان القصد من ارسال هذه القوات كان التدخل في سوريا ولبنان لدعم الرئيس شمعون وتمزيق الجمهورية العربية المتحدة لكن الشيء الذي لا يصدقه أحد هو ان نوري السعيد خيل اليه ان جنوده سيوافقون على القيام بحرب كهذه .

وهكذا من جراء حلف بغداد ومبدأ ايزنهاور ومطامع عبد الاله نشأت الأوضاع التي أدت مباشرة الى قيام ثورة العراق في ١٤ تموز عام ١٩٥٨ .

الباب الثالث

الثورة تعبير عن الرأي العام

مذكرة ايضاحية عن الباب الثالث

ليس القصد من هذا الباب سرد تاريخ الثورة او طبع ما رآه شاهد عيان في ايامها الاولى . ومع اني اكتب ما رأيت بنفسي وعرفتــه ، الا ان فهمي ليس تسلسل الاحداث ، انما غرضي ان اظهر ارتباط الثورة بالاراء التي سردتهـا في السابق . وكل ما كان يقال في الماضي سراً وبهدوءاصبح في الرابـع عشر من تموز ينشر ويطبع وجميع هذه الاقوال تستهدف بيان اغراض ثورة الشعب ونتائجها. وقد تتطور الثورة على نفس الخطوط العريضة التي وضعت منذ سنوات عندمـا تبلور الرأي العام العراقي او قد تنحرف وتتبدل وفقا لضغط الظروف المتبدلة والاحداث الجديدة على اراء العراقيين والعرب السياسية ، ومهما حدث فستظل ثورة تموز ثمرة الاراء التي اخترنا تجاهلها .

الفصل السادس

تدمير العهد البائد

(وهكذا اثار كراهية جميع الطبقات تقريباً ولا سيما الجيش سيوتونيوس – غالبا . ص ١٦)

كانت وثبة العراق ثورة الشعب عامة لا مجرد انقلاب عسكري ومع ان الشعب كان مع الجيش في ثورته، الا ان الطريقة التي يلجأ اليها الجيش غير الطرق التي يتبعها الشعب ، انهما يحملان فكرة واحدة ، ولكن لكل منهما دوره في الأحداث ، وعلى الرغم من ان الشعب كله قد قام بالثورة الا ان الجيش هو الذي حركها . وما ذكره سيوتونيوس عن غالبا ، لا ينطبق بدقة على نوري السعيد حقاً ان جميع الطبقات تقريباً قد كرهته ولكن الجيش لم يمقته اكثر من الطبقات الاخرى وانما كان اكثر تصميماً في كراهيته . وفي الاشهر التي سبقت الثورة بدا رجال العراق ونساؤه اكثر معارضة للعهد من اي وقت مضى ولكنهم بدوا في الوقت نفسه اكثر يأساً من امكان اصلاحه او تغييره .

ومن المؤكد ان حكام البلاد كانوا واثقين من انفسهم فعبد الاله والملك قضيا ليلة الصفر في قصرهما وقيل ان الملك ، قد ذهب الى فراشه مبكراً لانه كان يشعر بوعكة وكان الاثنان ينتظران الطيران في صبيحة الغد الى تركيا لحضور اجتماع حلف بغـــداد حيث سيدرس المجتمعون حتماً احتمال التدخل المسلح في لبنان ، وكان العرب غاضبين والمراقبون المحايدون الاجانب فزعين مما قد يتخذ

في ذلك الاجتماع من قرارات ، وكان الملك وعبد الاله يعلمان طبعاً ان قوات
عسكرية ستمر في الليل ببغداد في طريقها الى الاردن ولكنهما لم يتصوروا ان
خطر ارسال هذه القوات لمحاربة الجمهورية العربية المتحدة سيرغم الجنود على
اتخاذ القرار العاجل . وهذا وحده كاف لاظهار فشل الاسرة المالكة لا في
المساهمة بل وحتى في فهم مشاعر الشعب الذي يحكمونه وقيل فيما بعد ان نوري
السعيد قد حذر العائلة المالكة بصورة عامة من البقاء في القصر الملكي في الليل ،
عندما تمر القوات العسكرية بالمدينة ولكن هذه الرواية ، ان صحت ، فلا تعني
شيئاً إذ ان نوري السعيد نفسه لم يتخذ الحيطة التي اشار بها وظل في بيته الذي
يبعد قليلا عن القصر باتجاه ضفة النهر . لقد كانت ثقة نوري لا حدود لها . ولقد
بدأ في التحدث بصراحة عن التدخل في لبنان ، بشكل يعارض فيه مشاعر
جميع افراد المجتمع العربي ، بينما كان في الماضي يترك مثل هذه الحماقات الى
فاضل الجمالي ، عاملا هو في الوقت نفسه عكس ما يقول . أما الآن فقد استهزأ
نوري بالخطر ، وانتزع من فكره أي تقدير للمعارضة التي لا تشمل في نظره إلا
بضع مئات من الطلاب التافهين . ولقد قيل ، ان مدير الامن العام تحدث اليه
بالهاتف في المساء وفي الليل أيضاً ، ليقول ان هناك شيئاً ما في حركات الجنود
ولكن نوري تجاهل هذه التحذيرات . وعندما تحدث هذا الرجل بالهاتف للمرة
الثالثة ، ابلغ نوري ان القصر قد أصبح مطوقاً . واذا صحت هذه الرواية فان
مدير الأمن العام قد برهن على عجزه ، إذ لم يحاول استنفار رجاله واعدادهم .

ولم يعرف صغار الضباط بما قد تقرر إلا في الليل ولكنهم في ساعات الصباح
الباكر كانوا يأخذون مراكزهم بروح طيبة مستنفرين اصدقاءهم من المدنيين
للمجيء معهم . اما قادة الثورة فقد شغلتهم امور أهم وأخطر ، انهم لم يكونوا
من الرجال الطموحين بل كانوا يشعرون بواجبهم كل الشعور ، ويحسون بالفرض
الموضوع عليهم ، كالفئة الوحيدة من الشعب التي في وسعها ان تعمل بعد ان عم
اليأس والقنوط جميع فئات الشعب الاخرى من المدنيين . وكغيرهم من العراقيين
آمن هؤلاء القادة بوجود الاصلاح الاجتماعي ، وبالقومية العربية وبرسالة جمال

عبد الناصر . وكانت رسالتهم ان يواصلوا ما قام به . وكان على رأس الحركة
قائدا لوائين أولهما عبد الكريم قاسم،وهو رجل مفكر متأني ، له هيئة الاساتذة
بمثاليتهم . وثانيهما عبد السلام عارف ، شخص ذو حيوية ، خطيب متحمس ،
بسيط النزعة ، شديد الولاء ، لا أثر للغش فيه متمسك بعقيدته ، وقليل المكر،
سيطرت عليه فكرة التحرر ، وهو في الوقت نفسه صديق قاسم وحليفه
ومرؤوسه . وقد ادرك كلا الرجلين المخاطر التي تهدد أية خطة للثورة . فقد
كان الخوف من نوري السعيد يسيطر على جميع العراقيين ، حتى ان بعض اصدقاء
القائدين، لم يجرؤوا على اعلان ولائهم للثورة إلا بعد ان تأكدوا من موت الرجل
ولو عاش نوري في عصر آخر كعصر الامبراطور جوستينيان ، لاعتقد الناس
فيه مناعة خفية وغير طبيعية ضد كل شيء . ولم يكن لدى الجيش في الساعات
الاولى من الليل كميات كافية من الذخيرة لمهاجمة القصر بصورة فعالة سوى تلك
التي اختزنها قاسم ووفرها في المناورات . ولكنني سمعت فيما بعد ان قادة
الثورة ، خططوا وجوب احتلال معسكرات الشرطة في البداية مع المراكز
التي كان من اللازم احتلالها كالاذاعة مثلا ، لحل فصائل الشرطة التي كان معظم
ضباطها من الموالين للعهد البائد ، وللاستيلاء على ما لديها من ذخيرة .

ويبدو ان الاستعداد للثورة كان دقيقاً ويتم بصورة سرية . ولم يتحدث قاسم
في المؤتمر الصحفي الذي عقده بعد عشرة أيام من الثورة الا القليل عن هذا
الاستعداد ، فشرح كيف انه في السنوات الاخيرة الثلاث ، كان يتحدث بما
في ضميره إلى الضباط بعد ان يمروا في تجربة دقيقة للتثبت من اخلاصهم ، يحالفه
في ذلك صديقه عبدالسلام ومن ثم وضع الخطة ، اما الفرصة فلا يمكن خلقها
وانما يجب اهتبالها عندما تقع . وقد توجه بالشكر الى الله ، لان هذه الفرصة
قد وقعت أخيراً في داخل . الجيش كان على قادة الثورة مواجهة شبكات تجسس
العهد البائد ، وعيونه وارصاده . وفي الوقت الذي كان قاسم يسار الضباط
الذين يثق بهم ،كان عليه ان يقنع عبدالاله ونوري، باخلاصه لعهدهما. ويتحدث
الكثيرون من الضباط كيف كان قاسم يثور ويغضب عندما يرى أحد ضباطه ،

يوجه أبرة المذياع إلى اذاعة القاهرة للاستماع اليها ، وذلك ليخدع العيون وليخدع نوري السعيد الذي كان يعرف جميع الضباط معرفة شخصية ، ويعامل كبارهم، على أساس من الصداقة والمعرفة الشخصية . وقد أدرك قادة الثورة ان الفرصة قد حلت ، وانه في تمام الساعة السادسة صباحاً سيعرفون ما إذا كانت الثورة قد نجحت . وحقاً لم تجىء هذه الساعة حتى كانت الثورة تسيطر على جميع مراكز السلطة . وقيل ان الاتفاق قد تم بين قاسم وعارف ، على ان يقتله اذا فشلت الثورة ، اظهاراً لولائه للعهد البائد ، وانتظاراً للفرصة الثانية وهذا يبرهن على ان الثورة لم تكن حادثاً عرضياً وانما ثمرة احساس عميق الجذور والتصميم ، لا يؤثر عليه اي فشل مؤقت فيضيعه او يزيله من الوجود .

وتم في الساعة السادسة احتلال كل مركز حساس في العاصمة كما تم تسريح رجال الشرطة ونزع السلاح منهم وتطويق القصر الملكي وبيت نوري السعيد وإن كان الاخير قد فر منه كما سنرى فيما بعد عن طريق النهر ، وعندما نزلت الجماهير الى الشارع . رأت الشوارع وخطوط السكك الحديدية ، ملأى بالجنود الصامتين ، وأعلنت اذاعة بغداد عطلة عامة في البلاد ، وباستثناء فرار نوري السعيد ، فقد حالف الحظ الكامل، العملية كلها ، وتوطدت أقدام الثورة وشعر معظم الضباط كما تحدثوا الى اصدقائهم فيما بعد ان الله كان معهم في تلك الليلة .

ولقد زعمت الجماهير فيما بعد انها هي التي جعلت الثورة أمراً ممكناً . لكن الجدال حول هذه النقطة غير مثمر . فكل من كان في استطاعته عرقلة الثورة ، ولم يعرقلها يكون قد ساعدها . ولكن الجيش وحده هو الذي عمل ، ولولاه لما كان هناك عمل . إذ لم تكن هناك قوة اخرى تستطيع ان تقاوم ما لدى نوري السعيد من وسائل القوة والبطش ، لا سيما وان رجال الشرطة ، لم يكونوا من ذوي العقائد ، ففي الماضي كثيراً ما فشلت اضطرابات المدنيين ومظاهراتهم ، وحروبهم في الشوارع ، ولم يجد الجيش الفرصة التي يريدها . فاحتياطات نوري السعيد كانت أكبر من أي وقت مضى . ومع ذلك فان الجمهور قد لعب دوراً بارزاً وان كان بصورة غير مباشرة. إذ اعتقد نوري ان عدداً من الطلاب

وفئة قليلة من الآخرين يعارضون حكمه وشخصه والعائلة المالكة فحشد جميع وسائل ارهابه ضدهم بيننا في الحق ان المشاعر التي دفعت الجيش الى الحركة ، هي التي سادت الشعب كله . ولو لم تكن هناك ارادة شعبية اجماعية يحس بها الجيش كجزء من الشعب لادت أية ثورة عسكرية الى حرب اهلية بين السياسيين الفاسدين المتنافسين عن طريق استغلالهم لطيبة نوايا قادة الجيش . ولحسن الحظ، لم يكن الوضع كذلك ، فقد عرف قاسم انه سيحظى بتأييد الشعب اذ رأى هذا التأييد في احساسهم وقرأه في عيونهم ، وكان دور الشعب في الترحيب بالثورة والحماس لها .

ولم تحل الساعة الثامنة صباحاً حتى كانت العاصمة قد استيقظت كلية . ويبدأ العمل اليومي عادة قبل هذه الساعة لكن الناس احتاجوا الى بعض الوقت ليتأكدوا من ان مخاوفهم القديمة قد انتهت ذلك الصباح . فالعهد الكريه قد انهار كفقاعة الصابون . وليس هناك من شرطة تفرق الاجتماعات وتقوم بالاعتقالات إذ أعلن الراديو موت عبد الاله واتحاد الجيش والشعب في جمهورية جديدة ولم تفتح دوائر الحكومة أبوابها ذلك اليوم إذ ان العطلة العامة قد اعلنت وترك الناس متاجرهم واحتشدوا في الطرقات والساحات والشوارع الرئيسية ، وأخذت جماعات صغيرة من الناس تركض وتتجول حاملة اعلاماً خضراء ، أو ما يشابهها . أو غصوناً قطعوها من الأشجار والكل يهتف ويصفق ويضحك . وركب البعض السيارات ، يحملون صور جمال عبد الناصر ويهتفون « ليسقط نوري السعيد » أما في الشوارع الكبيرة حيث توجد المصانع والمعامل والشركات الكبيرة فقد احتشدت الجماهير الغفيرة ، في مظاهرات تعم الشبان ، والأطفال والرجال ، يحمل بعضهم أعلاماً ارتفعت عليها شعارات كتبت بسرعة ويهتفون « يعيش الجيش » أو هتافات اخرى كقولهم « نوري القندرة (الحذاء) وعبدالاله قيطانة » والسرور يعم الوجوه جميعها . ولم تحل الساعة الواحدة حتى كان منع التجول قد أعلن ، وكان على هذه الجماهير ان تتفرق الى بيوتها . وقد حمل أصحاب العائلات حاجياتهم من الخبز والمواد الغذائية الاخرى التي ابتاعوها من

الأفران والمخازن في انتظار ساعات منع التجول . وقد فرض منع التجول ، لان بعض الجماهير في اماكن أخرى غير التي رأيتها كانت أقل رقة ولطفاً وسنبحث فيما قاموا به بعناية ، لان هذه الأعمال قد بولغ بها فيما نشرته صحف الغرب عنها .

وهكذا هتف الشعب لعمل الجيش هتافاً اجماعياً وقلبياً ، وقد يبدو امراً غير ضروري تأكيد وحدة الجيش والشعب اذ ليس هناك داع يحمل رجال الجيش على ان يشعروا شعوراً يخالف احساس بقية الشعب فالجنود كغيرهم من الناس لهم نفس الآراء ونفس الأحاسيس . وفي العراق ، تبدو فروق الثقافة أقل منها في انكلترا وان لهم نفس التفكير لقد سمعوا بفظائع العهد وشعروا بان اولادهم غير ناجين من الاشتباه والعقوبة وحتى من نيران المدافع الرشاشة ، ورجال البوليس ، وعرفوا ايضاً ان أقل اشتباه فيهم يعرض حياتهم للدمار وحريتهم للضياع فالعهد البائد لم يكن على استعداد للمجازفة بكيانه وأمنه ، وفي سبيل اعطاء الامتياز لفئة من الضباط الذين على عكس ، كانوا موضع الشبهات اكثر من غيرهم . وكان كبار الضباط شأنهم شأن قادتهم . يظهرون ان اهتمامهم مقصور على وظائفهم وواجباتهم وكان نوري السعيد ، اعتقاداً منه بان لكل رجل ثمنه ، قد عني بزيادة رواتبهم وتأمين المعيشة الهانئة لهم . وكان هؤلاء يبدون ، له عدم الاهتمام بالسياسة . ولم يخطر في باله قط ان هؤلاء الضباط يشاطرون الشعب اراءه وهي الآراء التي كان نوري السعيد لا يقدرها حق قدرها ولا يؤمن بذيوعها وانتشارها . وكان معظم هؤلاء الضباط من الرجال الذين يحبون بيوتهم جلهم في بداية الكهولة او نهاية الشباب ملذاتهم محدودة ولهم عائلات كبيرة كل همهم اسعادها . لكنهم كانوا يشاطرون نظراءهم في الحياة المدنية نفس الآراء والأفكار . فهم يؤمنون بالوحدة العربية والاصلاح والاتحاد مع مصر ولم يكن منهم الشيوعي مطلقاً ولكنهم جميعاً يحتقرون الفساد والرشاوى . ورسالة عبدالناصر في الاعتماد على النفس والوقوف على القدمين كانت تستهوي العسكريين استهواء أشد من استهوائها للمدنيين . فالضباط

كغيرهم من ذوي المهن كالمحامين والأساتذة والاطباء ، يشعرون نفس الشعور ويتأثرون بنفس الأحاسيس . وكان الفرق الوحيد هو ان لدى الجيش الوسائل لاحداث التغيير .

ولن أضيع وقتي ووقت القراء في النقد الذي وجه إلى الضباط لان هذا النقد لم يوجه من أي شخص عانى هو نفسه من الإرهاب السياسي، وهذا النقد يتلخص في ان الضباط كانوا مخادعين ، لانهم أخفوا آراءهم الحقيقية عن الوزراء الذين يثقون فيهم . واذا ما فكرنا قليلاً في هذا النقد تبين لنا بطلانه ووضحت سخافته ، فقليل من الناس من يجازف بعمله وحتى بحياته في سبيل التعبير علناً عما يشعر به . لكن صلابة هؤلاء الضباط تتجلى في اخفائهم معتقداتهم هذه المدة الطويلة .

ولقد اعطى الضباط البريطانيون الذين عملوا مع الجيش العربي الاردني صورة خاطئة وكاذبة عن الجيوش العربية سواء من المعلومات التي سردوها ، او الانطباعات التي تركوها . فهناك ضابط سابق من « الهوسار » اختاره الحزب الذي ينتمي اليه لاحتلال المقعد النيابي عن دائرة مضمونة مما يشير الى نبوغه ومكانته الفكرية ، كتب مرة في احدى المجلات الانكليزية محاولاً ايضاح القلق المستحوذ على الشرق الأوسط عن طريق الحط من قيمة الضباط العرب . وقد أعرب هنا الضابط عن أسفه لاخراج الضباط البريطانيين من الجيش العربي قائلاً ان الافتقار إلى الرجال الاكفاء المخلصين ، جعل من الاجرام التفكير بان الأمراء العرب التعساء في امكانهم أن يعيشوا ، وان يحافظوا على النظام في بلادهم لان من تبقى لديهم من الضباط بعد اخراج البريطانيين لا يتعدون زعماء العصابات . ويبدو ان هذا الضابط النائب ، كان يفكر في الاردن ، عندما كتب هذا القول بالنظر لوجود العنصر البدوي الضخم العدد في جيشه متناسياً مع ذلك ان من أشار اليهم بزعماء العصابات من البدو كانوا المخلصين الوحيدين للهاشميين . وقد يكون لملاحظاته بعض العلاقة بالوضع في الأردن ولكنها لا تنطبق مطلقاً على اي بلد عربي آخر ، ولا سيما العراق . فالجيش في العراق بصورة اجمالية جيش

حضري ، وجميع ضباطه من المصلحين التقدميين والمطلعين على شؤون السياسة .
وفي هذه الناحية يختلفون حتى عن كثير من الضباط البريطان الذين لا يمثلون
الرأي العام المدني . وعلى القارىء البريطاني ان لا يتصور العراقي في ضوء
نظيره البريطاني .

وأود ان أؤكد ثانية انه لم يكن هناك أدنى شك مطلقاً في ان الشعب
سيؤيد العمل الذي قام به الجيش. فضباط الجيش يمثلون الطبقات التي نشأوا منها
وهي الطبقات الوسطى ، والوسطى القريبة من الدنيا . ومع ان الثورة قد
ايدتها جميع الطبقات ، ولكن الشكل الذي بدت فيه ، يعود الفضل فيه الى
طبقة واحدة هي الطبقة التي كانت دائما ومن الناحية السياسية اكثر نشاطا سواء
داخل الجيش او خارجه . اما الطبقتان العليا والوسطى القريبة من العليا ،فقد
انتفع افرادهما ، من العهد البائد وهما تمثلان اقلية ضئيلة لا تذكر من الشعب ،
واقلية صغيرة جدا من السكان المتعلمين . واما الطبقة العاملة ، التي بدأت تشعر
بطبقتها وبدأت تشعر بالاحساس السياسي فكانت تريد ثورة اكثر تطرفا لو
اتيح لها الاشراف والسيطرة على الوضع . لكن الجيش كبح عواطفه وحماسه
وكبت تطرف العمال ضمن نطاق الحركة التي اعدها الجيش .وهنا برزت النواحي
الايجابية الوضع وظهرت التساؤلات عن الطريقة التي يجب اتباعها في تأليف
حكومة جديدة . اما من الناحية السلبية فكان اجماع قومي ، على وجوب تدمير
العهد البائد الى حد معين على الاقل . فاذا اخذنا وجهة نظر الحكومة الجديدةفي
الوضع ، برزت لنا صورة العهد تمثل الفساد وعملاء المصالح الاجنبية ، اما اذا
اخذنا وجهة نظر الحزب الشيوعي ، تبرز لنا صورة العهد البائد تمثل التحكم
الطبقي . ولكن الشيء الثابت والمؤكد هو ان الشعب كاملا تقريبا رغب في ان
يقضي على الملكية وجماعة نوري السعيد قضاء مبرما .

ولم يدهش مما حدث ، الا اولئك الذين صدقوا في الماضي ما كان يقوله لهم
رجال العهد البائد ويبدو لي ان رجال العهد انفسهم قد دهشوا ، باستثناء نوري
السعيد ، لو عاش ، اذ انه كان رجلا يؤمن بالقضاء والقدر . وفي لندن . بدأت

القصص تتوارد وكلها مما لا يصدقه العقل ، فمن قائل ان العراقيين سينشقون
وان انصار الملكية سيثيرون حربا اهلية ، وان ثوار الشمال سيزحفون جنوبا
لاحتلال بغداد ، ويبدو ان كل هذه القصص قد ابتكرها في لندن ، مخططو
حلف بغداد في وزارة الخارجية البريطانية تعبيرا عما يتمنونه ، او انها قد
« فبركت » في عمان لتشجيع البريطانيين على التدخل . وفي المراحل الاولى من
الثورة ، لم يدرك الناس في الغرب ، ان الملك وعبد الاله قد لاقيا حتفهما ،
فالزعماء الاتراك ، انتظروا الساعات الطوال في المطار وصولهما ، والواضح ، ان
من كانوا خارج العراق ، آنذاك ، لم يكن في وسعهم ان يعرفوا حقيقة ما يدور
بالسرعة التامة ، ولكنهم كانوا ايضا يجهلون ان اصبعا واحد لن يرتفع دفاعا عن
العائلة المالكة ، اذا ما كان افرادها احياء ، او ثأرا لها اذا كانوا امواتا ، وهذا
لا يغتفر . وكل من عرف العراق ، ورأى علائم السعادة والبهجة على جميع
الوجوه ، يوم الثورة ، ما كان له ان يتصور امكانية وقوع حرب اهلية لحظة
واحدة . والوجوه العابسة الوحيدة كانت لاولئك من رجال العهد البائد الذين
اخذوا يتوقعون الاعتقال او الطرد في كل لحظة ، او لاولئك الابرياء الذين
ارتبطت حياتهم بشكل او بآخر مع العهد البائد . والفريقان من القلة بحيث لا
يؤبه بهم مطلقا . ولم يكن عبد السلام عارف الا ليسرد الحقيقة عندما وقف على
المذياع بعد ساعات ، يعلن بصوته الداوي الذي تغمره الحماسة والعاطفة المتقدة،
التفاف البلاد ، لواء بعد آخر حول الجمهورية ، مشيرا في هذا الالتفاف الى شعب
اللواء وادارته . وعندما كان يصف هو والخطباء الاخرون ، هذا النهار باليوم
المبارك والمقدس ، انما كان يعبر عما يشعر به الجميع من ابتهاج لانهم عاشوا ذلك
اليوم . ولا اريد هنا ان اشير الى ان بعض الخيبة في الامال . قد تتلو تلك
الفرحة الكبرى . لان عوامل الوحدة لم تكن متماسكة دائمة الرسوخ ولكنني
اريد ان اقول ، ان فرحة الرابع عشر من تموز ، قد ساورها ايام تالية من القلق
والفزع ، عندما بدت الثورة تهددها قوات من الخارج ، وان كان الجيش في
الداخل ، قد ركز السيطرة كلها منذ اللحظة الاولى .

وتناول الناس في الخارج قصصاً مبالغ فيها كل المبالغة ، عن وحشية الجماهير .
ففي افتتاحية التايمس صباح الخامس عشر من تموز ، تحدثت الجماهير عن رعاع
بغداد الخطرين « الذين انضمت اليهم عصابات من ابناء الأرياف فأخذوا يعيثون
في الأرض فساداً . ووصفت صحيفة اخرى هذه الجماهير بالطبقة البروليتارية التي
لا جذور لها وقد يكون الوصف صادقاً وان كانت الحوادث التي نسبتها اليها ،
اما مختلقة او مبالغ فيها . وسأوجه الاهتمام الآن ، الى هذه الحوادث لا لأهميتها
بل لكثرة ما كتب عنها في الخارج . واذا ما تذكرنا الكراهية العنيفة التي كان
الشعب يحس بها نحو الرجلين عبد الاله ونوري ، في امكاننا ان نتجه بانظارنا الى
صبيحة الرابع عشر من تموز عندما أحيط القصر الملكي بالقوات المسلحة .

ولقد تحدث الي الحلاق الذي جرت عادته على الذهاب كل صباح الى القصر
ليحلق لكل من الملك وعبد الاله ، فقال انه ذهب في ذلك الصباح وادخل إلى
القصر من باب جانبي كالعادة ، ولم يوقفه الجنود المحيطون بالقصر ، وكان منظرهم
مألوفاً ، ولكنه بعد دخوله ، شعر بأن شيئاً غير عادي وهاماً للغاية يدور في
القصر وحوله . ومن باب فتح نصف فتحة يطل على قاعة داخلية رأى الملك
وعبد الاله يتحدثان الى من حولهما حول ما يجري . ويبدو ان الملك وخاله لم
يكونا يدركان خطورة ما يواجههما ، وانهما اعتقدا انها مجرد حركة انقلابية يقوم
بها عدد من الضباط ، وهذا الاعتقاد ، ينطبق على نفسيتهما وعقليتهما . وانهما لم
يجربا قيام ثورة قومية عامة . وشعر الحلاق بالخطر يهدد شخصه ، فخرج من
الباب الامامي ، معتقداً ان النار لن تطلق عليه دون سؤال واستفهام ، اذا ذهب
من ذلك الطريق ، وفي الحق ، فقد عرفه بعض الضباط وسمحوا له بالمرور .
وذهب فوراً الى دكانه فرفع يافطتها وعلق بديلها « صالون حلاقة الجمهورية » وبدأ
يقص قصته على زبائنه .

ويبدو ان القرار ، كان يقضي باعتقال افراد الاسرة المالكة ، ولكن القتال
قد بدأ وكان افراد الحرس الملكي قد اختيروا لهذه المهمة بالنسبة الى ولائهم
الشخصي للعائلة المالكة . وجميع الروايات تكاد تتفق على ان الملك اراد

الاستسلام ، وانه محاطاً بنساء العائلة المالكة بدأ في هبوط الدرج الخارجي ،
عندما اطلق عبد الاله من شرفة علوية النار على الجنود فرد هؤلاء بأسلحتهم
الاوتوماتيكية فقتلوا وجرحوا جميع أفراد العائلة المالكة . وليس في هذه
القصة غريب لا يصدق فعبد الاله ، وفي نفس الصيف تبجح لصديق له بريطاني
بانه يحمل دائماً مدفعاً رشاشاً وانه سيستخدمه اذا ما هوجم ولم يكن له امل في
معاملة طيبة ، فقد كان يدرك ما يحمله له الناس من كراهية ، وكان يتوقع دائماً
هجوماً عليه . اما الملك ، من الناحية الاخرى ، فكان لديه من الاسباب مايحمله
على الاعتقاد ، بأنه اذا ما سلم نفسه بهدوء ، فسينقذ حياته ، وحياة الباقين من
اسرته باستثناء خاله ، وطبيعة عبد الاله المشاكسة ، حتمت عليه ان يقاتل بينما
طبيعة الملك المسالمة الانسانية كانت تحتم عليه ان يضع حداً لسفك الدماء .
ويبدو ان الملك نفسه كان اول من ادرك خطورة الثورة القائمة .

وكان أمام دار السفارة البريطانية تمثال للجنرال مود مضت عليه سنوات ،
وهو في مكانه . ويقيناً ان بعض البريطانيين كانوا يعتبرون الجنرال محرراً للعراق
وان العراقيين ينظرون الى تمثاله بعين الحب والاعتراف بالجميل كل ما مروا به .
لكن هذا الاعتقاد ويا للأسف كان خاطئاً أيضاً . ففي الساعات المبكرة من
صباح ١٤ تموز التف حول التمثال حشد كبير من اهالي الكرخ وأخذوا يحاولون
جره وانزاله ، عندما ساورتهم فكرة الدخول الى دار السفارة . وكان بعض
الحرس يقفون امام دار السفارة ، فأطلق أحدهم نيران بندقيته بصورة خاطئة
وأصاب قدمه ، وخيل لزملائه ان النار قد أطلقت من داخل السفارة وكنتيجة
لذلك قرروا ترك الحراسة عن الدار بعد ان اعتقدوا بان رجالها قد أخذوا على
عاتقهم حمايتها . وبدأت الجماهير تزحف الى داخل السفارة مطلقة النار بصورة
وحشية فقتلت احد رجالها وأجبرت السفير على التراجع الى داخل الدار .
واجتمع جميع الموظفين في مكتب السجل تاركين دار السفارة تحت رحمة
المتظاهرين يحرقونها وينهبونها ، لكن الجماهير هاجمتهم وأخرجتهم من الدار
دون ان تصيبهم بأذى الى ان جاءت فصيلة من الجيش فرقت المتظاهرين . وعلى

كتب من دار السفارة تعرضت مكاتب الاستعلامات البريطانية ومكاتب القنصلية للنهب والحرق ، لكن الموظفين لم يصابوا بأذى إذ أخرجوا من باب خلفي للدار عندما دخلها المتظاهرون من الباب الامامي . وكانت هذه الحشود تتألف من ذوي المهن الصغيرة والعمال الشروقيين وجلهم من الاميين . ويحتفظ الجيش حق وضع هذا الكتاب بالهدوء والأمن العام بدقة دون ان يتدخل في حريات الاهلين العامة . وراعى الجيش تنفيذ منع التجول بمهارة وكفاءة في قلب المدينة أكثر منه في الضواحي . وفي ذات يوم استمع الناس الى رواية في الاذاعة ، تضمنت قيام ثورة في ايران (في الرواية طبعاً) ، فاحتشد امام دار السفارة الايرانية عدد كبير من الشروقيين ، ولكن سرعان ما فرقهم رجال الجيش . ومع ذلك لم يستطع الجيش السيطرة على الجماهير الحاقدة التي صبت حقدها على أجساد الموتى. أما الحشود الأخرى التي هددت الارواح أو الممتلكات ،فقد تمت السيطرة عليها تماماً بعد الساعات الاولى من الثورة. ومع ذلك اذا رغبت الطبقة الجديدة الحاكمة في حفظ النظام بدقة ، فان الطبقة العاملة ، كانت تود لو اتيح لها ان تطرد جميع الأجانب وفي مقدمتهم البريطان طبعاً .

وشعر الكثيرون من العراقيين ان معاملة السفارة البريطانية أمراً معيباً فأخذوا منذ البداية يدعون ان موظفي السفارة هم الذين أطلقوا النار على الجماهير ، وانهم هم الذين أشعلوا النيران في البناء وعندما كانوا يحرقون اوراقهم السرية . وكان هناك تمنع في قبول الفكرة القائلة ، بان في مكنة العراقيين ، ان يكونوا أحسن سلوكاً في يوم الثورة ، مع أن هناك اجماعاً على القول بان اجساد الموتى قد اسيئت معاملتها . والسبب في ذلك ، يعود إلى ضعف في وضع الجماهير ، التي حاولت ، أن تخفي شعورها بالنقص وعوزها إلى الثقة بالنفس . أما بالنسبة الينا نحن ، فيجب ان نربط بين هذه الاضطرابات وبين ما شرحته في فصول سابقة فاهداف الهجمات الجماهيرية ، تركزت على اعداء الشعب التقليديين وهم الاسرة المالكة وبصورة خاصة عبدالاله ، ونوري السعيد وبعض انصاره. والبريطانيون الذين كانت سفارتهم الوحيدة المنعزلة، بما تحمله للعراقيين

من ذكريات الاذلال هدفاً صالحاً للهجوم . ولكن هذه الاضطرابات يبدو انها لا تحمل اية اهمية بالنسبة للمستقبل ، اذ لم تكن تعبيراً عن السياسة الرسمية ، وقد وعدت حكومة الجمهورية بالتعويض على الخراب الذي لحق بدار السفارة البريطانية وممتلكاتها .

وظهر هناك رد فعل ، قائم على الجهل والسخافة للثورة ، ما لبث ان زال دون أن يترك أثراً . فبعض العائلات الفقيرة ، نقلت فوراً متاعها وحاجياتها إلى البيوت الخالية من السكان للاقامة فيها ، بدعوى ان كل شخص قد أصبح حراً . وشخص آخر ، عرفته ، أعرب عن دهشته ، من انه بالرغم من قيام الجمهورية ما زال ملزماً بدفع ديونه . وهذه الأعمال والآراء لم تصدر إلا عن البسطاء ، ولم يكن فيها أي خطر ، وإنما تستثير الاشفاق ، والسخرية ، اذ وجد هؤلاء ، ان العصر الذي اقبلوا عليه ، لم يكن عصراً ذهبياً ، وانما عصر عمل اكثر . والامتياز الوحيد الذي تم ، للجماهير هو استعمال مواقف السيارات الخاصة السابقة حدائق عامة ، او مواقف شعبية للسيارات . وكنت ترى هذه المواقف العديدة ، والمنتشرة في انحاء العاصمة وقد اكتظت بالأطفال يلعبون ، والرجال والنساء يتحدثون ويسمرون في الأمسيات . وهذا هو المظهر الوحيد للحرية ، في القضايا الصغيرة ، الذي يمكن أن تسمح به الثورة في اللحظات الأولى من وقوعها ، أما الذين انتظروا حرية اوسع فقد أصيبوا بخيبة الأمل .

وسرعان ما رفعت لوحات العهد البائد وأزيلت ، فعلم الاتحاد الهاشمي مع الاردن ، قد اختفى ليحل محله العلم العراقي ، وتبودلت اسماء الشوارع التي كانت تسمى باسماء أفراد العائلة المالكة أو الوزراء او شخصيات العهد البائد . وسميت كلية الملكة عالية للبنات بكلية التحرير والمستشفى الملكي ، بالمستشفى الجمهوري . ووضع على الطوابع ختم جديد يحمل اسم الجمهورية العراقية مع الوعد باصدار طوابع جديدة عما قريب . ولم تمض أسابيع ، حتى كانت الملكية قد أصبحت أمراً من أمور الماضي ونسيت تماماً وأخذ الجمهور يستمع في كل لحظة إلى اذاعته تقول : هنا اذاعة الجمهورية العراقية في بغداد .

وأخذ الناس يتحدثون الكثير عن مغامرات نوري السعيد ، فيرون ما كان يقوله ويعلنه قبل اسبوع من الثورة ، من ان قواته ستتدخل علناً في لبنان لمصلحة شمعون ، مما يشير إلى حرب داخلية بين العرب أنفسهم . وأخذوا يتذكرون أيضاً ما قيل من انه ليلة الثورة تلقى ثلاثة انذارات بوقوعها ولكنه تجاهلها ، ومن انه كان يؤكد دائماً ان الشخص الذي يستطيع قتله لم يخلق بعد . ويبدو ان نوري السعيد قد دخل المرحلة الأخيرة من حياته بثقة كاملة لا تتزعزع ، وهذه الثقة هي التي أثارت ضده كراهية الجماهير .

وقد اختفى نوري السعيد في الفترة الواقعة بين انذاره ، بان القصر قد طوق . وبين دخول الجنود بيته . وكان نوري يعيش على مقربة من معسكر الشرطة الذي تم تسريح رجاله وانتزاع السلاح منهم . ودار البحث عنه في كل مكان طيلة الست والثلاثين ساعة التالية ولكن عبثا ، وحاولت الحكومة الجديدة تجاهل اسم نوري السعيد في البداية ، ولكنها في اليوم التالي اعلنت عن جائزة قدرها عشرة الاف دينار لمن يرشد اليه . وانتشرت في بغداد قصة ، وهي ان احد الوزراء المعروفين بحبهم للمال ، وجمعه والذي كان قد اعتقل ، طلب من السلطات اطلاق سراحه لساعتين أو ثلاث ساعات ليجد لها نوري السعيد ويرشدها اليه مقابل عشر المكافأة ليس إلا ، وهذه النكتة تشرح بوضوح رأي الناس في شخصيات العهد البائد .

ومع ذلك فقد بدأ القلق يستحوذ على النفوس ولا سيما في وزارة الدفاع بين قادة الثورة ، والعقلاء من افراد الجمهور ، اعتقدوا بان نوري اذا تمكن من الفرار ، فسيقنع الدول الاجنبية بالتدخل ، وإذا كان هناك من شخص يمكنه ان يحوك المؤامرات ضد الجمهورية فهو نوري السعيد ليس إلا ، وبدأت القصص التي لا أساس لها تسرد عن اعتقاله والامساك به . وزعمت احدى هذه القصص ان الرجل الذي بنى لنوري مخبأه ، جاء الى السلطات وأرشدها اليه ليقبض الجائزة . والحقيقة ان نوري لم يكن يملك مخبأ وانما اعتمد على ذكائه وحظه في الخلاص من أية مشكلة قد يقع فيها . وهذه الثقة تتناقض مع أعماله المترددة

بعد هروبه ، اذ استقل قارباً ، ثم عاد به دون ان يقطع النهر ، الى نفس الضفة التي يقع عليها بيته مختفياً في بيت صديق له هناك ، وبعد قليل استقل سيارة الى بيت عائلة صديقة قديمة له في الكاظمية . وحي الكاظمية فقير ومزدحم ويحيط بمقام شيعي مشهور ، والمعروف عنه انه من قلاع الشيوعية ومراكزها ، وان شرطة نوري السعيد ، كانت تتوقع دائماً حدوث الاضطرابات فيه لكن تهمة الشيوعية لم تكن واضحة في عهد نوري السعيد ، فالصحيح ان حوانيت الكاظمية كانت تعلق سراً صور جمال عبدالناصر . وعلى كل حال ، فسواء أكان الحي شيوعياً أو ناصرياً ، فهو ليس بالمكان الصالح لاختفاء نوري السعيد ، وهو ليس بالمخبأ الذي يستطيع ان يجد فيه « السكوت » إن لم نقل المساعدة والعون. ويقوم بين المساكن الفقيرة في هذا الحي ، عدد من القصور الفخمة ، بينها القصر الذي لجأ اليه نوري السعيد واختفى مدة اربع وعشرين ساعة ، وهو نفس القصر الذي سبق ان لجأ اليه عام ١٩٣٦ عندما فر من انقلاب بكر صدقي . وإذا صحت الرواية هذه ، فقد تباطأت السلطات الجديدة في البحث عنه في هذا المكان ، وإن كان هو على كل حال قد قرر الانتقال منه في اليوم التالي ، وذهب الى بيت يقع على الضفة الشرقية من النهر في الجانب الجنوبي من المدينة . وقد اختار نوري الانتقال من مكانه بعد الظهر في ساعات القيلولة عندما تكون درجة الحرارة في هذا الشهر من السنة قد تراوحت بين ١١٠ و ١٢٠ فهرنهيت في الظل ، وعندما يظل الناس في بيوتهم لا يخرجون منها وكانت ساعات التجول قد مددت حتى الخامسة مساء . وقيل ان نوري رغم هذه الاحتياطات قد استلقى في حوض السيارة التي انتقل بها . وهنا تتعدد الروايات حول ما وقع ولكنها تتفق في قدرته على خلق اسطورة . وقيل انه دخل احد البيوت واخذ يتحدث الى طفلة صغيرة حول مدرستها ودروسها ، مضيعا الوقت حتى تصل السيارة التي ستنقله شرقاً الى ايران . وكان نوري حتى تلك اللحظة محتفظا باعصابه ، مع ان الانباء قد وصلته بمصرع ولده . ويقال ان شابا ، من افراد العائلة ، من الجيل الجديد الذي لم يتأثر بارتباطات اعمامه الفاسدة قد رفض اخفاء نوري في البيت وهدد بافشاء

السر اذا لم يغادره على الفور ، فغادر نوري البيت . وتقول جميع الروايات ان نوري كان يرتدي العباءة السوداء التي ترتديها نساء الطراز القديم ، وانه كان يلبس تحت العباءة « بيجامة » وهو امر طبيعي ان يرتدي الرجال البيجامة في النهار هربا من الحرارة اما النساء فلا يرتدينها مطلقا . وقيل ان قدمه قد عثرت فانحسرت العباءة عن البيجامة وصاح صبي صغير شهد الحادث قد يكون بدافع من الصبيانية « هذا نوري السعيد » . وبدأ نوري يركض فتعثر ووقع وسقط منه مدفعه الرشاش ، وهنا تختلف الروايات عن الشخص الذي اطلق النار على نوري . وان قيل ان عريفا في الجيش اطلق النار عليه قائلا : علي ان اقتلك لانك شيوعي . وجاء عبد الكريم ليتعرف على الجثمان . وقد قتلت احدى الامرأتين اللتين رافقتا نوري من الكاظمية بينما اعتقلت الاخرى وحكم عليها بالسجن . وسواء اصحّت هذه الروايات او لم تصح فانها تلقي ضوءا على بعض مساوىء العهد البائد ، انها تحسر النقاب عن نظرة العراقيين الى هذا السياسي الذي اجله الغرب وربطوا مصائرهم به اكثر من عشرين عاما ، وهذه النظرة تجمع بين الكراهية والخوف والاحتقار ، وقال قاسم معلقا « هؤلاء الخونة ، لقد عوقبوا ، رغم محاولتنا انقاذهم . لقد ذهبوا دون ان يتركوا اثراً حتى ولا قبرا يدل عليهم ، لانهم لم يخدموا الشعب الذي حكموه » .

وقد لعب الحظ دورا كبيرا في نجاح حركة التحرر ، سواء في البداية او فيما بعدها . وهذا يفسر قول الضباط ان الله كان معهم . لكن تدمير الطغيان الذي اخرس الشعب مدة طويلة قد نجح ، لان كل فرد من افراد الشعب قد اراد له النجاح وكان الشعور بالراحة ، بعد الجهد والمشقة هو الذي وحد البلاد ، وهذا الشعور هو ما احس به الجميع وفي مختلف الظروف . فلم تكن ادنى معارضة جدية للجمهورية ولا يمكن ان تكون . وسمع الناس بعد ذلك . ان قائدين من قواد الالوية في خارج العاصمة ارادا الزحف على بغداد ، ولكن ضباطهما سرعان ما اعتقلوهما . واخذ راديو عمان يتحدث عن الشعب الواجم يواجه زمرة من الانتهازيين الذين انتزعوا السلطة » بينما الحقيقة هي العكس ، فقد انتزع الشعب

السلطة من الزمرة الحاكمة من رجال العهد البائد . وهنا لا بد من القول ، ان انعدام المعارضة قد جعل الشعب امام موقف لا مناص منه وهو تحية الاحداث وابطال الشعب من قادة الثورة. وبمعنى آخر قد وقعت الثورة قبل الرابع عشر من تموز ، ولكنها كانت تنتظر نقطة الانطلاق « فقط » وهذه الكلمة « فقط » عنت الشيء الكثير . وكان من الممكن ان لا تحدث ، ولكنها وقد حدثت عن طريق ثورة الجيش ، فان الثورة قد انتهت . ولم يبق الا البحث عن طراز جديد في الحكم يختلف عن الحكومة السابقة في كل شيء وهذا ما اتفق عليه الجميع .

الفصل السابع

بداية عراق جديد

ليس من المتوقع ان يتمكن مؤلف يتحدث عن ثورة ناجحة بعد ثلاثة أشهر فقط من وقوعها ، من الكتابة طويلاً وبصورة مجدية عن سياسة الحكومة الجديدة او عن استقرارها . فمن المؤكد ان شيئاً جديداً قد بدأ في العراق ، ولكن ما حجم هذا الشيء وهل هو نحو الصالح أو الطالح ، فهذا ما يتطلب الدليل . واني لاعتقد شخصياً ، ان تبدلات جوهرية ومهمة تقع الآن (رغم ان بعض الناس ينكرون ذلك) ، وان هذه التبدلات ستستمر كما بدأت نحو الصالح وباستثناء هذه الحقيقة لا اريد ان اكتب تاريخاً او مديحاً للثورة ، فان فكرتي هي نقل الرأي العام العراقي .

وكان الحماس ، هو الظاهرة الاولى للرأي العام التي بدت في العراق ، فمن الصدق القول ، بأنه بعد الرابع عشر من تموز أخذت صور عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف وغيرهما من قادة الثورة ، تبرز في المكاتب والمحلات التجارية حتى عند اولئك الذين لم يكونوا ليشعروا بالحب نحو الثورة كما أخذت صور ناصر تحتل اماكن مماثلة ايضاً . ولعل تعليق هذه الصور وانتشارها في كل مكان حتى في سيارات الاجرة ، كان تعبيراً عن الحماس وفي الوقت نفسه عن الميل الطبيعي الى عبادة الابطال ، وهي العبادة التي تعاكس تماماً الكراهية التي كان المجموع

يشعر بها نحو بعض رجال العهد البائد . ويبدو ان عبد السلام عارف كان اقل قادة الثورة قبولاً في نفوس كبار رجال المال والأعمال ، والاستعماريين ، لأنه كان محبوباً لدى المتطرفين ولدى رجل الشارع بالنظر إلى حديثه لهم من القلب دون طلاء وحتى دون تفكير وقام عبد السلام بزيارة جميع ألوية العراق ، واحداً اثر آخر في الأيام الاولى من الثورة ، كما تلقى في بغداد هو ورئيس الوزراء سيولاً من الوفود التي جاءت من مختلف أنحاء البلاد مهنئة بوقوع الثورة وهي الوفود التي صدر الأمر بوقف مجيئها حتى يتمكن رجال الثورة من العمل . وعلى الرغم من العبارات التي استعملها عبد السلام في خطبه التي القاها في الألوية فقد أكد دائماً الحاجة الى استكمال الثورة بالعمل والنظام ، وان الاعمال يجب ان تسبق الأقوال ، وان الشعب يجب ان لا ينساق وراء العواطف وانما وراء التفكير والتخطيط الصالح . وهذه الاقوال جميعاً التي صدرت من القلب ، لا عن خديعة أو تزييف ، عبرت عن نواياه واهدافه ، واتسمت الايام الاولى من الثورة بروح عبد السلام الاصلاحية لا بروح رئيس الوزراء المتأنية البطيئة ، وهذا ما جعل بعض زملائه يقولون ، بأن عبد السلام أجزل في الوعود التي لا يستطيع تحقيقها .

ويخلق حماس الجماهير عدداً من المشاكل ، التي لا يستطيع الانسان ان يقرر مدى السماح بها . وقد احسنت السلطات العسكرية صنعاً واظهرت حكمة رائعة في التمييز بين النافع والضار ، والخطير وغير الخطير والشعب الذي انقضى عليه أمد طويل دون ان يجد ما يتحمس له وجد الآن فرصة مناسبة للفرح والحماس . ولعل خير مثل على ذلك ، الجماهير الغفيرة من الشعب التي استقبلت رشيد عالي الكيلاني عند عودته في الاول من ايلول الى بغداد .

وكان النهار اشبه بعطلة عامة واكتظت الشوارع بالجماهير كما امتلأت سيارات الشحن بالمستقبلين يحملون الاعلام ، بينما انتشرت النسوة على اسطحة المنازل المجاورة للبيت الذي سيحل فيه رشيد عالي . وظلت وفود المهنئين تفد إلى بيته أياماً طوالاً . ولم يكن رشيد عالي في يوم من الايام فيلسوفاً سياسياً أو ثورياً .

وانما عظمته في اعين الناس انه مثل الروح الثورية للشعب العراقي في الماضي وانه قضى سبعة عشر عاماً في المنفى ضحية كراهية عبد الاله . فالحماس الذي قوبل به رشيد عالي ، لم يكن تقديراً عقلياً او عقائدياً له ، بقدر ما كان غريزياً .

ومن المؤكد ان تدمير العهد البائد كان الرغبة الاولى لدى العراقيين ، وقد تم هذا ، كما رأينا في الساعات الاولى . اما من الناحية الايجابية فتتلخص أهداف الشعب واهداف زعماء الثورة في سياسة الحياد بين المعسكرين العالميين . وفي اعتناق الوحدة العربية ، وهذا في القضايا الخارجية ، وفي الحرية والاصلاح في المشاكل الداخلية . وسأتحدث عن الموضوعين الأولين في الفصل المقبل . وان كان التضامن العربي هو الهدف الأساسي للثورة . أما في الداخل فان موت عبدالاله ونوري السعيد ، قد رمز إلى ان الشعب قد حصل على حريته .

وقد قيل ، ان الشعب العراقي كان قبل الثورة حراً من الناحية الرسمية . ولكنه كان يشعر بالعبودية فعلاً . أما بعد الثورة وفي ظل الأحكام العرفية فقد كان الشعب لا يتمتع بالحرية من الناحية الرسمية وان كان يشعر بها كل الشعور . وكان الاحساس بالحرية اجماعياً . فقد أيقن الشعب انه بعد ثوراته المتوالية في اعوام ١٩٢١ و ١٩٣٦ و١٩٤١ أصبح الآن حراً كل الحرية فقد تحرر العراق من السيادة التركية ، والانتداب البريطاني ، والاستغلال الملكي والفساد الوزاري . فهل وجدت الحرية الشخصية ؟ طبعاً كانت هناك حرية الكلام ولكنها لم تكن مباحة لمن تبقى من الطبقة الثرية ، الذين توقعوا بين الفينة والفينة ، وبعد كل مظهر من مظاهر النشاط الشيوعي ، قيام ديكتاتورية شيوعية . وإذا كان بعض الناس قد التزموا جانب الاحتراس والحذر فيما يقولون ، فلم يكن التزامهم هذا ناجماً عن خوفهم من الحكومة ، وانما حرصاً واحتراماً ، للتطورات المقبلة . وكانت هناك حرية من الجواسيس والعيون ، ولكن لم تمض الأيام الأولى حتى ظهرت طبقة من الهواة بدلاً من الجواسيس المحترفين ، الذين استنكروا الفساد وعدم الكفاءة والاتجاهات الرجعية عند البعض ونقلوها إلى المسؤولين . ولكن لا يستطيع الحكم على الفاسد والمرتشي

إلا من سبقت له التجربة في هذا الاتجاه ، ولا شك في ان هؤلاء الهواة من كاتبي التقارير لم يكونوا يوماً من الفاسدين والمرتشين . وكان غرض رئيس الوزراء ومساعديه أخذ الحيطة في حركة تطهير ضد الرشوة والفساد ، ولعل الشائعات التي انتشرت من ان مجلس الجيش الأعلى لم يكن مرتاحاً من حركة التطهير تلقي ضوءاً على ذلك . أما حرية الانتقال فقد كانت محدودة ، إذ لم يسمح للعراقيين بالخروج من البلاد والعودة اليها ، إلا اذا كانت لهم أعمال مقبولة تبرر هذا السفر وعلى كل حال ، فقليلون من العراقيين من اعتادوا السفر كسواح في الماضي باستثناء الطبقة صاحبة الامتياز في العهد الماضي البائد ، وقد انتهت هذه الطبقة أما الطلاب وموظفو الحكومة ، فقد سمح لهم بالسفر وباعداد كبيرة دون اية قيود . أما الحرية الاقتصادية وهي أصعب الحريات . فقد كان عليها ان تنتظر الاجراءات التي ستوضع او التي هي الآن في طريق الوضع .

وقد نص الدستور الموقت الذي أعلن في السابع والعشرين من تموز على ان الممتلكات الخاصة عرضة للاستملاك في سبيل الخير العام . على ان يعوض اصحابها تعويضات عادلة وقانونية ، لكن هذا القانون لا ينص صراحة على المساواة بين المواطنين او على الضمانات التي يقدمها للحريات التي أعلن عنها وهي حرية التفكير والتعبير . حرية الديانة ، وممارسة الطقوس الدينية ، ومناعة اقتحام البيوت ، وهذا يشرح بدقة وبصورة كافية التحرر الذي اعتزمته الحكومة الجديدة ، فالثورة العراقية شأنها شأن جميع الثورات كالفرنسية والروسية ، وضعت جميع السلطات نظرياً في يد الشعب ، فقد نصت المادة السابعة من الدستور على ان الشعب مصدر السلطات ، كما نصت المادة السابعة عشرة على ان « الجيش ملك الشعب » ومن هذا يتضح ان الغاية من الدستور كله كانت تأكيد سلطة الشعب . وقد أعلن قاسم في حديث أفضى به لصحفي هندي عن الحكومة التي سيختارها الشعب في نهاية فترة الانتقال قائلاً . ان الشعب سيقول كلمته ، لان الشعب مصدر كل سلطة وكل قرار ذي أهمية يجب أن يعبر عن ارادة الشعب بعد ان يكون هذا قد وصل إلى مستوى أعلى في النواحي الاجتماعية والثقافية

والصحية وبعد ان تكون روح الثقة والطمأنينة قد توطدت لديه ، ومن هذا القول يبدو ان ممارسة الشعب لسلطاته تتوقف على استقرار الشعب وعلى ارتفاع مستوى الناحيتين الصحية والعقلية . كما يبدو العزم الطويل المدى لرجال الثورة الذين يربطون الحرية بالاصلاح الاجتماعي . ان هذه الأقوال توضح تفكير قادة الثورة ، وتوقع الشعب منهم ، ولو تحدث العهد البائد عن ديموقراطية المستقبل لما صدق أحد هذا الحديث كدليل على عزم صادق .

ويمكننا استخلاص ما عنت الثورة لقادتها من الخطب التي القوها في الايام الاولى من الثورة . وقد شرح رئيس الوزراء آراءه وتطوره الفكري في شكل يظهر ان تفكيره قد رسم على خطوط الاصلاح البطيء . وكان الرأي السائد لسامعيه انه رجل « لا يزال يتعلم سلطاته ويدرسها ويكوّن أفكاره وآراءه » وقد رأى ان العهد البائد قد أذل الشعب الذي كان منشغلاً في الحصول على قوته ، فصرفه انشغاله هذا عن المطالبة بحقوقه المسلوبة » . ورأى في عمل الحكومة ، قضية مشتركة تسأل عنها الوزارة بأجمعها فقال « أنا لا اقوم بالتفكير لوحدي ، ولا اسمح لنفسي باتخاذ قرار منفرد » وقد رأى ان أهداف الثورة التي يجب ان تكون جميع أعمالها ثورية هي « الوحدة العربية والتحرر » . والوحدة تعني الحياد والتحرر يعني الحرية الاقتصادية والرفاهية .

وبدأت التقولات عن انقسام الوزارة على نفسها وتركزت هذه التقولات على المقارنة بين أقوال قاسم المركزة المبنية على التفكير وأقوال عارف المتدفقة من الروح والعواطف الصريحة ، ولعبت الحوادث كما لعب الاشخاص دوراً كبيراً في التفريق بين الرجلين وأصبح النزاع واضحاً عندما أعفي عبد السلام عارف من جميع مناصبه وعين سفيراً في بون . وكان عارف يقول : « أنا تلميذ من تلاميذ عبد الكريم قاسم وضابط من ضباطه ، فهو قائدي وسأضحي بحياتي من اجله ، وهو سيضحي بحياته من أجل الشعب » وفي هذه الايام الأولى كان هناك أمل ، واخوة وجهد مشترك ، ولكن عندما وقع التبدل فصل عن الجسم الثوري ، عنصرها البريء المتطرف المتحمس ، وبقي عنصرها المتأني والمفكر .

ويبدو ان الكثيرين يعتقدون ان الوحدة لا تستمر إلا في لحظات الحرج .
وحرية العمل السياسي من الحريات الاساسية المهمة ، ولذا بات لزاماً علينا ان نستعرض الألاعيب والمناورات السياسية في ايام الثورة الاولى بايجاز. فاصطلاحا « اليسار واليمين » لا يساعدان كثيراً ولا سيما في المحتوى العراقي . فأين نضع عارف في هذا التقسيم الاصطلاحي ؟ كان عبد السلام عارف تواقاً لخلق وضع ثوري ، فهو يريد مثلاً اصلاحاً زراعياً يقوم على تحديد الملكية بخمسين أو ستين دونما ، ومثل هذا الرأي متطرف ، وقد يكون قريباً من الشيوعية . وكنتيجة لتعبيراته العنيفة ضد الاستعمار وتصرفاته الشديدة في وزارة الداخلية اصبح عارف مكروهاً من الاجانب والرجعيين . ومع ذلك فقد كان عارف أشد رجال العهد عداءً للماركسية ، وأكثرهم ميلاً الى محاربتها . وقد أدت قلة تجربة العراقيين السياسية الى عدم تقديرهم لاهمية هذا الشخص . وكانت شخصيته من النوع التي تخلق حولها الاساطير بسرعة ، والتي تنتشر عنها الشائعات ، فقد انتشرت قصة محاولة الانقلاب المزعومة التي قام بها بعد اعفائه من مناصبه في بداية اكتوبر في بغداد، ومن بغداد الى غيرها في البلاد حتى ان جريدة «التايمس» اللندنية قد نشرت خبراً مصدره بيروت عنها . وقد صدق الكثيرون في بغداد هذه القصص ، مع ان الرواية القائلة باعتقاله في بيته ، قد ثبت لي بطلانها من سؤال جيرانه عنها . وتحدث الأفراد من ذوي الاصدقاء في الحكومة شتى الأحاديث المتناقضة المعبرة عن معتقداتهم . فقيل مثلاً ان عارف قد طلب تشكيل مجلس قيادة للثورة على نمط المجلس المصري ، كما قيل ان عارف يعارض في تشكيل مثل هذا المجلس . وكلا القولين يعتمد على رأي قائله وأفكاره ، ولعل أدقّ التفاسير للحوادث ، ان عبدالسلام عارف ، كان رجلاً ذا طبيعة بسيطة ، ساذجة ، لم يقدر ما تتركه آراؤه من آثار لدى زملائه من رجال الثورة، ولدى العناصر الرجعية أيضاً ، ولم يعمل على استغلال منصبه الحكومي في تثبيت مطامحه الشخصية ، وانه كان يتكلم ويعمل بتهور ودون تفكير عميق ، وقد تألم للغاية من اعفائه من الخدمة ، ولكن اخلاصه الشخصي الكبير لقاسم لم يحمله على التفكير في الثورة . وقد أراد أن يرفض الخدمة في بون ، لان هذا المنصب

يجعله اكثر بعداً عن الأحداث من اي منصب آخر في الحكومة ولكنه وافق على قبول المنصب بعد حديث طويل مع قاسم . فهل ناشده قاسم الإخلاص والولاء أو كما تقول الشائعات وافق على عودته المبكرة ؟

واذا كانت الرواية الثانية هي الصحيحة ، فان عودة عبد السلام المفاجئة وغير المصرح بها الى بغداد ، ومن ثم اعتقاله ، متهماً « بخدمة استعمارية خفية » امور سجلت انقساماً خطيراً في وحدة الثورة الاصلية، وهو انقسام لم يرمز اليه بمثل هذا العنف اعفاؤه السابق من مناصبه ، واعفاء الوزيرين البعثيين معه وهما فؤاد الركابي وجابر العمر من وزارتيهما . انني لا اقصد وضع تاريخ عن الحالة السياسية بعد الثورة وليس في وسعي ان اقول كيف او لماذا وقع هذا ، او من هو المسؤول عن وقوعه ، لكن من الجدير القول ، ان البعثيين يمثلون حزباً قليل الخبرة او معدومها ، من اصل سوري ، له اهداف اصلاحية يمكن وصفها بالاشتراكية ، لكنها ليست بالماركسية في معتقداتها . انهم يريدون وحدة عاجلة ووثيقة العرى مع الجمهورية العربية المتحدة . واعضاء هذا الحزب من الشباب، له بعض الانصار ، ولكن القليلين منهم من تنوف اعمارهم على الثلاثين، والوصف الحقيقي لهذا الحزب انه مظهر من مظاهر القومية . وعلى الرغم من ان الركابي الذي لا يتجاوز من العمر الثلاثين ، قد ظل عضواً في الوزارة كوزير بلاوزارة. فان البعثيين قد شعروا ، باختفائهم عن المسرح ، وبدا انهم ليسوا وحدهم ، بل جميع القوميين قد لحق بهم الكسوف ، واصبح حزب الاستقلال وهو حزب اصلاحي قومي غير ماركسي ايضاً ، اقل نفوذاً وتأثيراً من الحزب الديمقراطي الوطني وهو حزب اشتراكي على غرار حزب العمال البريطاني .

ولعل أبرز ممثلي الحزب الاخير كان محمد حديد ، وهو خريج معهد لندن للدراسات الاقتصادية ومن رجال الاعمال الناجحين وقد مكنه صفاء ذهنه ومقدرته الادارية ، من ان يصبح من اقوى انصار الحكومة الجمهورية الاولى لا سيما وقد كان بشجاعته الفائقة من اشد خصوم عهد نوري السعيد البائد . أما الاستقلاليون فقد اعطيت لاثنين من زعمائهم مناصب السفارة في القاهرة ودلهي

الجديدة [1] وهي مناصب مع اهميتها ليست من التي تخطط السياسة او تضعها كما أعطي لثالث منهم منصب عضوية مجلس السيادة ولرابع هو صديق شنشل وزارة الارشاد . وقد شرح المذكور عن طريق هذا المنصب لعشرات الصحفيين الأجانب الذين جاءوا الى بغداد بعد الثورة ، دون اية معرفة سابقة بالبلاد ، يحملون المزيد من سوء النية ، اهداف الثورة واسبابها ومبرراتها . أما بالنسبة الى العراقيين ، فلم يكن لوزارته ، اي تأثير عليهم . وعلى العموم فان الوزراء الاستقلاليين في وزارة ائتلافية ، كان يعوزهم التضامن والانسجام الذي تمنحه العقيدة الاشتراكية للوزراء الوطنيين الديموقراطيين .

أما الحزب الشيوعي ، فلم يكن له ممثلون ظاهرون في الحكم ، وقد ساعده ذلك على اتباع خططه في ادخال رجاله في مناصب الادارة البارزةوهي المناصب التي يستطيع الحزب استغلالها . ولم يكن الشيوعيون هم الذين خلقوا الثورة . ولكنهم كانوا سريعين في استغلالها ، وانتهازها . وقد شعروا أن من واجب الثورة مكافأتهم لانهم كانوا الهدف الاول لطغيان نوري السعيد وشهداء ارهابه ، وقد عادوا الان من السجون والمعتقلات الى الحياة العامة. لكن خصومهم يردون على ذلك قائلين ، ان الشيوعيين لم يكن لهم أي ضلع في الثورة ، مهما قاموا به من اعمال في الماضي . وطريقة الشيوعيين في الوصول الى الحكم ، مدروسة ومجربة ، وهم يعرفون ماذا يريدون في كل مرحلة من المراحل ، سواء كمجموع أو كافراد . ويبدو انهم في الوقت الراهن اقتنعوا بالاصلاحات التي جاء بها قاسم والتي يقوم بها ، لان نتيجة هذه الاصلاحات تتفق مع اهدافهم . واذا كانوا يعتبرونه « كيرينسكي » آخر فليس في وسعنا حتى الان ان نحكم ما اذا كان هو على استعداد للقيام بالدور المذكور .

ويرى اكراد الشمال في الملا مصطفى البرازاني ، الذي عاد الى العراق بعد

(١) أخطأ المؤلف في ذكر دلهي الجديدة فالسيد حسين جميل الذي عين سفيراً هناك من اركان الحزب الوطني الديموقراطي لا حزب الاستقلال .

ثلاث عشر سنة قضاها في روسيا حيث قيل انه تلقى منها منصب الماريشال الفخري ، زعيما لهم . وعندما وصل الى بغداد استقبله حشد كبير من الاكراد ويبلغ الالوف بملابسهم الزاهية الملونة المؤلفة من « البلوزة » والبنطلون الواسع « وهي ملابس تبدو غريبة في بغداد كما تبدو ملابس الاسكوتلنديين غريبة في لندن . وكان من المزعج سماع اصوات الهتافات الداوية في استقباله وان كان من الطريف مشاهدتها ، وتجلى في هذا الاستقبال حماس شديد . وتحدث الشيخ الى مستقبليه بهدوء ، فحثهم على وجوب الترحاب بالاجانب مهما كانت جنسياتهم ، وايد وحدة العرب والاكراد ، واكد انه لم يعد الى العراق ،ليبدل شيئا ، وانما تابع لقاسم يتلقى اوامره ويطيعها . وهكذا لن يكون هناك حديث عن دولة كردية سوفياتية ، طالما ان العراق يظل بعيدا عن جمال عبد الناصر ، ويعامل الحزب الشيوعي باللطف والرقة .

ويقف قاسم الذي ظل حتى وضع هذا الكتاب لغزاً غامضا ، في منأى عن هذه المناورات الحزبية . وكل من اتعب نفسه في قراءة تصريحاته وخطبه منذ بدء الثورة حتى وضع هذا الكتاب ، يدرك حالا ، ان لهذا الرجل موهبته كزعيم . ويبدو ان ليس هناك من تناقض في اقواله وتصريحاته ولا بينها وبين اعماله (كذا) . وهذا حتما ، انتاج طيب لزعيم في الجيش قضى حياته في مهنة الجندية ويبدو ان لديه القدرة على اكتساب حب الجماهير ولا سيما اولئك الذين لا يهتمون بالسياسة . وكثيرون هم ارباب المهن الذين يتعلقون بالرجل الذي يبدو امامهم ، مدافعا عن التفكير العميق ، بالرجل الذي يجمع بين القوة وبين الاعتدال والذي يستطيع العمل بجزم، ولكن بعد تفكير عميق ودرس. ويعطي قاسم الانطباع ، بانه رجل ما زال يفكر فيما يريد . ومع انه من طالبي الاصلاح، الا انه بدا غريبا عن التنظيم الماركسي وعن الاساليب الماركسية في الثورة الاشتراكية ، اما ما هي الطريقة التي سيتبعها لتحقيق هذا الهدف فامر ما زال في طي الغيب . وسيظهر الوقت ما اذا كان في امكانه ، والى اي حد ، ان يحتفظ بالسلطة والسيطرة على كل من القوميين الذين يؤلفون الاغلبية ، ولكنها

اغلبية من غير تنظيم ، ومن الشيوعيين ، الأكثر خبرة في الحياة السياسية والمدربين على الاساليب الثورية . ويعيش قاسم ، ويأكل وينام بمكتبه في وزارة الدفاع . ويبدو انه قد اجهد نفسه فوق الطاقة .

هذه هي عناصر النزاع . فالحزب الشيوعي ، السريع والقوي ، خليق بأن يخلق معارضة له ، وبالفعل لم يمض طويل وقت ، على وقوع الثورة ، حتى اخذ الكثيرون الذين رأوا في هذه الثورة ،او ارادوا منها ، ان تكون ثورة برجوازية ، يفزعون لاشتداد النشاط الشيوعي ، وان من واجب الحكومة ، ايجاد السبل لايقاف هذا النشاط والحد منه . ففي الايام الاولى عندما كانت السلامة العامة في خطر ، كانت الحكومة حازمة في تمزيق اللافتات الكبيرة التي كانت تظهر في كل صباح على الجدران حاملة مختلف الشعارات ، وكانت المنشورات ممنوعة ولكنها سرعان ما ظهرت ثانية . واخذ الشيوعيون يرفعون الصوت عاليا مطالبين الجيش بترك السياسة والعودة الى ثكناته . ولم يكن في الحقيقة عدد كبير من الضباط من اعضاء الحزب الشيوعي ، وان كان العهد السابق يطلق هذا على الكثيرين منهم ، لانهم كانوا يحملون افكار متحررة اصلاحية . وظهرت الان المشكلة امام الحكومة الراغبة في اطلاق الحريات ، وهي هل تترك الحرية لم يريدون تدميرها ؟ واذا ما اضطهد الشيوعيون ، او لا يسري هذا الاضطهاد كما في العهد البائد على غيرهم من غير الشيوعيين بحجة الانتماء الى الشيوعية ؟ ثم كيف تحارب الشيوعية ؟ أن ترضي جميع الناس او تغضبهم امر لا يحصل عليه بسرعة ، وان تستعمل القوة في اسكات الناس حتى يتم رفع مستوى معيشتهم ، وحتى لا يظل للقوة ضرورتها ، امر يؤدي غالبا الى تأجيل الاقسام الباقية من المشاريع . ان هذه هي الطريقة التي بدا ان العهد البائد كان يتبعها ، والتي كان يدافع عنها انصاره من الاجانب .

والنزاع المتوقع بين الشيوعيين والقوميين يؤثر حتماً على جميع اهداف الثورة باستثناء برامج الحكومة بالاصلاح الاشتراكي الاجتماعي وهو الاصلاح الذي تؤيده جميع الاحزاب . والشعار الشيوعي : اتحاد فدرالي عربي وصداقة

سوفياتية : لا يعني سوى اقل انواع الاتحاد الفدرالي ارتباطاً ، لان الشيوعيين يخشون التضييق عليهم اذا ما تمت الوحدة مع عبد الناصر الذي استطاع ان يجمع بين صداقة روسيا وبين اضطهاد الشيوعيين في الداخل . والشيوعيون ايضاً لا يريدون سياسة الحياد لانها تعني الصداقة المتساوية لكل من روسيا وبريطانيا ومن الصين وامريكا ، وهكذا فان البرنامج الشيوعي يتناول الوحدة العربية والحياد والحرية ، وهي امور تحتم وجود خلافات في الاراء بين العراقيين حولها. وبالرغم من جميع هذه الخلافات فان العراقيين كانوا مجمعين على اهداف ثورة ١٤ تموز وهي الوحدة العربية والحياد والحرية والاصلاح . والصعوبة الوحيدة تقوم في ايجاد حلول لهذه الخلافات الممكنة ولا سيما في موضوع الوحدة العربية عن طريق ايجاد نوع من الاتحاد يكون اكثر تطبيقا عمليا وارضاء لجميع النزعات واختيار الوقت المناسب لاعلانه . وهذه هي النقطة التي تتشابك فيها القضايا الداخلية والخارجية . واعتقد ان اتباع نظرية الحزب الوطني الاشتراكي في تحديد مستقبل العراق ، هو الذي يضمن تذليل جميع الصعوبات ، اما اذا ازدادت قوة الشيوعيين ، فالامر انذاك يختلف كل الاختلاف . وساتحدث فيما بعد عن موقف الدول الغربية من الحياد العربي ، اما الان فاقول انه بالنسبة للاوضاع الحاضرة تسير الوحدة العربية والحياد جنبا الى جنب ، اما الوحدة العربية والشيوعية فقد تصطرعان .

ومن مظاهر المشكلة المتعلقة بالحرية ، ظهرت الناحية التي تتساءل هل من الاصلح او من الممكن ايضاً ، بعث الحياة الحزبية التي اضطهدها نوري السعيد وقضى عليها . فبعد قيام الثورة ، عادت الحياة الى الاحزاب السياسية بصورة طبيعية ،مع ان بعض مجالات النشاط المنفردة كانت توقف عند حدها حفاظاً على الوحدة . ولا ريب في ان احزاب المعارضة القديمة ، كانت تود من صميم فؤادها العودة الى النظام الحزبي والشيوعيون يطالبون في الوقت الحاضر بالحرية الحزبية مع انهم لو تسلموا الحكم ، لأقاموا فوراً دولة الحزب الواحد ، وكذلك الحال بالنسبة للقوميين كالبعثيين مثلاً ، الذين يودون فوراً قيام دولة ذات حزب واحد

غير شيوعي على غرار مصر . اما خالقو الثورة ورجال الجيش فقد اصبحوا الآن
جزءاً هاماً من المجتمع ، ولم تبد حتى الآن اتجاهاتهم الحزبية والذي يرغب فيه
الجميع ، هو ايجاد نوع من الحكم يضمن السلطة للحكام الذين يريدهم الشعب ،
ويتجاوب حتماً مع حقائق الرأي . وهذا الحكم هو الذي تحاول اساليبنا
الديموقراطية الوصول اليه ، فاذا ما تمكنت الشعوب الاخرى من الحصول عليه
بأساليب اخرى تناسبها ، فهذا هو الافضل حتماً . والامل هو ان يتمكن
المقتدرون من قادة الاحزاب التي ناضلت طويلا ضد العهد البائد من الاشتراك في
الحياة العامة المقبلة ، مهما كان نوع الحكم فيها فلقد خسر العراق كثيراً في الماضي
من ضياع مواهبهم وعدم الانتفاع منها .

ولعل أبرز مظاهر الثورة في أيامها الأولى كان شعور التطهر والبعد عن
الرذائل . ففي العهد البائد ، تصدرت العائلة المالكة حياة الفسق والفجور
والخمر والميسر ، فلما جاءت الثورة شرعت في شن الحملة على هذه الحياة . والروح
الدينية التي سيطرت على قاسم وعارف والقسم الأكبر من كبار الضباط ، قد
تجلت في كرههم للخمر والميسر . وفي الحال عالجوا مشكلة الخمر عن طريق اصدار
الرخص لبيعها ، وتحديد ساعات هذا البيع كما اغلقوا عدداً من النوادي التي
كانت في الماضي اوكاراً للقمار والمقامرين ، كما اوقفوا سباق الخيل الذي يخالف
تعاليم القرآن في كونه مظهراً آخر للقمار ، وهو السباق الذي ارتبط ذكره
في الماضي باسم عبدالاله وبالجريمة ايضاً . وواجهت الحكومة الجديدة من ناحية
ثانية مشكلة العهر والدعارة التي ورثتها عن الحكومة السابقة ، فقد سبق لأحد
رجال العهد البائد ، ان امر باغلاق حي الدعارة الرسمي الذي كانت تحيط به
أسوار عالية ويتعرض داخله لمراقبة رجال الشرطة واشراف رجال الصحة
وهدمه ، فانتشرت العاهرات في جميع انحاء المدينة . وأصدرت الحكومة
الجديدة أوامرها إلى وزارة الشؤون الاجتماعية لمعالجة هذه المشكلة فوراً واتخاذ
الخطى اللازمة لتشجيع الزواج ، والزواج في الاسلام ضرورة وواجب واذا
ما اتخذت الخطوات اللازمة لتشجيع الزواج المبكر ، وخففت اعباؤه الاقتصادية

اعتبر ذلك عملا ايجابياً لمكافحة الدعارة ، وان كانت حكومات كثيرة لا تؤمن
بهذه الطريقة . والاسلام ، شأنه في ذلك شأن اليهودية والمسيحية ، يؤكد فضيلة
الحياة العائلية ومعظم العراقيين يحبون بيوتهم وعائلاتهم واطفالهم العديدين .
وقد تؤدي كثرة افراد العائلة الى خفض مستوى معيشتها ، ولكن العراقيين
يأملون كثيراً في أن تكون حياتهم أحسن من تلك التي عاشتها العائلة البريطانية
في عهد الملكة فيكتوريا ، او التي تعيشها عائلات كثيرة في اوروبا اليوم .
وهكذا يتضح ان الاهداف الاولى للثورة ، اتجهت نحو اتباع تعاليم الاسلام من
ناحية والوصول الى الاصلاح الاشتراكي من ناحية اخرى . وقد أكد قاسم
في حديث له الى عدد من رجال الدين ان هناك الهاماً دينياً في الحركة الجديدة
التي تحرسها عناية الله .

وأخذت اتجاهات ما قبل الثورة تعبر عن نفسها في الأعمال الايجابية التي
تقوم بها الجمهورية الجديدة . وكل من في العراق ، كان يعتبر الاصلاح الزراعي
الحاجة الملحة الاولى للبلاد ، وكان البعض ينتظر بفارغ صبر والبعض الآخر
بثقة اقتراحات الحكومة في هذا الموضوع . ومنذ البداية اتضح ان الحكومة
لم تكن تستهدف القضاء على النظام القائم ، بقدر ما كانت تستهدف اعادة الحالة
الى ما كانت عليه قبل ان يصبح شيوخ القبائل والمتنفذون كبار اصحاب
الأملاك . فالشيوخ لم يعودوا يؤلفون طبقة ارستقراطية واقطاعية مزيفة . وقد
تم اعداد برنامج الاصلاح الزراعي ببطء وبعناية . وحددت ملكية الاراضي
لستمائة دونم من الاراضي المروية – اي أراضي الصحراء – وبالفي دونم من
الاراضي التي تسقى بالامطار وهي أرض التلال والجبال في الشمال . وهذا
البرنامج يترك للملاكين السابقين مساحات كافية لتأمين معيشة طيبة لهم ،
بالاضافة الى العلاوات التي يأخذونها لافراد عائلاتهم والتعويضات التي
سيتسلمونها على الأراضي المستملكة . وسيشمل توزيع الاراضي المستملكة
اعطاء الفلاحين الفقراء ما يتراوح بين الثلاثين والستين دونماً من اراضي الصحراء
وضعف ذلك من اراضي الجبال . ولعل ابرز نواحي الاصلاح وضع برامج طويلة

المدى لانشاء الجمعيات التعاونية وتعليم المزارعين الذين كانوا في الماضي جهلة ، وغير اكفاء للعمل ، وهنا تختلف مشكلة العراق عن مشاكل مصر واوروبا وروسيا. وقبل البدء بتنفيذ مشروع الاصلاح الزراعي، الغي القانون العشائري وأصبح قانون العقوبات البغدادي مطبقاً على البلاد باسرها . وهكذا انتهى النظام المزدوج الذي كان سبة عار للمشرعين وعلماء الاجتماع والمفكرين . وأصبح تعريف الجرائم وعقوباتها واحداً في كل مكان وانتهت سلطة الشيوخ القضائية على اتباعهم كما انتهت حصانتهم أمام القانون .

وكان من المحتم سن ضرائب جديدة اكثر فعالية وقوة بما في ضمنها ضريبة الارث . وفي هذه الناحية ، حذا العراق حذو بريطانيا ولنفس الأسباب ايضاً . فهذا الاجراء استهدف تحميل الاثرياء ، عبئاً أكبر في تكاليف الحكومة ، وهو ما كان الاثرياء في الماضي يتهربون منه ، وتوقع الناس من مجلس الاعمار تشجيع الصناعات الخفيفة الى الحد العملي . وأخذ قسم الاسكان في المجلس يواصل تنفيذ المشاريع القائمة بعد تعديلها . وقد بلغ انتاج القسم من السرعة والبروز ما جعله يعتز بعمله المثمر . ولم يكن تأمين المساكن اللائقة والعمل المعقول لسكان بغداد حاجة يمليها الاصلاح الاجتماعي فحسب بل السلامة العامة أيضاً ، اذ ان سكان الاكواخ من العاطلين هم الذين كانوا مسؤولين عن اعمال العنف التي وقعت في الثورة . وأعادت الحكومة النظر في أعمال الاعمار والتطوير ، لا قصداً وراء تغييرها ، بل لخلق مشاريع اجتماعية وصحية كانت البلاد في حاجة ماسة اليها . واذا ما سردت بعض هذه الاعمال ، فغايتي ان أبين انها تمثل في ايامها الاولى ما كانت تعده الثورة لشعبها وما كان الشعب يتوقع منها أن تعمل .

وانتقد البعض الحكومة بانها لم تعمل الا القليل ، بينما انتقدها البعض الاخر بانها عملت اكثر من اللازم . اما النقد الأول فقد جاء من الاوساط الشيوعية ومن الاشخاص غير الصبورين وغير المفكرين ناسين ان الحكومة راغبة عن اعلان ما تعمله الا بعد استكمال برنامجها الاصلاحي لاذاعته مرة واحدة ، اما الانتقادات

الاخرى فقد جاءت من التجار الذين وجدوا ابطاء في الحركة التجارية ، وقد قررت بعض الشركات البريطانية وغيرها من المؤسسات الاجنبية تبعا لذلك ايقاف اعمالها التجارية كلية في العراق ، مع ان المتوقع ان ينشط العمل التجاري من جديد وان تحل بلاد ما وراء الستار الحديدي محل الشركات الغربية اذا فشلت هذه الاخيرة في منافستها . وفي نفس الوقت كان هناك الخطر بان تبالغ الشركات الهندسية في تقدير صعوبات المستقبل وان تخلي الميدان ايضا للتغلغل الشيوعي . وفي قضايا كهذه يؤدي فشل الغرب في تقدير الرأي العام الاجنبي الى نتائج سيئة وحتمية . وابدى صغار التجار من العراقيين بعض السخط ولا سيما من فرض قيود الاشراف التجاري . ومثل هذا السخط كان يشعر به التجار البريطانيون من جراء هذا الاشراف سنوات الحرب او في السنوات التي تلتها ولا ريب في ان بعض الابطاء قد وقع في الاعمال الادارية ، اذ ان اصدار القرارات بصورة مؤقتة من دوائر الحكومة اصبح امرا اكثر صعوبة ويحتاج الى وقت اطول .

اما معظم الانتقادات الاخرى فقد جاءت من الرجال الذين كانوا على اتصال بالعهد البائد ، ومع ان عدد هؤلاء قليل ، الا انهم كانوا دائما الوحيدين الذين يتحدث اليهم المنتقذون من الاجانب ، ولا شك في ان الانتقادات في الخارج من ان الفساد في عهد نوري السعيد كان مبالغا فيه ومن ان الحرية اليوم اقل منها في السابق ، وان حرس نوري استغل رجال العهد البائد وما زالوا يستغلون سذاجة بعض الاجانب . ووجدت هناك بعض حالات التحول والتبدل فالاشخاص الذين كانوا اقل حماساً للجمهورية ، هم اولئك الذين اظهروا الكثير من عدم الاكتراث تجاه اثام العهد البائد . وهذه الاتجاهات الرجعية لم تكن من الاهمية بمكان ، اذ لا امل مطلقاً بعودة العهد البائد . ومع ذلك فهناك دور للاراء الرجعية في العراق الجديد . فمثلاً في قضية عبد السلام عارف اتفقت وجهات نظر الرجعيين والشيوعيين ، فالشيوعيون ارادوا غياب عارف عن المسرح لانه يبدو لهم نصيرا لمصر وعدوا للشيوعيين ، والرجعيون ارادوا ذهابه ايضاً لانه

يبدو لهم نصيراً لمصر ، ومتطرفاً . والنشاط الرجعي يبدو في هذه الهمسات والانتقادات الصغيرة للعهد الجديد ، ففي كل مناسبة تسمع ان الفساد قد بدأ في العودة ، وانه سيعود اذا ما تعذرت البرهنة على عودته . واذا ما تحدث الاجانب عن العهد البائد ، وصفوه بانه لم يكن متوحشا « بالمستوى الشرقي » او فاسدا « بالنسبة لهذا الجزء من العالم » وهذا يعود بنا الى تطبيق عقيدة المستويين على الوضع الجديد ، ويشير الى تجاهل الحق في ان كل فساد وكل طغيان يجب ان يزول ويقول العراقيون ، لا يهمنا ان يكون جيراننا في وضع احسن أو أسوأ من وضعنا ، وكل ما يهمنا هو وضعنا نحن ، ولعل الاعتقاد بان الفساد سيعود ، هو خير سبيل واسرعه لعودته . أما القول بأنه سيذهب ، وحتى لو فشلت المحاولات للقضاء عليه ، فهو القول الصحيح ، وهو الدليل على الرغبة الحقيقية في الاصلاح .

ومن اروع مظاهر الايام الاولى للجمهورية ، هي الرغبة في الاعتراف بالاخطاء مع ان هذه الرغبة كثيراً ما كانت موضع الانتقاد من الأجانب الذين يهزؤون بطريقة التجربة والخطأ . فقد اصدرت السلطات نظاماً يحظر فصل العمال من اعمالهم ولكن سرعان ما عادت السلطات نفسها فألغته بعد ان تبين لها تعذر تطبيقه من الناحية العملية . وكثيراً ما قال قاسم لزائريه ان غاية الحكومة كانت اقرار ما هو افضل ، ولذا فهي على استعداد دائماً ، لتبديل القرارات اذا ما رأت الخير في ذلك . وصرح زعيم آخر من زعماء العهد الجديد ، حتى في غمرة الحماس التي سادت الايام الاولى للثورة ، ان قصد الحكومة المحافظة على المؤسسات القديمة حتى تجد أفضل منها بصورة تدريجية . ويبدو ان هذا القول كان محاولة واضحة لتطمين رجال المهن والشخصيات الاخرى على اعتدال الحكومة من ناحيتها نحو أعمالهم من الناحية الثانية .

وأبرز مثل على استعداد الحكومة لاصلاح اخطائها اقامة جهاز استئنافي يرجع اليه الموظفون الذين يجري تطهيرهم في عملية ازالة الفساد ، وفي تشجيع المستأنفين على تقديم عرائضهم تخفيفاً للظن القائل بأن المجرم الحقيقي يكون دائماً

عزوفاً عن الرغبة في اعادة التحقيق . وقد تعرضت جميع دوائر الحكومة منذ البداية لعملية التطهير التي اعتمدت في دقتها على كفاءة كل لجنة في كل وزارة من وزارات الدولة . وسرعان ما اكتشف القائمون على الامر ، ان الفساد في أبسط صورة ، وباء معد ، يصعب تشخيصه بدقة ، فقد يسمح الموظف لقراراته بالتأثر بالصداقات او القرابات او المصالح الشخصية ، دون ان تكون لديه أية فكرة في انه لو تحرك دون هذه المؤثرات لاتخذ قراراً مخالفاً . وقد يتأثر الموظف برشوة خفية غير ظاهرة ، قد لا تكون مادية ، او برغبته في ارضاء موظف كبير ذي نفوذ او بالعزوف عن الدخول في مشاكسة مع أحد زملائه . وفي جميع هذه الحالات يوجد الفساد حقاً ، صغيراً كان او كبيراً ، ولكن من الصعب تمييزه وابرازه .

ومع ذلك ، يجب اجتثاث الفساد من جذوره حتى ولو كانت عملية الاستئصال طويلة وشاقة ، وفي احيان كثيرة ، مثيرة للسخرية . وصدر قانون في العراق ، قد يكون مثيراً بعض الشيء ، ولكنه يشير حتماً إلى الرغبة في الاصلاح والاحتفاظ بالمثل العليا في الحياة العامة . وينص هذا القانون الذي يدعى « من أين لك هذا » على اجبار كل شخص كان موظفاً منذ عام ١٩٣٩ على تقديم بيانات تفصيلية عن دخله طيلة سني عمله الطويلة . وليس قصدي هنا أن أشرح فعالية القانون لكن النقاد المعادين للعهد في الصحف البريطانية ذكروا ان الغاية من وضعه تمكين رجال الثورة القساة من وضع عدد من الأبرياء الذين لا حول لهم ولا قوة في السجون . أما الحقيقة فهي ان الغاية من القانون. كانت معرفة اولئك الذين اكتسوا بالريش في العهد البائد والذين لم يكتسوا والطريقة المثلى لاستعادة النزاهة للحياة العامة . هي أن يمارس كل فرد النزاهة في حياته ، ولا ريب في ان عدداً من زعماء العراق الجديد قد أعطوا خير مثال على هذه النزاهة . فمثلاً رفض أحدهم ، التأثر بصداقة عائلية وثيقة في قرار فصل أحد الموظفين ، وهذا أمر بارز بالنسبة إلى العراق . لكن الزمن كفيل باظهار المدى الذي ستستمر فيه هذه النزاهة .

واذا ما أخذنا أقوال الصحف تبين لنا اهتمام بريطانيا وأمريكا قد انحصر بصورة رئيسية في ثلاث نواح متصلة بالثورة العراقية وهي ، عنف الرعاع ، واخطاء الوزارة الجديدة ومحاكمات العهد البائد وقادته العسكريين . فقد أقيمت محكمة الثورة في بغداد لتحقق وتحاكم وتعاقب المتهمين بالتآمر والفساد من الحكام السابقين وموظفي الدولة ، وقامت هذه المحاكمات على قانون العقوبات القديم ، وقانون جديد ، انتقده الكثيرون ، لانه يسري على ما قبله ، ووصفه بعض العراقيين بانه قانون سياسي أكثر منه تشريعي . وهذا القانون ضد التآمر والفساد ، يشبه قانون محاكمات نورمبرغ ، في ان الجرائم التي تحاكم بموجبه ، مع انها أصبحت معرضة للعقاب بسريانه على الماضي ورجعيته هي اعمال اتفق على انها بمختلف الاصطلاحات والتفسيرات جرائم ضد القانون والأخلاق، اي اعمال يعرف مرتكبها ، دون وجود القانون ، انها غير مشروعة . وهذا القانون شأنه في ذلك كشأن قانون نورمبرغ لا يحمل عقوبة الاعدام، بالنسبة للجرائم الرجعية واذا ما طلبتها النيابة فتنفيذاً لاحكام القوانين المرعية الاخرى .

والمؤامرات التي عرفها القانون الجديد، ستكون بحثنا في الفصل المقبل ، اما تعريف الفساد فقد جاء على انه قبول الرشاوى والقيام بأعمال منافية للدستور . ولا ريب في ان معظم الاتهامات التي وجهت بموجب هذا القانون تنطبق على الآراء التي سردتها في هذا الكتاب بالنسبة الى العهد البائد . ولعل أبرز مثل على هذه الآراء ، هي تأكيد القانون ، كما سنرى فيما بعد ، لجريمة التآمر بمختلف صوره على البلاد العربية الأخرى ، وتحديد الأعمال المنافية للدستور ، كالتضييق على الحريات ، واستصدار المراسيم لتحقيق المنافع الخاصة وهدر الخير العام ، والتأثير على القضاء والتدخل في حرية الانتخابات وهي قضايا تتعلق حتماً بالارهاب وبالفساد اللذين اتسم بهما العهد البائد . كما ظهرت ايضاً تهم تتعلق بسوء التصرف بأموال الدولة ، كالتهاون في جمعها وقبول الأموال بشكل ينافي المصلحة العامة ، وتبديد الثروة القومية بالاتفاق على مشاريع منافية للصالح العام . ولا

ريب في ان تكرار استخدام كلمة الصالح العام هو تعبير عما يفكر به رجال الثورة واتباعهم .

وقد انتقد الاوروبيون والامريكيون الاصول التي اتبعت في هذه المحاكمات، وكثيراً ما انتقد رئيس المحكمة ، والمدعي العام فيها على تحقير المتهمين ومهاجمتهم ووصفهم بالمجرمين اثناء المحاكمة . وقد برز هذا بصورة خاصة في محاكمة فاضل الجمالي ، الذي يعتبر في العراق ممثلاً لمصالح الغرب ، واكثر الوزراء كرهاً في العراق وحباً في الغرب . وكل من تتبع سير المحاكمات تبين له ان اعضاء المحكمة لكونهم ليسوا من رجال القضاء ، لم يستخدموا الأساليب والأصول القانونية . واورد هنا على سبيل المثال هذه المحاورة التي جرت اثناء محاكمة احمد مختار بابان عندما اعترض المتهم على اللغة التي يستعملها المدعي العام فرد رئيس المحكمة ، مقارناً بين المعاملة الطيبة التي يلقاها المتهم . والمعاملة التي كان يلقاها المسجونون السياسيون في العهد البائد ثم انهى خطابه ، مشيراً الى حريات الشعب .

المتهم : وانا ايضاً من افراد الشعب .

المدعي : ان الشعب براء من هذا الجرم .

المتهم : احتج على هذه الاهانة .

رئيس المحكمة : انها ليست اهانة ، انها التهمة الموجهة اليك .

وهنا ضحك جمهور النظارة مستهزئين بالمتهم . حقاً كان من الصعب على الأجنبي ان يفهم هذا الوضع في المحكمة .

وقد يقال مع ذلك ، ان الرئيس كان على حق في الادعاء بحسن معاملة المسجونين . فالشيء الثابت اثناء هذه المحاكمات ، ان المتهمين لم تُسأ معاملتهم الا علناً وامام الجمهور في المحكمة . وهذه حقيقة رغم قصة سمعتها وانتشرت بسرعة . فقد قيل ان عبدالكريم قاسم قام بزيارة السجن، فالتف حوله المتهمون مهنئين ، إلا وزير سابق ، ظل جالساً على سريره ، وقد ادار ظهره . وعندما

خرج قاسم ، عاد مرافقه بعد قليل فضرب الوزير المذكور على وجهه كاسراً انفه وعندما أطلق سراح بعض المسجونين دون تقديمهم للمحاكمة ، اكدوا اختلاق هذه القصة ، لكنها اذا كانت قد وقعت ، فحادثة فردية . وعلى النقيض اظهرت الحكومة مزيداً من الرأفة . فقد سمحت لمن صودرت أموالهم بالحصول على ثلاثمائة دينار شهرياً للانفاق على عائلاتهم من حساباتهم المصادرة . واما سير المحاكمات فلربما كانت احسن اجراءات من تلك التي وقعت في العهد البائد ، لاسيما وان المتهمين قد سمح لهم بالدفاع عن انفسهم في خطب مطولة . وقد تكلم الجمالي ساعتين ونصف الساعة كما تكلم برهان الدين باش أعيان أكثر من ثلاث ساعات ، وجميع هذه الخطب ، شأنها شأن اجراءات المحكمة الاخرى قد نقلت بالتلفزيون وأذيعت بالراديو على الشعب .

ووصفت هذه المحاكمات بانها روايات تمثيلية . فقد جلس خمسة من الضباط تحت يافطة كتبت عليها بعض الآيات القرآنية وجملة « باسم الشعب » بخط جميل، وأمام الضباط فسحة إلى يمينها أقيم مكبر (ميكرفون) يستعمله الشهود ، وفي الوسط مطرقة يستخدمها رئيس المحكمة . وقد سمح للمصورين بدخول قاعة المحكمة وأخذ الصور التي يريدونها للمتهمين والقضاة . أما الجمهور فينتشر في القاعة والألواج ، وهو يضحك عندما تسمح له المحكمة بذلك وينصت عندما تأمره بالانصات . واني لأقول ، اذا كانت هذه المحاكمات روايات مسرحية فان مخرجها ومدير مسرحها من الهواة . وكثيراً ما انتقد العراقيون هذه المحكمة اذ شعروا بانه كان في الإمكان ان تدار بصورة أحسن لكنهم اعترفوا ، بانها خدمت غرضاً نافعاً في تطهير البلاد .

وكل ما ذكرته في هذا الفصل هو شرح وضع الثورة في الأشهر الثلاثة الاولى من وقوعها وفي نهاية هذه الأشهر الثلاثة كان الاصلاح والحرية ، وهما الهدفان الرئيسيان قبل الثورة ما زالا كذلك وان كان العمل لتحقيقهما ما فتىء قائماً . وبعض رجال العهد البائد مع سماحهم للفساد ، او قيامهم به ومساعدتهم للارهاب فكانوا يحاولون القيام ببعض الاصلاحات الادارية التي تقع ضمن

صلاحيتهم واختصاصهم اما الثورة ، فقد جعلت من الممكن ، مجابهة موضوع الاصلاح كلية لانها أزاحت من طريقه جميع العقبات القديمة ولا سيما سلطة الشيوخ . أما مشكلة الحرية فكانت أكثر تعقيداً ، والحرية الاولى التي طلبها الشعب وهي رفع القوى المكروهة قد تم الوصول اليها ، أما الحرية الكاملة فما زالت في الطريق ، اذ ليس في امكان اية ثورة تحقيق الحرية التي تريدها حتى تجد موازنة القوى اللازمة لذلك .

الفصل الثامن

الشؤون الخارجية

يأمل العراقيون الان ، ان يصلوا في علاقاتهم مع الدول الخارجة عن نطاق العالم العربي ، الى ما ارادوه دائما ، وهو ما حدده عبد الكريم قاسم بقوله « صداقة مع جميع الدول مبنية على المنافع المتبادلة » . وعلينا ان لا نقف طويلا عند هذا القول لنحاول تفسيره . انه يعني ان العراق لن يقبل اتفاقية للبترول لا توزع عادلا ثمراتها على الفرقاء المعنيين . واذا ما تبين ان بلادا اخرى منتجة للبترول ، قد حصلت على فوائد اجزل من التي يأخذها العراق وفقا للاتفاقية الحالية ، فان هذا يعني وفقا للسياسة الجديدة انها لن تستمر وتعمر طويلا . وحجة العراق ان ما تقبل به شركة منتجة من ارباح . يجب ان يكون كافيا لاية شركة اخرى . وطبقا لهذا التفسير ، فليس هناك ما يدفع العراق الى قطع البترول عنا ، وليس من دليل على انه سيقطعه . فجميع الدلائل مطمئنة حتى الآن .

« الصداقة مع جميع الحكومات » ، يمثل اتجاها سليما باظهار الود نحو الجميع مع رفض اية التزامات عسكرية سبق للعراقيين ان كرهوها بشدة ، وكانت التهمة الرئيسية التي وجهت الى الدكتور الجمالي ، هي انه ادنى بلاده من خطر التعرض للحرب الذرية . وسياسة العراق الجديدة ترفض جميع المحالفات

العسكرية وجميع المواثيق الاقليمية خارج نطاق العالم العربي . ويمثل ميثاق بغداد الذي كرهه العراقيون كثيرا ، جميع ما يريد العراق تجنبه وهو العزلة عن الجيران العرب ، ووضع الخطط لاقامة دولة العوبة في سوريا ، والتقيد بالتزامات عسكرية للدفاع عن شعوب تبعد الوف الاميال عن العراق ولن يقبل اي عراقي عقد معاهدة صداقة مع اية دولة غير عربية ، الا اذا كانت متفقة مع الوحدة العربية ، ومثل هذه المعاهدة بالنسبة اليهم ، كعقد معاهدة بين مانشستر واسبانيا تتجاهل بريطانيا نفسها .

ومنذ الايام الاولى للثورة اتجه رأي الحكومة الجديدة طبقا لوجهة نظر الرأي العام كافة قبل الثورة الى ان اغراض ميثاق بغداد المشروعة يمكن تحقيقها عن طريق عضوية الامم المتحدة ، وعن طريق وكالاتها ، وهيئاتها المختلفة . وهذا ينطبق على قضية الدفاع ايضا فقد اعلن رئيس الوزراء ان سلامة العراق تتوقف على جميع دول العالم ، وهذا يعني انها تتوقف على المحافظة على السلام العالمي . وسيكون للبلاد فرصة احسن لتجنبها الحرب ، وفي حالة الحرب ، لن يكون نصيبها اسوأ ، مما اذا ارتبطت بمعاهدات تعني الاحتلال العسكري وقد تعني ان تصبح ميدانا للحرب ، وهكذا فان اول قرارات اتخذتها الحكومة الجديدة ، اتفقت مع الرأي العام العراقي في معاملة جميع الدول الاجنبية على قدم المساواة .

وهذا يعني ان العراق لن يدخل في حلف ضد روسيا لا حبا بروسيا نفسها وانما دفاعا عن العراق ، وعلى ضوء رغبة العراق في الاستقلال ، يمكن فهم موقفه من روسيا ومن موضوع العلاقات العراقية السوفياتية بصورة عامة . والحاجة الى الاستقلال هي المبرر لان الدولة المستقلة هي الدوله النافعة الفعالة . والسؤال الان هو هل يمكن استخدام روسيا لدعم هذا الاستقلال ، او على الاقل لدفع الخطر الروسي الذي كان قائماً عندما كان العراق عدوا لروسيا . والحجة التي تستعمل دائما ضد الحياد ، هي انه امل ضائع ، لكن العراقيين لا يرون هذا الرأي مطلقاً ، ومعظمهم يخشى التدخل من الغرب اكثر من روسيا . ويرى الرأي العام انه ولو كان خطر تدخل الروس مماثلا لخطر الغرب ، فان خطر

التدخل الغربي اقرب وقوعا ، وكثيرون هم الذين يرون في الشيوعية خطرا حقيقيا ، ويودون اتخاذ الاجراءات للتخفيف من هذا الخطر ، ولكن ليس هناك من عراقي واحد ، يرى في الشيوعية خطرا اكبر من الاستعمار . فقد ظل العراقيون مدة طويلة معزولين عن اي اتصال بالشيوعية او بروسيا وكنتيجة لذلك ، لم تكن لهم اية تجربة مع اي منهما ، ولكن كانت تجاربهم عديدة ضد الاستعمار . فالاستعمار بالنسبة للعراقيين يعني التأييد المباشر وغير المباشر الذي قدمه الغرب للعهد البائد ، وهو تأييد طالما عانوا من مرارته . والنقاد البريطانيون والامريكان ، كانوا يظهرون الضجر من أي تململ يبديه الشعب العراقي ، فكانوا يلجأون الى اعمال يعتبرونها هم دفاعية ، بينما هي بالنسبة الى العراقيين عدوانية هجومية وعلى كل كانت نظرة الفريقين للامور نسبية ومختلفة لان كلا منهما يراها من الزاوية التي هو فيها .

وكثيراً ما قلنا للعراقيين ان روسيا لن تقدم عوناً دون مقابل ، وهذا صحيح بالنسبة لروسيا ولكنه صحيح وعلى المدى الطويل بالنسبة لجميع الدول الكبرى . ويبدو ان روسيا قد اختارت المدى الطويل. فلا تشترط اية شروط في المساعدات التي تقدمها قائلة « تعالوا فقط وخذوا ما تريدون » . ويعتقد بعض العراقيين من المحافظين ان في الامكان الثقة بروسيا ، وانها تريد فقط ، وفي الوقت الحاضر أن تكون على علاقات طيبة بدول الحياد . وهنا عراقيون آخرون من الجهلة الاميين ، ما زالوا ينظرون إلى الدول الكبرى نظرة الطفل إلى أبيه ، كانوا يتوقعون المساعدة والعون من بريطانيا فطاشت أحلامهم في معركة السويس وأصبحت روسيا تمثل لهم صديق المستقبل الذي سيقدم المساعدة للشعب ، وهذا الرأي خطر للغاية ويستهوي حتماً ذوي الثقافة المحدودة . والخطأ فيه انه حتى ولو افترضنا ان روسيا لا تؤلف خطراً على العراق ، فليس من الصواب البحث عن صديق يعتمد عليه ، وعلى اولئك الذين تخلصوا من الاستعمار أن يقفوا على اقدامهم بانفسهم وان لا يعتمدوا على الآخرين . وعندما تقف الجماهير في شوارع بغداد لتصفق للسفير السوفياتي عندما يمر بسيارته فانها

تقوم بذلك بدافع او بآخر وهذا على كل حال يعكس خلافاً واضحاً في الرأي ، فالطبقة الوسطى ، والحكومة المنبثقة عنها أقل ثقة في روسيا من الطبقة العاملة ، أما الجميع فمتحدون في عدم الثقة بالاستعمار .

ويعتقد الكثيرون من العراقيين ان بريطانيا انسحبت من مصر في عام ١٩٥٦ ولم تغز العراق في عام ١٩٥٨ خوفاً من روسيا . واذا صحت هذه الرواية ، واعتقد انها غير صحيحة يكون العرب قد جربوا المساعدة الروسية غير المشروطة . وبعض العراقيين لا يرون هذا الرأي ، ومع ذلك فهم يثقون في روسيا إلى الحد الذي يحملهم على التصديق بانها لم تسمح للشيوعيين باشتداد النشاط في العراق . ويبدي العراقيون اهتماماً كبيراً بالصين كدولة اسيوية ، فاذا لم تقم روسيا والصين باثارة نشاط سياسي شيوعي كبير في العراق ، فسيعتقد العراقيون ان قصص التغلغل الشيوعي ما هي الا اختراع وفبركة غربية جديدة او مبالغة على الأقل . ويبدو ان الحكومة عازمة باصرار على التمسك بالمبادىء التي دافع عنها افرادها عندما كانوا في المعارضة ، ولذا فعليها أن تعطي الشيوعيين نفس الحرية أيضاً وان واجبها التزام الحياد الحقيقي باعطاء جميع الأجانب فرصاً متساوية ، وهي عقيدة قد تحملها أيضاً على ايقاف جميع مظاهر النشاط السياسي للدول الأجنبية . ولعل هذه الرغبة في مصادقة الجميع هي التي تحمل الحكومة العراقية على اتباع سياسة أكثر حذراً وتخوفاً فهي ترى ان نجاحها في منع تحارب الأجانب على أرضها ، يتطلب منها أن لا تسمح لعدد كبير منهم بالاقامة في العراق ، ومثل هذا الرأي قد لا يوافق العراقيين الذين هم في الحقيقة شعب ودود .

واتباعاً لهذه السياسة ، نفذت حكومة الجمهورية اجراءاتها لانهاء ذلك العهد الذي كانت فيه المشورة البريطانية والاميركية عن طريق حلف بغداد توجه دفة السياسة العراقية ، وستمضي حتماً في هذا التنفيذ في المستقبل . وعلى بريطانيا ان تتوقف عن كونها الحليف المفضل الذي يتمتع بمركز ممتاز في تقديم الخبراء وهذا ينطبق ايضاً على الاميركيين الذين نجحوا إلى حد بعيد في الحصول

على نفس المركز . ففي الفترة التي تلت قيام الجمهورية فصل عدد من الموظفين البريطان ، وطلب إلى عدد من رجال الأعمال الانكليز أيضاً مغادرة البلاد . ولكن الحكومة لم تطرد جميع الموظفين البريطان ، وظل في البلاد معظم رجال الأعمال دون أي ازعاج ، باستثناء ما شعروا هم به من عدم استقرار نتيجة لما وقع ، وترددا منهم في مواجهة تنافس تجاري واسع النطاق مع مختلف بلاد العالم .

ويبدو ان هناك دوافع متعددة وراء طرد بعض الموظفين البريطان وتجديد عقود البعض الآخر منهم . ففي بعض الحالات ، رئي ان في الامكان ان يستعاض عن عدد منهم باشباههم من العرب (المصريين اذا تعذر ايجاد عراقيين ، كان هناك بعض المناصب ، من ناحية السلامة العامة ، رئي ان من غير المناسب ابقاء الاجانب الذين يتجه ولاؤهم في الدرجة الاولى إلى غير العراق . والاستقلال لا يكون حقيقياً ، إلا اذا مارس المستقل حقه تماماً ، وهكذا شعر العراقيون أنهم باخراجهم هؤلاء البريطان قد اصبحوا مستقلين حقاً . واذا كان الشعب البريطاني قد استنتج من اخراجهم وطردهم ان نفوذ بلاده في العراق قد زال ، فهو على حق في هذا الاستنتاج ، لأن العراقيين يؤمنون ، ان نفوذ البريطان كان اكثر من اللازم في دولة مستقلة وسيدة نفسها ، وعلينا تبعا لذلك ان نصدق قاسم عندما يقول ان العراق يريد ان يحافظ على اصدقائه القدامى وان يبدأ صداقات جديدة ايضاً .

ويبدو ان هناك بعض سوء الفهم تجاه مستقبل الثقافة الغربية في البلاد العربية . فالنقد الغربي ، امريكي اكثر منه بريطاني ينصب على هذه الناحية وعلى عدم فهم العرب للطريقة الغربية في الحياة ، فماذا يضيرنا لو لم يفهم العرب طريقتنا هذه . والشيء الذي نأمله ونرجوه بحكمة وتعقل ، هو ان يعرف العرب ويفهموا انتاجنا الثقافي والفني وان يظلوا عربا رغم فهمهم له ، اما اولئك العرب الذين يقلدون البريطان والاميركان والفرنسيين فقد اضاعوا الفرصة لان يكونوا حلقة اتصال بين العرب وبيننا لا لأنهم لم يعودوا عربا . ومن الحق ان يقال ان الرأي

السائد في العراق الان هو مزيج من الفكر العربي والاسلامي مقتبساً اراء وافكاراً اخذت عن الغرب .

والتقاليد الثقافية الاسلامية تطلع من نفس الجذور التي تطلع منها الثقافة الغربية ، الديانات المتشابهة والفلسفة والعلم الاغريقيان . وعندما يدرس العراقي في الغرب ، لا يشعر بهزة عنيفة في آرائه ومعتقداته . امـا الفكر العربي في محتواه الحديث فمدين بصورة خاصة الى فلاسفة الثورة الفرنسية ومفكري القرن التاسع عشر ، وهم الذين قامت على كتاباتهم ومؤلفاتهم طلائع النهضة الادبية العربية منذ بداية القرن الحـالي . ويتميز الادب العربي الحديث بالنزعة الرومانطيقية ، وهذا يبدو جليا في كتابات الاديب اللبناني الامريكي جبران خليل جبران ، الذي ذكرته على سبيل المثال ، لا لأنه خير كاتب عربي بل لان بعض كتاباته كانت بالانكليزية مما يسهل على قرائي الانكليز فهم ما اريد قوله . وهذه الرومانطيقية في الادب العربي هي عين ما يطبع ادب الغرب ايضا . ولا شك في ان النظريات السياسية الحديثة لا سيما النظرية الاشتراكية ، قد اثرت على العالم العربي المثقف كما اثرت على عـالمنا نحن ، على الرغم من ان العرب لم يمروا حتى السنوات الاخيرة بتاريخ التطبيق العملي في التجربة الاشتراكية . وقد تركت الاندفاعات العربية الحديثة اثراً بارزاً في الادب العربي ايضاً ، وبقيام عبد الناصر والثورة في العراق اتجه الميـل إلى التحرر من نفوذ الغرب الأدبي ، فمن الطبيعي أن تتبع الحرية السياسية حرية أدبية ، وستمكن الحريـة الحقيقية العرب من اقتراض الآراء والأفكار دون التخوف من إضاعة استقلالهم او الشعور بالنقص . والاتجـاه الفكري بين العرب اليوم ، ينبع من رغبتهم في أن يقفوا على أقدامهم ، لكن محتويات هذا التفكير ، وأسسه وجذوره تشبه تفكيرنا نحن .

وهذا يعني ان العربي اذا ما زار الغرب ، فسيجد كل ما يراه مألوفاً وطبيعياً وغير مستغرب ، فلا يرى في الغرب أمراً عجيباً . ويؤيد هذا القول ، ان عدداً كبيراً من العراقيين قد تلقوا تعليمهم الجامعي في الغرب ، وان رغبة الحكومة الحالية في الوقت الحـاضر على الأقل ، هي ان يزداد هذا العدد لا أن ينقص .

وكل من يدرس في بلاد ، يظل مرتبطاً بها ، حتى ولو عارضها أو قاومها ، إلا إذا كانت اقامته في تلك البلاد شكلية وغير سعيدة وهذا ما يندر وقوعه لدى طلبة في سن ناضج . فالمثل التي تعلمها العراقيون في الغرب ، كالعدالة والمساواة، والخير العالمي والولاء للوطن ، هي التي أثارت سخطهم على الغرب ، لانهم رأوا دولة تعارض وجودهـا في الشرق . ونحن في الغرب نتعلق بالاسس التي يقوم عليها كفاح العربي من أجل الاستقلال والحرية وعدم التدخل ، فعلينا إذن أن نفهم كفاح الغربي من اجلها وأن نرحب به ونشجعه وهذا الامتياز الذي تتفوق به على الشيوعيـة يؤمن للغرب أجزل الفوائد ، إذا ما زالت من نفوس العرب روح الشك بالغرب . وواجبنا هو أن نعمل وسعنا لزواله .

ومما لا شك فيه ان التخوف من الاجانب قائم في العراق، وان كان مايروى عنه مبالغ فيه . ففي جميع بلاد العالم يقوم الشك في الاجانب، ونحن في انكلترا شعرنا في الحربين العالميتين الماضيتين بالتخوف من الاجانب لارتبـاط فكرة الجاسوسيـة بهم . ويشعر العراق انه كان ضحية عدوان لا يقل خطورة عن الحرب ، فاذا وجد فيه شعور التخوف من الاجانب فهذا امر طبيعي ففي أيام الثورة بالغ الشعب البريطاني في الحديث عن العداء الذي يبديه العراقيون للاجانب من ذوي الشعور الشقراء والذي يظهر فيه «البصاق» والقذف بالأحجار فاذ ما يبصق عراقي في الشارع بصورة عادية وحدث ان كان شخص بريطاني يمر على مقربة منه ظن هذا البريطاني انه المقصود بالبصاق . إذ لم يقم اي دليل ، على انعراقياً قد بصق في وجه بريطاني وهو عمل يشير حقاً إلى الاحتقار والعداء اما الاحجار ، فقد قذف بها في بعض الحالات على سيارات عابرة ، ولكن مثل هذه الحوادث كانت تقع ايضاً ايام العهد البائد . وفي معظم الحالات كان قاذفو الحجارة من الصبية ، من سكان الاحياء الفقيرة وقذفهـا لا يعني مطلقاً التخوف من الأجانب ، اذ انها كثيراً ما استهدفت سيارات الاثرياء العراقيين ، فهي مظهر من مظاهر حقد الفقراء على الاغنياء ، وعلينا ان لا نتناسى ان الأجانب جميعاً كانوا في رأي الفقراء العراقيين من ذوي الثراء ، وفي وسعي ان اؤكد ، انه

كان في وسع كل شخص أن يتجول في انحاء بغداد الثورة بحرية ودون ان يتلقى أية اهانـــة .

ويقينا ان ليس ادعى الى كرهك شخصا مـا من شعورك بان هذا الشخص يكرهك . والعكس بالعكس ، فالقلوب شواهد ، والارواح جنود مجندة . ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف . وهكذا فـــان انطـلاق روح كراهية الاجانب والتخوف منهم من عقالها يثير في نفوس المكروهين شعورا بالمرارة والسخط ، لا سيما اذا اعتقدوا ان ليس هناك من مبرر لهـذا الشعور ، وانهم قبل قليل ، كانوا المحبوبين المفضلين هذا ما وقع للبريطانيين بالضبط ، فقد كانوا قبل الثورة محاطين بنفر من الناس يداجونهم ويظهرون لهم الود لاستغلال وجودهم في البلاد فلما جاءت الثورة ، اختفى هـــؤلاء الناس باختفاء المبررات لصداقتهم الزائفة .

وحوادث كره الاجانب في رأيي ، كانت نادرة وقليلة ، ولعل اسوأ هـذه الحوادث ما وقع في اليوم العاشر من الثورة ،عندما اشتعلت النيران في خزانات البترول القائمة عند السد الذي يحيط بالمدينة والتي تقع على مقربـــة من اكواخ الفقراء ، واحد الاحياء المسيحية ، وكما يحدث عادة من حرائق كهذه ،انتشرت سحب الدخان الاسود فغطت جزءاً من المدينة واخـذت انفجارات الخزانات تتوالى باعثة الرعب في القلوب، بينما بعثت السنة اللهيب حرارة منقطعة النظير، وغدا الكثيرون بلا مأوى ، وفي نفس الوقت حـــدث حريق اخر في بناء كبير يقيم فيه اللاجئون الفلسطينيون . وانتشر شعور بالفزع في انحاء المدينة . وقد منع موظفو شركات البترول من البريطانيـــين من الاشتراك في مكافحة النيران لان الشك في بادىء الامر اتجه الى ان هذه النيران من افتعال المخربـين الاستعماريين الاجانب . وذهب جنديان امريكيان من حرس السفارة، الى مكان الحادث يتفرجان على النيران ويا لحماقـة ما صنعا – فاعتقلهما الجنود على الفور وما لبثا ان اطلق سراحها بعد تحقيق قصير ، ولكن ، بعـد ان سمعت بغداد كلها ان مخربين امريكيين هما اللذان قاما باحراق الخزانات وانهما قد اعتقـــلا .

وبدا ان اصدار بيان رسمي من الحكومة تعلن فيه اسباب الحريق سيضع حدا لجنون الشائعات والاقاصيص ، ولكن الحكومة اثرت ان تترك العـــاصفة تمر وحدها دون تعرض حتى تهدأ بطبيعتها . ولعل اكثر افراد الجمهور شكا كان عدد من الجنود ورجال الشرطة ، الذين يسكنون تلـــك الاكواخ الفقيرة التي هددتها النيران والذين تأثروا شخصيا بالحادث وشعروا في الوقت نفسه بمسؤوليتهم عن حفظ الامن .

ومن الجدير بالذكر ان قليلين اعتقدوا ان سبب الحريق كان عرضيـا . ولذا فليس من المدهش وقد اخذ الحادث على انه مدبر ومفتعل ، ان يعلن بانـــه من عمل المخربين الاجانب . ومثل هذا الشعور ،قد يحس به كل شعب نحو الاجانب، وعندما خمدت النيران وانحسر الخطر ، زالت المخاوف وهمد الهياج في النفوس تبعا لذلك . ولعل قصة حريق روما في عهد الامبراطور نيرون والقاء تبعتهـا على المسيحيين الاجانب ، وثورة الجماهير ضدهم خير صورة ، تبرر ما شعر بـــه العراقيون ايضاً .

وحدثت ايضاً بعض الوقائع ، من الشك في الاجانب كان ابطالها من الضباط الذين شعروا بأن الحفـاظ على الامن جزء من مسؤوليتهم حتى ولو كانوا خارج الوظيفة فعندما يرى هؤلاء شخصاً يزور بيتاً يقيم فيـــه بريطاني كانت تساورهم الشكوك في ان مؤامرة يجري طبخها واذا ما زار جندي عراقي شخصاً بريطانياً فهناك مؤامرة، لأن الجندي لايمكن أن يكون صديقاً لبريطانيا هذا هو التفكير الشائع ، في أوقات الشك . وكان هناك خوف شديد من الوثائق . فنحن جميعاً نحمل في كل الأوقات ، أوراقاً ورسائل ووصولات وفواتير وبطاقات وماشابهها فاذا ما حدث ، وسلم شخص أجنبي مظروفاً إلى مكتب أحد الفنادق ، فان أي ضابط شاهد التسليم يصر على فتح المظروف وتفتيشه . وهذا في حد ذاته أمر ليس بمهم ولكن بعض الأجانب كانوا يقابلونه بالسخط والغضب . فهذه المظاهر جميعها كانت دلائل على عدم الثقة ولها من الوقائع ما يبررها وهي لا ترمز الى شيء شاذ او غير طبيعي في علاقات العراقيين .فالاعتقاد ان البريطانيين والامريكيين

ميالون الى التآمر على الشعب العربي والجمهورية العراقية ، له ما يبرره من ادلة وقرائن ، مع ان هذه الدلائل قد يكون لها تفسير اخر . وكان زعماء الثورة يحذرون الشعب باستمرار من اعمال التدمير الاستعمارية التي — كما قال قاسم — قد ترتدي برداء ، القومية والوطنية والعروبية .

ومن الجائز القول بأن حجر الزاوية في سياسة الجمهورية الخارجية ، هو ان لا تكون العلاقات مع البلاد العربية الأخرى موضوع سياسة خارجية مطلقاً ، فالوحدة العربية كما قال رئيس الوزراء ، كانت أحد الهدفين الرئيسيين للثورة . ولكنه بعد أيام من قوله هذا ، استنكر السرعة ، وأكد هدفه في الوصول إلى استعادة الوحدة العربية ، على جانب من الأهمية ، لأنها تحسر النقاب عن ان الحدود التي تفصل البلاد العربية ، لم تكن من وضع العرب أو بطلب منهم . وكان حديث الوحدة الموضوع الرئيسي في جميع الخطب التي ألقيت في الأيام الأولى للجمهورية ، وكذلك فيمابعد أثناء الزيارات التي قام بها للعراق ممثلون من الجمهورية العربية المتحدة ، وسيف الاسلام البدر ووفد كويتي .

وليست هناك من حاجة للاسباب في بحث هذه النقطة ، لكن علينا تأكيدها اذا أردنا تصوير مشاعر العراقيين فحتى بعد اختفاء عبد السلام عارف من مسرح الحكومة ، وهو ما فسر كثيراً بأنه كبح لجماح قضية الوحدة مع مصر ، لم يكن هناك أي مجال للشك في ان الوحدة ظلت الهدف الرئيسي ولقد قال قاسم ان العرب يعيشون في بلاد عدة ، وهذا لا يعني إلا ان اخوة من عائلة واحدة يعيشون في بيوت مختلفة ثم عاد ليقول : ان العراق جزء لا يتجزأ من الشعب العربي ، وان سيادتنا المطلقة هي سيادة الشعب العربي ، وهو ما نوليه اهتمامنا فوق كل اعتبار .

وسيطرت فكرة الوحدة العربية على المحاكمات الأولى في محكمة الثورة . وتهمة التآمر التي وجهت اليهم قد حددت بأنهم استعملوا نفوذهم ليشجعوا أو ليسهموا في أعمال تؤدي الى اشتراك في الحرب أو إلى التدخل في شؤون البلاد العربية الأخرى . واذا ما تذكرنا دائماً العقيدة الاجماعية في الوحدة العربية ،

تبين لنا ان التآمر ضدها ، كان يعتبر جريمة قبل ان يوضع قانون تشكيل محكمة الثورة . وكان اول الذين قدموا للمحاكمة شخص ادعى في المحكمة انه حاول كثيراً الحد من مطامع عبد الاله في سوريا وانه فكر في مؤامرة من وضعه ، يؤدي نجاحها الى عودة الصداقة بين مصر والعراق ، وإلى ازاحة عبد الاله عن ميدان السلطة مع الاحتفاظ بالملكية وقد أورد محامي الدفاع قرائن تقول ان المؤامرات التي جرت لرشوة القبائل البدوية السورية القاطنة على الحدود والقصد منها وقوع حوادث تؤدي إلى التدخل ، هي جزء من الخطة الرامية إلى خلق عرش في سوريا إلى عبد الاله . وكان هذا الدفاع مؤثراً للغاية ، ترك صداه في مستمعي المحاكمة على الراديو والتلفزيون لانه عكس ما كان يشعر به الرأي العام من أهمية الوحدة العربية وضرورتها . أما فاضل الجمالي فقد دافع عن سياسته بوجه عام واعتقد الدبلوماسيون الامريكيون أن آراءهم قد فسح لها المجال عن طريق دفاعه لتذيع وتنتشر أكثر من أي وقت مضى . أما المحكمة فقد اعتقدت ، انها اظهرت آراء الجمالي على حقيقتها من عدم الثبوت والتناقض وان الولاء للعرب وللسياسة الانكلو — أميركية في آن واحد أمر مستحيل .

وأخذ الشيوعيون ينشرون الدعوة الى اقامة اتحاد فيدرالي مع مصر ، مخافة ان تأخذهم الوحدة الشاملة على غرة ، وتؤدي إلى اضطهادهم . ولم يكن هناك من شك في ان وحدة من نوع ما ستتم ، فالوحدة مع مصر اضحت قريبة ، وأخذت الحكومة تعالج هذا الموضوع بالاناة والصبر وعدم التسرع التي عرف بها عبدالكريم قاسم . ولاشك ان كل أحمق فقط ، يمكن أن يفترض ان التطور الطبيعي في البلاد العربية والتحرر من النفوذ غير العربي من كل نوع ، لا يؤديان حتماً إلى وحدة مصر مع الدول العربية في آسيا ، وهذا يعني لا الجمهورية العربية المتحدة والعراق فحسب ، بل والاردن والعربية السعودية ، والمشيخات العربية ، وعدن مع ارتباط لبنان بعرى أقل وثوقاً . وقد لا تكون قوة الارتباط على نفس المقياس مع جميع هذه الفروع ، وهذا هو الموضوع الذي نال من النقاش العام القسط الأوفر من العناية . واحترام العراقيين العظيم لعبدالناصر ،

لم يغط على رغبة البعض في تنظيم الحياة السياسية في العراق على الاساس الحزبي، مع السماح بحرية التعبير السياسي اكثر مما تسمح به مصر . امـا في الجمهورية العربية المتحدة ، فيبدو ان الرغبة في توسيع الوحدة التي شملت سوريا على الفور لتضم العراق لم تكن موجودة اذ ان هذا الشمول يعني عوائق عدة في مقدمتها اتساع الرقعة وتعذر المركزية . ولكن مهما كانت الشكوك ، والخلافات فقد كان المؤكد ان الاجماع قائم ، على ان نوعاً من الوحدة السياسية يجب ان تتم حالاً للتعبير عن الوحدة العربية .

هذا هو الوضع الذي اقحم الأمريكيون ابانه قواتهم في لبنان والبريطانيون في الأردن ، دون ان تتراءى لهم اية علامة على ايجاد حل دائم . وبعـد رحيل هذه القوات ، ظلت المشاكل الرئيسية على مـا كانت عليه . فالملك حسين ، يجب ان يظل في اعين البدو فقط الحاكم المفضل ، لانهم يتلقون منه كجنود مستأجرين ، اموالاً لا يستطيعون الحصول عليها لو عادوا إلى الصحراء ، رعاة للابل . والحقيقة القائمة في انه مكروه من بقية رعاياه ، تجعل نهايته او خروجه من البلاد امرين محتومين والسؤال الوحيد ، هو إلى اي مدى ستمضي بريطانيا بعناد واصرار في تأييد نظام فاشل عاملة في تأييدها هذا ، على زيادة الكراهية المتأصلة في النفوس لها وحتى لو خرجت القوات البريطانية من البلاد ، فسيظل خطر استخدام القوة في اي مكان في العـالم العربي ، أمراً قائماً ، فمنذ معركة السويس ، حيث عادت بريطانيا اليها بالقوة ، بعد ان خرجت منهـا بطريقة التفاوض ، ظل الشك يساور نفوس العرب دائماً في نوايا البريطانيين .

وقد قوبل تدخـل الأمريكان في لبنان بتسامح أكبر ، لا لان نهاية هذا التدخل بدت قريبة بانتهاء عهد شمعون . ففي لبنان لم يؤيد شمعون الا جزء من المسيحيين الذين ظل بطريركهم يؤكد كل يوم ان من واجب المسيحيين الشرقيين ان يتعودوا العيش مع المسلمين ، وان دينهم المسيحي يأمرهم بذلك . وقد نقلت الروايات وقوع حوادث عنف بين الفريقين ، وسواء اصحت هذه الروايات ام لم تصح فان مجرد التحدث بها يرمز إلى وجود العنف . ولقد كان السبب في بعث

هذه الاحقاد والكراهية المحاولات التي قام بها عهد شمعون لربط لبنان بالاحلاف العسكرية الغربية والأقاويل التي نشرها هذا العهد عن « العدوان غير المباشر » (الذي سأبحثه في فصل لاحق) ، مؤكداً الحقيقة وهي ان الوصول إلى تسوية مرضية لغالبية اللبنانيين بما في ضمنهم الذين يحاربون عهد شمعون ، واولئك الذين ظـلوا في معزل عن الثورة ، كان أمراً ممكناً شريطة ان يستقيل شمعـون ، من رئاسة الجمهورية قبل ان يرغمه الدستور على التخلي عنها . ومن المؤكد ان ارتباط لبنان بالعالم العربي سيكون أقل وثوقاً من اي جزء عربي آخر ، هذا إذا ارتبط ، وإذا لم تنجح المحـاولات لارغامه على الدخول في احلاف عسكرية غير عربية .

وفي العراق،كان السخط من وجود جيوش الاحتلال البريطانية والامريكية في الاردن ولبنان وما يحمله هذا الوجود من معنى التهديد المستمر ، كـافيـا لاستمرار ذلك الشك التقليدي في نوايا الغرب ، في فترة دقيقة ، ابدت فيهـا الحكومة العراقية استعدادها ، للتفاهم على اساس من الحياد . وكان العراقيون على استعداد لمواصلة التعاون معنا ، لو اننا بدأنا هـذا التعاون بقبول فكرة « الشعب العراقي المحايد » . اما من الناحية البريطانية فقد سار شعور العـداء نحو العهد الجديد ، جنبا الى جنب مع شعور الشك عند العراقيين بالبريطان . وكان البريطانيون من غير ذوي الاراء المتحررة ، على استعداد دائمـا للحط من قيمة العهد الجديد سواء في احاديثهم او في رسائلهم الخاصة التي يبعثون بهـا إلى اهليهم في الوطن . وكانوا يرددون في هذه الرسائل بفرح زائد ، كل علامة على تململ الشعب العراقي او بعض افراده من تأخر العهد الجديد في اعلان برامجـه الاصلاحية ، ويتنبأون بقيام العصيـان المكبوت في النفوس . وكانوا يستمعون بابتهاج الى كل ما ينقله اليهم بقايا العهد البائد من اخبار عن وقوع خلافات بـين الحكام الجدد ، كما كانوا يفسرون الخوف من الشيوعية لدى العديد من الطبقات كاعتراف من هذه الطبقات بان سياسة حلف بغداد كانت صحيحة مع ان مثل هذا الرأي لم يدر قط في خلد احد من العراقيين باستثناء اولئك من بقايا العهـد

البائد الذين ايدوا كل ما قام به عهدهم وحاول الامريكيون بصورة خاصة اقناع انفسهم بان دفاع الجمالي عن نفسه في محكمة الثورة قد فتح عيون الكثيرين وكأن كراهية الاغلبية لحلف بغداد نجمت عن عدم فهمهم له . وادرك العراقيون ان النقاد الاجانب لم يحملوا ميلا قط للحكومة الجديدة وانهم اي النقاد يشكون في ان العراق قد ارتبط في سياسته الخارجية بسياسة عبد الناصر ، او سياسة خروتشيف او كليهما معا . وهكذا فقد ساد افكار جميع العراقيين ، الشك في الغرب ، واحتمال تدخله المستمر لحماية المصالح البريطانية كما ساد افكار بريطانيا السخط على فشل سياستها وهي السياسة التي حكم عليها بالفشل منذ امد طويل قبل قيام الثورة .

وكانت الخطيئة الكبرى في وجهة النظر البريطانية اعتقادها بان العرب يتأثرون باستعراض القوة ، كما كانت خطيئة الامريكان الكبرى ، لان استعراض القوة بالنسبة لروسيا ، يؤثر على شعوب العالم ، بصورة تختلف عن الفزع . فمن الناحية البريطانية كانت هناك ذكريات متشابكة عن الحملات التأديبية الاستعمارية على العرب ، وعن دبلوماسية وزارة الخارجية التي يفرضها تهديد الاساطيل . اما من الناحية الامريكية فالخطيئة تقوم في عجز الامريكان عن ادراك ان العالم لا ينظر اليهم كما ينظرون هم الى انفسهم: صليبيون، يحملون اسلحتهم الكاملة البراقة . فاستخدام القوة ضد العرب يستنفر تصميمهم على موازنتها بطلب حماية القوة المضادة ، وهي قوة الشيوعيين حتما . وهذا لم يقع في العراق بعد . ولكنه سيقع حتما . اذا لم يجر تبدل جوهري في السياسة البريطانية والامريكية. وليس هناك من طريق امثل ، للدفع بالمحايدين الى احضان التحالف مع الروس الا استمرار هذه السياسة . وقد تميزت الشهور الاولى من الثورة العراقية بالشك في نوايا الغربيين وهي سحابة لا تلبث ان تزول اذا ما اتبعنا سياسة الحياد بتصميم وأدراك .

وان ما يطلبه العرب جميعاً هو الوحدة في دولة عصرية تستطيع من الناحية الفنية ، اعالة نفسها ، واتمام الاصلاحات التي تريدها دون الارتماء في احضان

أحد . والقليلون الذين لا يريدون ذلك، سواء أكانوا من الشيوعيين او من انصار الاستعمار . هم اولئك الذين فقدوا الأمل في انفسهم ، والذين تعوزهم عناصر الثقة بقدرتهم . ولقد قام بثورة العراق اولئك الذين ارادوا ان يقفوا على اقدامهم . وعلى كل من يرغب في التعامل مع العرب ونحن في مقدمتهم ، طالما اننا نريد الاستمرار في ابتياع البترول منهم ، ان يدرك قوة هذا التصميم سواء القى في نفسه هوى او لم يلق . وكل علاقة مع العرب لا تقوم على هذا الأساس غير مقدر لها الاستمرار والنجاح .

الباب الرابع

ماذا على البريطانيين ان يعملوا

مذكرة ايضاحية عن الباب الرابع

سأحاول في هذا الباب استخلاص النتائج من كل مـــا ذكرت في الفصول السابقة . فحتى الان كنت انقل ما يفكر به الشعب ،وابرز العلاقة بين التفكير وبين العمل الثوري . اما في هذا الباب فساحصر اهتمامي ، بالنتائج المتوقعة في المستقبل ، اذا ما واصلت بريطانيا تجاهلها للرأي العـــام العراقي والعربي ، كما ساتناول تفنيد الاعتراضات على الرأي القائل بان من واجب الحكومة البريطانية ان تعتبر باخطائها الماضية وان ترسم سياستها الجديدة على ضوء المنطق والواقع.

ومن الامور الخطرة ، ان تصبح ضحية الاراء الثابتة . والميل الى اتخاذ هذه الاراء يساعد ، كما رأينا في موقف الجالية البريطانية في العراق ، على عزل جماعة من الاجانب عن المجتمع الكبير الذي يعيشون في ضيـــافته . واذا مـــا عزل المسؤولون عن السياسة الخارجية ، انفسهم بمثل هذه الصورة عن المجتمعات التي يتعاملون معها ، فستكون النتيجة كارثة ما بعدها كارثـــة . واذا رغب المجتمع بالاحتفاظ بكيانه المستقل فعلى هذا المجتمع ان يقيم سلسلة من الاراء التي تحفظ له هذا الكيان وتحميه ، على ان لا يعزل نفسه عن فهم المجتمعات الاخرى التي يجب ان يتعامل معها . فاذا لم يكن هناك فهم ، يتعذر التعامـــل حتما ويفشل . وهذا ما وقع في العلاقات العربية البريطانية .

وليس هناك من جديد في فشل المجتمعات في فهم بعضها البعض وكثيرا مـــا حدث ذلك في التاريخ ، عندما كانت الجماعات المتنافرة تنظر الى نفس الحقائق بمنظار مختلف ، ومن زوايا مختلفة ، وهي الجمـــاعات التي فصلت عن بعضها

جغرافياً ، كما في موقع المسيحية والاسلام في القرون الوسطى او داخلياً ، نتيجة حرب الطبقات واشتدادها ، او في المستعمرات ، حيث لم يختلط المحتلون مطلقاً بالشعوب المغلوبة على امرها . ولا شك في ان بعض عناصر هذه الحروب. يمكن ان توجد في تاريخ العلاقات البريطانية العراقية ولكن لو افترضنا ان البريطان والعراقيين كانوا يرون الحقائق بمنظار مختلف ومن زوايا متضاربة ، لتحتم علينا رغم ذلك ان نؤكد واجبنا في اعتبار وجهة النظر العراقية ، في حد ذاتها كحقيقة في العلاقات الدولية . ولكنهم عوضاً عن ذلك ، فضلوا البقـــاء رهن أفكارهم وآرائهم في الاوضاع المذكورة .

الفصل التاسع

سياسة موالية لبريطانيا

علينا اولاً ان نقرر الطريقة التي نخطط بها سياستنا واود قبل كل شيء أن اقترح تخطيط هذه السياسة على ضوء مصالحنا نحن . وهذا أمر واضح ، ولكنه لم يكن الطريق الذي اتبعناه في وضع سياستنا في الماضي . وعلينا أن لا نرسم سياستنا لتتلاءم مع تقليد قديم لنـــا او مع افكار كوناها في الماضي ولا لترضي شعوراً من مشاعرنا . او تتفق مع عالم نريد أن نراه قائماً بينما هو في الحقيقة غير قائم مطلقاً . حتماً يجب علينـــا ان نحترم التزاماتنا ، ولكن علينا أن نخترع التزامات ليست قائمة ، او نراها في شكل لا توجد فيه . ان مهمتنا هي في ادراك الحقائق كما هي وان نضع سياستنا لتتلاءم مع هذه الحقائق . واذا ما ادركنا الحقائق ، فسنجد ان مصالحنا والتزاماتنا وحتى مشاعرنا النيرة لا تتضارب مطلقاً ، وإنما قد تتضارب ، عندما ترتبك في نظرنا الحقائق . وإذا ما ارتبكت هذه الحقائق ، فان اراءنا في التزاماتنا ومشاعرنا ترتبك ايضاً .

فما هي الحقائق التي أراهـــا ، والتي حاولت ان احددها في حديثي عن العراق ؟

١ – اعتقد انني تمكنت من تبيان ان حوادث تموز في العراق والاتجـاهات المبكرة للثورة ، تتفق تماماً مع الرأي العام للشعب العراقي قبل وقوع الثورة

وعند وقوعها . لقد كان هذا الرأي قائماً على نفس الصورة مدة سنوات طويلة ، كالنهر الذي يجري ، بفيض حيناً ، وتحسر مياهه حيناً آخر ، ولكنه يظل في مجراه ، لا يبدله ، ولا يغيره . فكل ما حدث ، لم يفاجىء اولئك الذين عرفوا الرأي العام العراقي باستثناء اولئك الذين تأثروا بآراء الطبقة الحاكمة وبآراء بعض الزائرين من الأجانب التي لم تخرج عن الدائرة الضيقة التي وجدوا فيها . والدهشة الوحيدة للعارفين ، هي ان الثورة قد وقعت كما وقعت وان المعتدلين قد تسلموا الحكم ، وان الشعب الذي طال اذلاله ، لم يعبر عن سخطه وحنقه لصورة أعنف من الصورة التي عبر بها عند وقوح الثورة .

والحقيقة الثانية هي ان بريطانيا قد تجاهلت الرأي العام تماماً ، فنوابنا المحترمون والمنتخبون ، ورجال سياستنا اختاروا ان يصدقوا ان المعارضة العراقية لا تضم الا نفراً من الطلبة المتهوسين ، والاشخاص الموتورين ، وشذاذ الآفاق ، والمحرضين المتهنين ، وآثروا ان يظنوا أن غالبية الشعب كانت موالية للملكية . وان اضطهاد الحريات كان أمراً تافهاً وغير مهم ، وان الطبقة الحاكمة ستنجح في إيصال البلاد الى الازدهار والرفاهية . ويخيل اليّ انهم فكروا أيضاً بأن الارهاب آنذاك سيذوي ويزول من نفسه ، تماماً كما تزول دكتاتورية البروليتاريا (الطبقة العاملة) في النظرية الماركسية . وقد أشار نقاد الماركسية الى انه حتى الآن لم تظهر مثل هذه العلائم من الذبول في الدول الماركسية ، وهي في الحقيقة من الصعب تصور وقوعها . ومثل هذا النقد ينطبق وبصورة أقوى وأوسع على بلاد كالعراق ، حيث لم يبد مطلقاً ما يشير إلى ان الحكام سيرون الحاجة إلى اعتزال الحياة العامة ، او ان الطبقة التي وجدت فقط لتثري على حساب الشعب ستتخلى عن الحكم والسلطان .

ويبدو ان الذين يقررون سياسة بريطانيا قد تجاهلوا منذ البداية الطبقة الوسطى في العراق . وأسموها بطبقة الافندية، وهو سخافة ما بعدهاسخافة اذا ما فكرنا بهذه التسمية باللغة الانكليزية كأن نقول مثلاً طبقة « المستر » وهذه التسمية توحي بأن ارباب المهن العرب يفكرون بغير تفكير نظرائهم في البلاد

الاخرى . وبدلاً من ادراك الحقيقة وهي ان هذه الطبقة هي التي تصنع الرأي العام ، الذي يسود عامة الشعب فيما بعد ، تجاهلناها مقررين ان الرأي الوحيد الذي يهمنا هو رأي الطبقة الثرية .

ولم يقتصر الامر على تجاهلنا للرأي الذي يهم ، وقبولنا للرأي الذي لا يهم ، بل تعداه الى تحالفنا مع الرجال الفاسدين . وكنتيجة لهذا التحالف فقد اصبح من المتعذر علينا الآن البرهنة على اننا لم نرغب في اساليبهم الارهابية العنيفة ، ولم نؤيد طرقهم غير الشريفة في الحصول على الثروة ، واننا لم نعمل على تمزيق وحدة العراقيين لنتمكن من استغلال ثروة بلادهم الطبيعية .

والحقيقة الثابتة التي آمل في انني قد نجحت في ابرازها هي ان الاجماع في العقيدة قائم في العراق كما في البلاد العربية الاخرى على ان جميع الناس الذين يتحدثون بالعربية كلغتهم الاصلية يؤلفون شعباً واحداً مهما تجزأت بلاده الى دويلات ، وان هذه التجزئة الى دول وقيام السيادات المستقلة هي اصطلاحات قانونية ليس الا . فالوحدة العربية بالنسبة الى العرب امر قائم ، ولا تنتظر الا الوجود الرسمي الشكلي . وبالنسبة الى العراقيين يدور السؤال فقط ، ماذا سيكون عليه شكل الوحدة وطبيعتها ومداها . وهذه الحقائق ليست « الناصرية » كما يزعمون لان جمال عبد الناصر نفسه ، هو ثمرة القومية العربية . انه اللسان الناطق لمثل وجدت وعاشت طويلاً قبل ظهوره ، وان كان هو قد عبر عنها بأقوى التعبيرات وأشملها . وقد يكون لقاسم أيضاً دوره في المستقبل في التعبير عن وجهة النظر هذه .

والحقيقة الاخيرة تتلخص في انه قد وضح منذ الايام الاولى للجمهورية في العراق ان العهد لا يحمل عداء لبريطانيا . ولكنه يريد ان يضعها على قدم المساواة مع الدول الاخرى . واذا ما وقع تبدل في هذا الموقف في المستقبل فسيكون ذلك ثمرة سلوك بريطانيا . ومن المهم أن تتحمل بريطانيا بصبر وكرامة نتائج أعمالها الماضية مادامت هذه النتائج في حد ذاتها معقولة . وسأتحدث عن هذا الموضوع باسهاب في الفصل المقبل .

هذه هي حقائق الرأي العام . والحقيقة الأكبر أهمية هي ان الرأي العام مهما كانت طريقة تكوينه ، سواء عن طريق الحقائق او الأكاذيب ، عن طريق التفكير العميق او السطحي ، عن طريق النتائج او الدعاية فسيظل القاعدة في الحكم على الأمور . فالرأي العام الذي تجاهلناه قد عمل الثورة ، وقد زعمنا انه غير موجود لكن هذا الزعم لم يقلل من أهمية وجوده . ودون أي مبرر جعلنا من سياستنا مناقضاً لهذا الرأي العام فأدى ذلك إلى وضعنا في موضع الشك في بلاد كنا جديرين بأن نعيش فيها موثوقين محترمين . وقد أثرنا منافع عرضية زائلة ومن جانب واحد ، على قيام صداقة وطيدة ترتكز على المنافع المتبادلة . ومع ذلك ، وعلى الرغم من سلوكنا ، فما زالت هناك اشياء كثيرة في امكاننا انقاذها او إضاعتها . وإذا ما قدرنا الآن وحتى في هذه المرحلة المتأخرة ، حقائق الرأي العام العربي حق قدرها ، كان في وسعنا أن ننتفع في المستقبل ، وما لم نعمل ذلك ، وخدعنا أنفسنا باتباع السياسة القديمة ، فستؤدي بنا إلى كوارث جديدة .

فالسلسلة المتعاقبة من الأحداث منذ بداية عهد الانتداب حتى قيام الثورة كان لها رؤى مختلفة في وجهات النظر العراقية والبريطانية . وقد يكون من الحقائق الثابتة ان البشر في الجماعات المختلفة وعبر سير التاريخ الطويل في العالم ، قد كونت كل واحدة منها لنفسها أوضاعاً تختلف تماماً عن اوضاع الاخرى ، وما دامت كل فئة منا تعيش منعزلة في محيطها ، فلا ضير من هذا التكوين ، ولكن الصعوبة تقوم عندما نبدأ في التعاون مع الفئات الاخرى . وليس بودي أن أخوض باسهاب في العموميات حول هذه الآراء الواضحة ، ولكن من الجدير القول ان مشكلة « اساءة الفهم » القائمة بين البريطان والعراقيين مشكلة قديمة جداً ، وانه كان من الواجب على الرجال من كلا الفريقين التغلب عليها وتذليلها . أما المسؤولية الكبرى فتقع على الجانب البريطاني ، لاننا لم نكن الجانب الذي اسيء اليه ، وقد أجرمنا في رفض البحث عن المعلومات في مصادرها الطبيعية ، لقد رفضنا الاستماع الى العراقيين حول

موضوع العراق ، وآثرنا ان نبني معلوماتنا على الخيالات والصور التي أقمناها من قراءاتنا ، ومما استمعنا اليه من غير مصدره ومما ضخمناه في مخيلاتنا وكلها مصادر مشكوك في صحتها .

ويؤسفني ان اقول ، ان واضعي سياستنا ما زالوا يعيشون في هذا العالم الحالم . فهم ما زالوا يقسمون العالم العربي على الرغم من مشيئة أهله ، ويسندون الأمراء الذين يعتبرونهم أصدقاء بريطانيا التقليديين . انهم ما زالوا يدعمون ملك الاردن ونظام اقليته ، وما برحوا يحاولون الحفاظ على امارات الجزيرة العربية ومشيخاتها ، ويؤيدون كل محاولة لخنق حركةالحرية في كل بلد عربي . انه موقف لا يتفق مع نفسه . اننا نحتقر العرب لانهم متأخرون ، وفي الوقت نفسه نحن نقاوم كل خطة لترقيتهم والدفع بهم الى الأمام إلا اذا كانت هذه الخطة بطيئة قائلين ان مثل هذه الامور لا يمكن الاسراع بها . ولكن لماذا ؟ اننا اذا حاولنا تخفيف سرعتها ، فان الاحداث ستتلاحق باسرع مما نظن وحتى اذا لم تتلاحق بسرعة هائلة ، فإنها ستكون أسرع منا . فلا ريب في ان ثورة جديدة ستفاجئنا وقد تقع مثل هذه الثورة حتى في بلاد صغيرة كالكويت والبحرين ، انها ستحدث حتماً . وسيهب العرب في كل مكان الى التضامن معها شاعرين انها ثورتهم . وهل يكون دورنا آنذاك ومن جديد إلقاء اللوم على الآخرين ، فنقول « ناصر ثانية » أو « عدوان غير مباشر » ؟ ان هذه مبررات الذين لا يفكرون ، والذين يزعمون ان المشكلة غير قابلة للحل ، لانهم يحملون رؤوساً كرؤوس الخنازير التي لا تحيد عن طريقها وليس محتوماً علينا ان نتخذ الى الأبد موقفاً واحداً شأننا في ذلك شكل تمثال الأسد البرنزي في ساحة الطرف الاغر في لندن . ونحن نجد من الاسهل علينا ان نعيش دوماً في احلام اليقظة ، على ان نعترف بالحقائق التي لا نستسيغها ، كالحقيقة القائمة وهي ان مصالح العرب تختلف عن مصالحنا ، وان العرب لا يحبوننا بصورة خاصة او انهم لا يريدون ان يقفوا الى جانبنا مئة في المئة في مشاكلنا الخاصة .

وعلينا ألا نجد من الصعوبة بمكان عظيم ان ندرك ان شعوباً اخرى تفكر

بصورة تغاير تفكيرنا ، وان لهم معتقدات لا نشاطرهم اياها ، ولكنها عميقة الجذور بالنسبة اليهم مما يتعذر فيه عليهم ان يستبدلوها بالمعتقدات التي نريد منهم اعتناقها . فهل هناك من سبب يحملهم على تغيير معتقداتهم ؟ والسبب الوحيد لدينا هو اننا نريد منهم فقط ان يروا مثل ما نرى . اننا نريد منهم العون ونتصور ان من حقنا ان نطلبه وان نتلقاه ، دون ان نقدم اليهم شيئاً مقابل ذلك . وهذا ضعف في خلقنا . فللمحافظة على مصالحنا ، علينا ان نبذل شيئاً مقابل ذلك . وإذا ما عقدنا مقايضة غير عادلة فسترفض هذه المقايضة إن عاجلاً أو آجلا . ومصلحتنا تتطلب ان نعقد مقايضة عادلة . وللوصول الى ذلك نحن في حاجة لا الى جعل الآخرين يحملون آراءنا بل الى الاستماع لارائهم . وليس لزاماً علينا ان نحب ما يفكر به الآخرون اذا لم نشأ ذلك ، ولكن علينا ان نتوقف عن الادعاء بأن هؤلاء الآخرين لا يفكرون كذلك ، إلا اذا رغبنا في ايذاء انفسنا .

وقد يكون من الطبيعي ، اذا ما اعتبرنا مرحلة الكراهية التي وصلنا اليها بعد ان اثرناها على انفسنا ، ان نصل الى النتيجة التي تقول بأن الافضل لنا ان نحارب دفاعا عن كل شبر لا يزال في قبضتنا ، لأن من المستحيل علينا ان ننال غفران العرب . لكنني لا اقترح مثل هذا الحل الضعيف لان هذه احدى الحالات التي تكون فيها المحاربة جبناً وخوراً . فاننا سنجازف ، اذا ما حاربنا ، لكن النتيجة البديلة ، فشل اكيد ، والجائزة لا تستحق مثل هذه المجازفة . فلماذا لا نشجع الوحدة العربية بنفس الروح الكريمة التي ابديناها للهند ، وآنذاك نلقى من العرب رداً سريعاً لا يختلف عما تلقيناه من الهنود . فالعمل الكريم يلقى جزاء كريما والعكس بالعكس . ولعل من المدهش ، ان الكراهيات سرعان ما تنسى ، او على الاقل تهمل ، لتحل محلها احاسيس جديدة من السعادة والود ، وذلك اذا زالت مسبباتها . وحتى الان لم تزل هذه الكراهيات ، وليس هناك من دليل على ان قادتنا يودون زوالها .

وليس هناك من خلاف على اهداف سياستنا . ان غايتنا جميعا هي « حماية »

المصالح البريطانية ، وقد تكون كلمة افضل لو استعملنا كلمة « تطوير » . فكلمة حماية ترمز الى شيء ثابت جامد ، كالكنز الذي يقوم الحراس على حمايته . اما التطوير فيشير الى ان المصالح قابلة للتغيير والتبديل . ففي كل برهة يجب علينا ان نفكر ، ما هي مصلحة بريطانيا في هذا ، هنا والآن ؟ فليس من المهم كيف كانت في الماضي . وما قد يكون الافضل اليوم قد يصبح الاسوأ غدا . وانا لا اعني ان في وسع مبادىء العدالة والشرف التي نعمل بموجبها ان تتبدل وتتغير ، كما لا اعني ان بعض المصالح جامد لا يتغير . فالبترول موجود هناك دائما على سبيل المثال ولكن بتغيير الظروف تتغير الاعمال المناسبة ايضاً اذا اردنا المحافظة على مصالحنا .

ولن احاول في هذا الكتاب ، الحديث عن احتمال ضعف اهمية البترول في المستقبل بالنظر الى التطورات الذرية الاخيرة . لكن بالنسبة الى هذه الايام ، والى المستقبل القريب ، نأمل الاستمرار في شراء البترول العراقي الذي نستخرجه وتصدره الى الاسواق شركات يسيطر عليها البريطان . وقد يقول بعضنا احيانا ، الا فائدة للعراق من بتروله اذا لم نساعد نحن في استخراجه ، وكأن هذا القول يعطي لنا حقوق اصحاب البترول . اما العراقيون فيقولون ان ما تحت تربتهم ملك لهم كالتربة نفسها ، وبنفس الصورة التي تملك بريطانيا فحمها . وعلى كل حال ، فليترك البريطانيون تفكيرهم لانفسهم وليسكتوا عليه ، فمصلحتهم هي في الحصول على البترول . وهذا يعني وجوب مصادقة من يسيطرون عليه . وكل ما علينا التفكير فيه هو الحفاظ على تعاون اولئك الذين يسيطرون على البترول والذين كما يبدو سيظلون مسيطرين عليه ، بدلا من ان نرسل قوات عسكرية ضخمة لكبت شعب مؤمن مسلح كالشعب العراقي . وكانت خطيئتنا في الماضي اننا لن نتعامل مع اولئك الذين سيتولون السيطرة في المستقبل ، ولحسن الحظ كانت شركة البترول اكثر مرونة من الحكومة ، واعترفت بجمهورية العراق قبل وقت طويل من اعتراف حكومة جلالتها بها . وليس من المتوقع ان تكون ثقة العراقيين بالشركة اقوى من ثقتهم بالحكومة ولكن من المحتمل ، انهم

سيقدرون خطوتها الذكية ويفهمون انها تود العمل ، فيعقدون معها اتفاقية على هذا الاساس .

ولا ريب في ان خير سبيل لتطوير مصالحنا اوحمايتها ، سواء اكانت بترولية او هندسية او تجارية او ثقافية او سياسية ، هي ان نقيم مع العراق صداقة مبنية على الثقة ، وثقة ترتكز على الاخلاص ، واخلاصا يستهدف الاتفاقيات العاجلة . فمن اللازم ان نبحث عن خير ما يلائم الفريقين وان يكون البحث مخلصا كل الاخلاص ومن الواجب ان نبدو راغبين في ذلك ، وهناك سبيل واحد لتبدو راغبا بالشيء ، وهو ان تكون حقيقة راغبا فيه . فليس في مكنتك ان تخدع انساناً وتقنعه باخلاصك ، وانت غير مخلص . وضمن هذا المحتوى ، يجب ان تكون سياستنا في شكلها التفصيلي مرنة ،تتأثر باتجاهات الرأي العام وتبدلاته وهي الاتجاهات التي تتطلب تعديلات زمنية من وقت الى آخر .اما الحل البديل فهو ان نظل رهن الشكوك ، وان نبحث دائما عن الالاعيب السياسية التي قد تفيدنا آنيا ، ولكن فائدتها لن تستمر لان الرأي العام يعارضها. وهذا لا يعني عدم التجاوب مع الرأي العام فحسب ، بل التلاعب في قضايا المبادىء ايضا وهو يعني في الوقت نفسه العودة الى « الاصدقاء » الذين يبدون اكثر صداقة لبريطانيا منهم لبلادهم ، والذين تبعا لذلك يظهرون في النهاية اسوأ اصدقاء بريطانيا . واتباع مثل هذا السبيل سيؤدي الى ثورات جديدة كل منها تبعدنا عن الوضع الذي كنا فيه قبلا ، فعلينا اذن الاختيار بين الصداقة القائمة على المنافع المتبادلة وبين دمارنا النهائي ، فهل من الصعب علينا ان نختار ؟

ولعل الصعوبة التي يجدها رجال سياستنا في الاختيار ، ان اتباع السياسة القديمة يريحهم من عناء البحث عن سياسة جديدة ومناقشتها ودرسها . وليس من الضروري ، التفكير بعيداً ، بل في المعضلة القائمة. ولا شك في ان الرجل الذي قرر ارسال قواتنا العسكرية إلى الاردن كان يفكر في الوضع كما تراءى له آنذاك ، دون أن يجهد نفسه في بحث صعوبات المستقبل التي سينغمس فيها . وهكذا يتنقل قادتنا من حل آني الى حل آخر لانهم قنطوا من الحلول البعيدة

المدى . وهذا وضع يتفق مع مزاج اولئك الذين لا يرغبون في التفكير . انه يعني عدم الحاجة الى التخطيط على قواعد ثابتة ، وعدم الحاجة إلى الاخلاص او اقناع الآخرين بالاخلاص ، وعدم الحاجة إلى الصداقة مع الشعوب التي لها آراؤها الخاصة . وقد نجمت عن الخلافات المستمرة بين الغرب والشرق ، مشكلة واحدة ، وهي عدم توقعنا أن نتعامل بصداقة مع شعوب تختلف عنها في كل شيء . وأخذ الشعور الناجم عن هذه المعضلة يراودنا ، وهو ان من ليس معنا فهو علينا ، وهذا ما يجعلنا نتخطى الأزمات التي تواجهنا فندور حولها عندما تقع دون ان نبحث لها عن حل دائم .

ولاوجز والخص القول ، اؤكد ضرورة أمرين . علينا أن نؤمن بفكرة الحياد وننغمس في العلاقات الدولية ، كما في العلاقات الشخصية ، مع شعوب لا نتفق معها . وعلينا أن نتعامل مع العرب ، كما لم نتعامل معهم قط في الماضي، على اسس من الصدق والشرف والاخلاص . علينا أن نتخلى دائمًا وأبداً وبالرغم من الاغراء ، عن كل فرصة تسنح لنا للتآمر تأييداً للسلالات المالكة التي نحن الوحيدون في حبها . علينا أن نتوقف عن البحث عن شخصيات جديدة كعبد الاله ونوري السعيد . علينا أن نقبل حتماً وبسرور ان أمكن . ان للعراقيين والعرب الآخرين اراءهم الخاصة سواء كنا نعطف على هذه الآراء (كما يشعر بعضنا) او لا نعطف . ويجب أن لا نتأثر مطلقاً إذا ما أصبنا بصدمة مؤقتة ، فنفكر في العودة إلى سياستنا القديمة وبأنها قد تكون أكثر نجاحاً لو اتبعناها . أما الشيء الأساسي الآخر ، فهو التخلي عما في ايدينا . فنحن لا نزال نؤيد الاردن الهاشمي ، حيث يعذب الأولاد في السجون ، وحيث الارهاب وأحكام الاعدام فقط هي التي تحفظ العهد القائم ، وحيث تكره الغالبية العظمى للشعب ملكها كما كرهت جده عبدالله من قبله . ونحن لا نزال نحتفظ باشرافنا على المشيخات العربية لا سيما في الكويت والبحرين وقطر وعمان وعدن . فاذا ما تخلينا عن كل هذه قبل أن نرغم على التخلي عنها ، فسنحرز بعض الثقة ، وسننال بعض الود الاختياري والا فان قصة العراق ستتكرر ، ولربما بنتائج

أكثر سوءاً .

ويطلق على البريطانيين عـادة الذين ينتقدون حكومتهم لقب « اعداء بريطانيا » فبعد قيام ثورة العراق بقليل نشرت جريدة التايمز اللندنية رسالة من انكليزي يعرف العراق جيداً اوضح فيهـا باعتدال زائد جزءاً من وجهة النظر العربيـة ، فعلق بعض البريطانيين في بغداد على تلك الرسالة بقولهم : « رسالة تحمل العداء لبريطانيـا » وهذا يعني انك اذا فهمت الشعب الذي تتعـامل معه سميت عدواً لبريطانيا . كأن تقول للشخص الذي يعرف ماذا يقول انك عدو لبريطانيـا . وأصحاب هذا الرأي يرون في كل شخص يحاول ان يفهم ما تفكر به الشعوب الاخرى شخصاً قليل الولاء لقوميته . فأنت غير مخلص وغير موال اذا استخدمت خيـالك ، وانت غير موال اذا ادركت ان للشعوب الاخرى مصالحها المختلفة عن مصالحك وتبعاً لذلك لها آراؤها الخاصة وأهدافهـا . وبالاختصار ، ان مجرد السماح للآخرين من غير بلدك بأن تكون لهم شخصيتهم وأفكارهم ، أمر يعتبر قلة ولاء . والأسوأ من ذلك كله ، الصاق قلة الولاء بكل من يرى الحقائق كما هي ، اذا كانت رؤيته مخالفة لمـا يراه البريطان . وكنتيجة لذلك فان تقرير اعمالك على ضوء الحقائق كما هي ، قلة ولاء ايضاً . وقد يبدو ما اقوله سخيفاً ولكنهـا هي الحقيقة مع الأسف ، وإن كانت توضع عادة في قالب آخر . فللكثيرين منا لفظان فقط وهما « نحن » و « هم » وما سوى ذلك فهراء. إذن ان همهم الوحيد لا البحث عن الحق والصدق وإنما التزام جانب نحن أنى كان الحق .

فمن هو حقاً عدو بريطانيا ، ومن هو الخائن ؟ ليس من الممكن ان تكون عدواً لبريطانيا اذا ما طالبت بتغيير السياسة التي جاءت لبريطانيا بالكوارث واحدة تلو الاخرى . ولن تكون عدواً لبريطانيـا اذا طلبت ان تقوم السياسة على الحقائق لا الخيال . فليس في خير بريطانيا ان تبني أعمالهـا على الاكاذيب والخدع . ولا يتطلب الولاء لبريطانيا منا ان نجعل اسمها كريهاً لانها تدعم حكماً فاسداً يفقر الشعب ويزيد تعاسته ، ولانها تؤيد اطلاق النـار وقتل الابرياء من

الشبان والغلمان ، ولانها تساعد على ابقاء الملايين من الرجال والنساء والاطفال في حالة فقر وبؤس . وكانت بريطانيا حتى اليوم في مقدمة الرأي العام العالمي ، لكنـنا الآن لم نبدأ في التراجع الى المراتب الخلفية فحسب ، بل أخذنا في خلق المبررات الزائفة التي تحمل الناس على احتقارنا بوصفنـا مخادعين منافقين تعوزهم الجرأة لتحمل مسؤولية ما يفعلون . وقد لحق ببريطانيا من الذل ما لم تشعر به في تاريخها الطويل . وإذا كانت تعابير الشرف القومي لا تبدو مناسبة للحديث عن السياسة فلنتركها ولنحصر حديثنا في « المصلحة » . هل هناك خيانة أسوأ من وضع بلادك في طريق لا يقود الى النجاح ، طريق ينتهي حتمـاً ، كما بدأ ينتهي الان ، الى كارثة تصيب كل مصلحة قومية ، طريق قد يؤدي بسهولة الى نشوب حرب عالمية دفاعاً عن قضية ليست بالعادلة ولا باللازمة ؟ بالطبع انهـا ليست خيانة بالمعنى الفني للكلمة ، وإنما هي التخبط ، كالعادة ، من قبل ساسة اقتنعوا ذاتياً من آراء حفنة من السخفاء الذين استوردناهم مع البترول من العراق.

الفصل العاشر

كيف نساعد الروس

ردود على بعض الاعتراضات

سأحاول الرد في هذا الفصل على بعض الاعتراضات التي تثار على السياسة التي أدعو اليها . وجميع هذه الاعتراضات تثار دفاعاً عن السياسة البريطانية التقليدية التي سببت لنا هذه السمعة السيئة التي لحقت بنا ، والتي رفعت من سمعة روسيا الى الحد الذي لم تكن تحلم فيه .

والاعتراض الاول ينبع من المصلحة ، ولكنه يرتبط ايضاً بموضوع المبادىء فنحن نسمع القول ، بان الولاء والشرف يقضيان علينا بعدم التخلي عن اصدقائنا واننا اذا ما تخلينا ، فلن يكون لنا اصدقاء بالسرعة الكافية . والرد على ناحية المصلحة من هذا الاعتراض بسيط وسريع ، فالسبب في عدم وجود اصدقاء لنا في العراق الان هو اننا اسأنا اختيار اصدقائنا . وعلينا ان نبدأ من جديد وان نبحث عن صداقات جديدة بين الناس العاديين . وقد يكون حقا اننا اذا تخلينا عن اصدقائنا من الطراز القديم من الفاسدين والمرتشين وذوي الكروش الكبيرة فسنفقدهم جميعا ، ولكن هذه هي النتيجة التي يجب ان نبحث عن الوصول اليها ، فأصدقاؤنا الجدد لم يساورهم ريب في اننا غير مخلصين لاصدقائنا لانهم يدركون ان صداقاتنا القديمة كانت مزيفة .

وعند الحديث عن الناحية الخلقية علينا ان نبحث من جديد عن نوع الاصدقاء الذين نتحدث عنهم ، اولئك الرجال الذين يفرضون حكما فاسدا لضمان منافعهم الشخصية ويستخدمون الاساليب الوحشية لحمايته والحفاظ عليه . وهم يتوقعون منا طبعا ان نساعدهم ، لان ممثلينا تنفيذا لتعليمات « وايت هول » قد وافقوا على اعمالهم ، ولانهم يسيرون طبقا لسلسلة من السياسات التي امتدت منذ بدء عهد الانتداب . اننا حتما لم نرغب في فسادهم ووحشيتهم ، ولكننا رغبنا في حكمهم وبات لزاما علينا ان نتحمل مسؤولية النتائج . ونحن فعلا قد مكناهم من اتخاذ موقف ما كانوا لولانا يستطيعون الاحتفاظ به ، ولذا بات علينا ان نحميهم . اننا لسنا مسؤولين عن دفع التقاعد لهم ، الا اذا كانوا قد عجزوا عن اخراج ثرواتهم من العراق ، وفي هذه الحالة علينا ان نقدم للفرد منهم الراتب التقاعدي الذي ندفعه لموظف متوسط في بلادنا ، ولكنني سادهش كثيرا اذا لم اسمع ان الفرد منهم يصرف في الليلة الواحدة ما يتقاضاه ذلك الموظف المتقاعد في سنة كاملة . وقد اصبح اصدقاء بريطانيا الان في العراق اما في عداد الاموات او بين ايدي اولئك الذين استغلوهم طويلا .وعلى امثالهم من اصدقاء بريطانيا في البلادالعربية الاخرى ان يسارعوا بالفرار الى بريطانيا اذا رغبوا في مطالبتها في حمايتهم . فليس في استطاعتنا ان نرسل لهم حرسا بريطانيا على اساس دائم . ولعل النكتة التي رواها احد النواب البريطانيين من ان تخصيص رجلين من رجال البوليس البريطاني لحماية الملك حسين في لندن اقل كلفة من ارسال قوات بريطانية الى عمان ، قد اضحكت العالم ، اما الحقيقة فهي ان حسين وامثاله لن يحتاجوا حتى ولا الى رجلي بوليس لان احقاد العرب لا تحملهم على اللحاق به وبامثاله الى بريطانيا للثأر منه .

ولقد عمل أذناب الاستعمار حقاً الخير لانفسهم بينما نحن لم نعمل شيئاً لانفسنا. وعلى ضوء المبدأ القائل « من هو المنتفع » بوسعنا القول أنهم هم الذين استغلونا لا نحن الذين استغليناهم. فعلى المدى الطويل كانت بريطانيا هي الخاسرة الكبيرة ، لانها لم تتوقع ، كما توقع أصدقاؤها ان تستقل الطائرة وتهرب الى تركيا . اننا لم

نفكر بأنفسنا بل تركنا الآخرين يفكرون لنا . لقد نفذنا سياستهم وجعلناها سياستنا . واذا كنا قد رغبنا في تنصيب عبد الاله ملكاً على سوريا فذلك لانه قال لنا بأنه صديقنا وانه سيكون منشرحاً لو استخدمنا في الحصول على العرش الذي يريده.ومن ثم إن ما أداه لنا عهد نوري السعيد من خدمات موضوع يقبل الأخذ والرد ، لكن ما قدمناه له من عون أمر مؤكد . وكثيرون من البريطان من كانوا يدركون ان الثورة محتملة الوقوع عندما يموت نوري السعيد ، ايماناً منهم باهتزاز العهد وعدم استقراره . وهكذا تركزت بريطانيا في مصالحها الرئيسية على هذا الوضع المتأرجح . وفي الحق فقد وافقنا على تأييد هؤلاء الناس ومساعدتهم على تحقيق مطامعهم ومشاريعهم ، بالرغم من ان مشاريعهم لم تكن مرغوبة لدينا . وقد وعدونا مقابل هذا العون بتطوير مصالحنا ، وهكذا فقد تعاقدنا مع فريق لا يستطيع تقديم البضاعة التي وعد بتقديمها إلا بصورة مؤقتة وعلى أسس غير سليمة . وأنا لا أعني اننا لسنا بالملومين على ذلك اننا ملومون للغاية في استخدام هذه المساعدة ونشترك في مسؤولية ما عملوه ، ولكننا من ناحية عملية قد خدعنا في الصفقة التي عقدناها .

وهناك اعتراض او اعتراضان تافهان على السياسة التي أدافع عنها ، ويمكن الرد عليها بسهولة . فأحد هذه الاعتراضات ينصب على ان العرب ليسوا اهلا للحكم دون مشورة الغرب ولكن على أي حال ليس في استطاعة أحد ان يقول ان العرب أكفاء او غير أكفاء إلا إذا جربوا . ومن الجدير القول ، انه بالرغم من العداء الشديد الذي يشعر به الكثيرون لمصر ، فليس باستطاعة أي من اعدائها أن يقدم دليلاً على انتقاد جدي لحكومتها . وأسوأ نقد وجه اليها يمكن أن يوجه إلى العديد من الدول المستقلة ويقيناً انها لسفسطة الادعاء بان آخرين لا يصلحون لتسيير أمورهم ، واننا أكثر كفاءة منهم لتوجيهها لهم .

وهناك انتقاد آخر يتعلق بالطريقة التي يتحدث بها العرب، ويقول الناقدون ان العرب يتحدثون كثيراً عن استقلالهم ووحدتهم ويوجهون الاتهامات للاستعماريين ، ولكنهم لا يتحدثون أبداً عن الطريقة التي سيحكم بها الشعب

العربي ، وعن الاساس الاقتصادي لهذا الحكم ، والنواحي العملية للادارة . وقد يكون هذا النقد محقاً لو صدر عن العرب انفسهم ، أمــا أن يصدر عن « الاستعماريين » فأمر غير معقول . وببساطة أقول ، ان ليس من شأننا أن نتساءل عما سيحدث بعد استغلال العرب انه شأن العرب أنفسهم . ويقيناً ان هناك عدداً كبيراً من العرب يدرك خطورة المشاكل الاقتصادية وقد وضع لكل مشكلة السياسة التي سيواجهها بها . فللحزب الشيوعي حتماً برنامج . ولممثلي الحزب الوطني الديموقراطي في الحكومة العراقية الحالية نفس الآراء الاقتصادية التي يعتنقها حزب العمال البريطاني . ومعظم افراد الطبقة الوسطى ، يتوقعون من حكومتهم ، الاستعانة بالخبراء لوضع مشاريع الاصلاح وهذا ما يحدث فعلاً .

ويقودنا الحديث إلى سياسة التخلي وهي السياسة التي نتخلى بموجبها طوعاً واختياراً عن بعض مصالح بريطــانيا العامة في الخارج . فاذا رأينا ان تكاليف الاحتفــاظ ببلد في الخارج رغم مشيئة أهـله ، من ناحية الجنود والأموال ، أكثر من الفائدة التي يمكن ان تجنى من هذا البلد ، فالشيء المعقول هو التخلي عنه والانسحاب منه . ولكن عوضاً عن اتبــاع هذه السياسة ، والاحتفــاظ بما امكن من حسن نية الشعب الذي نتعامل معه نواصل الدفع والخسارة، تجارياً وسياسياً ، ونخلق لانفسنا كراهيات جديدة وأحقاداً اخرى. فنحن في مثل هذه الحالة ، مثل السفينة التي تبدأ في الغرق وتظل رافعة رايتها لكن الشعب ليس بالسفينة وقد يكون من واجب قبطان السفينة ان يحارب على ظهرها حتى النهاية ، لكن من واجب السياسي ان يحتفظ ببلاده ما امكن فليس من حقه ان يدمرها . اذ ان وجوده انما هو لحمايتها .

وليس هناك من شك في ان علينا الان في العراق ان نتخلى عن المــكانـة الاولى . وعلينا ان نعد عقولنا لتقبل الحقيقة وهي اننا سنعامل على قدم المساواة مع اي شعب اخر ، بعد ان كنا نحتل ، ويحتل الامريكان قريبا منـــا ، المنزلة الاولى . اما الآن فعلينا ان ننزل معا ، وان يكون نزولنا بكرامــة ، دون ان نحدث ضجة – والا فان مثل هذه الضجة لن تــؤدي الى شيء سوى زيادة

الكراهية لنا . وكانت امتيازاتنا تشمل ناحيتين اولاهما كثرة عدد خبرائنــا في العراق ، وثانيتهما قيمة المشورة التي نقدمها واهميتها . لقد حاولنــا ان نلعب مناورات القرن التاسع عشر السياسية ، لكن القرن العشرين جاء فداهمنـــا . وقد يكون تخلينا عن مراكزنا أمراً مؤلماً لكن علينا ان نتحمل ولن يكون سقوطنا كبيراً ، وما لم نرتكب حماقات كبرى فسيكون نزولنا طبيعياً .

وأصل الآن الى الشكاوى التي كثيراً ما ورد ذكرها في اقوال الساسة ولعل آخرها ، هذا الاصطلاح الذي بدأنا نسمعه عن العدوان « غير المباشر » . وهذا الاعتراض مع تفاهته ، إلا انه يذكر الان ، بصورة جدية في الحيــاة العامة ، كأي اعتراض معقول آخر . فمــاذا يعني هذا الاعتراض ؟ يبدو ظاهراً انه يعني المساعدة التي تقدمهـــا دولة اجنبية الى جماعة المعارضة (حتى ولو كانت تلك الجماعة تؤلف الأغلبية في بلد ما) . أمــا في الحقيقة فهو يعني أكثر من ذلك ، وإلا لما اختلفت عن العون الذي قدمته فرنسا لسكان المستعمرات الامريكية أو تلك التي قدمتها انكلترا لغاريبالدي ، وأنا أورد هذه الأمثلة لابرهن على ان لها سوابق في التاريخ . ويقول المعلقون ان « العدوان غير المباشر » يعني الخفي أو غير الظاهر ، اذ عرضت بريطانيا وامريكا في لبنان بالعدوان الغير مباشر ، من جانب واحد في النزاع ، بينما نفته الأحزاب المعارضة وحتى المراقبون المحايدون من الامم المتحدة . وهكذا تجاهلنا شهادات الامم المتحدة وبيناتها . وإذا كنا سنتبع مثل هذه الطريقة في علاقاتنا الدولية فاننا نكون قد تجاهلنا كل رأي معقول . واني لأخشى ان يؤدي مثل سلوكنــا هذا في المستقبل ، مع امتناع زملائنا في الأمم المتحدة عن نقدنا ، الى اعتبار جميع أقوالنـــا صادرة عن الخديعة والغش . وإذا كانت هذه حالنــا ، فمن مضيعة الوقت والحيوية ، ان نثور على روسيا .

وتقيم عقيدة العدوان غير المباشر ، مبدأ جديدا . فنحن في استطاعتنا ان نتدخل بصورة واسعة النطاق في القرن العشرين لحماية نظـــام لا شعبية له ، ثم نحتفظ في الوقت نفسه بنقاء ضميرنا ، لا سيما اذا زعمنا ان دولة اجنبية اخرى قد

ساعدت المعارضة الى حد ما . وفي كلمات اخرى ، ان تأييد حكومات لا شعبية لها في السلطان أمر مشروع طالما ان هذه الحكومات مستعدة لخدمتنا والعمل معنا . ويؤسفني ان اقول ، ان هذا ما يعنيه العرب تماماً بالاستعمار، وان من واجبنا ان نعترف به حتى ولو بالاستنتاج . والنقطة الحقيقية ، على كل حال، هي انه سواء أكان هذا صواباً أو خطأ ، فهو أمر سخيف وغير فعال ويؤدي حتماً الى الفشل ، والى اذلال جديد لانفسنا بعد ان تكون الأرواح قد ازهقت والتعاسة قد انتشرت في كل جانب .

فقد وقعت عناصر جديدة منذ أيام غريبالدي . لقد كان يوحد ايطاليا عندما كانت مجزأة إلى عدد من الدويلات الصغيرة المستقلة ، وكلها دويلات غير طبيعية ولكن لها من المبررات التاريخية أكثر مما للحدود المصطنعة بين الدول العربية اليوم من مبررات . وهكذا يبدو ان الوضعين متشابهين ، ومع ذلك فان غريبالدي ، لم يتمكن من توجيه نداءاته إلى سكان رومه او نابولي عن طريق الراديو ، فان استعمال الاذاعات في أمور الدعاية ابتكار جديد ، في عمليات التحرير ، يعارض في استعماله النقاد الذين اخترعوا كلمة « العدوان غير المباشر » وتوصف هذه الاذاعات بانها تحريض لشعوب البلاد المتعرضة للعدوان غير المباشر . وطبيعياً ان الدعاية الاذاعية ، تكون خطرة عندما يكون الشعب المستمع اليها على استعداد للاقتناع . فالدعاية الالمانية لبريطانيا ابان الحرب لم تكن مثمرة لان الشعب البريطاني آمن بحريته. وعقيدة « العدوان غير المباشر » تسير طويلاً في الحقيقة لتعترف بان « العدوان » تأييد لحركة شعبية . وما تعترض عليه حكوماتنا في اذاعات القاهرة ليست الاحاديث التي تدافع عن القومية العربية بل تلك التي تأخذ الأمور حقائق مسلم بها ، وتطلب الى الاهلين المقتنعين بالمبدأ ، القيام بالثورة الفعلية . فليس من الضروري في عام ١٩٥٨ ان يبشر للعرب بالقومية .

والعدوان يثير رد فعل غير ملائم في نفس سامعه ، والفكرة من « العدوان غير المباشر » هي إثارة مثل هذا الرد . وإذا ما استعملنا كلمة « هجوم »

« بدل » عدوان وهي تحمل نفس المعنى من حيث الفكرة ، ولكن أقل تأثيراً على العاطفة ، بدأت في الظهور لنا فكرة اوضح عن العملية كلها . فحركة شعبية كما في لبنان ، أو الاستعداد لحركة يواجهها الارهاب في الاردن ، او حركة غير مجربة في الكويت تشجبها وتؤيدها حكومات خارجية ، تسمى عدواناً غير مباشر . والتشجيع شفهي (عن طريق الاذاعة) والمساعدة الفعلية ، يقوم بها الأفراد ، ولا تنظمها الحكومة . وحتى لو لم نثر هنا شعور الوحدة الذي يسود العرب وهو الشعور الذي لا يعترف بالحدود الحالية للدول ، فان في وسعنا القول ، ان مثل هذه المساعدات لا تبرر مطلقاً استخدام التدخل المسلح على نطاق واسع من الدول الغربية . وليس هناك من سبيل الى انكار الحقيقة ، وهي ان ثورة اليوم قد تصبح حكومة الغد ، فهناك فروق واجبة بين الحكومات الشرعية وحكومات الأمر الواقع ، والحكومات غير المعترف بها . وليس هناك من شك بان الاعتراف ، ولو كان جزئياً ، بالخيانة التي قد تنجح « عندما تنجح لا تظل خيانة » أمر خطر بالنسبة إلى أي حكومة . فتقديم المساعدة إلى الحركات الثورية التي لا تلقى تأييداً شعبياً واسعاً قد يكون عدواناً ، ولكن في الشرق الاوسط عام ١٩٥٨ ، لم تقم الجمهورية العربية المتحدة بعمل كهذا . وهذه الاعتبارات ليست محددة ، ولكن الناحية الخلقية في التدخل هي من الغموض بحيث لا تبرر نقمة خلقية سامية من جانب اولئك الذين يتدخلون .

ويدعي العرب ، ان حجة البريطان والأميركان في الموضوع الذي نتحدث عنه بالذات ، حجة واهية ، فهم يعترضون على اعتقادنا بان في امكاننا دائماً أن نتدخل لمساعدة الحكومات الشرعية مهما كانت مكروهة او قاسية او غير ديموقراطية ، وإذا ما كان لهذه الكلمة معنى فانها تعني العدوان المباشر على البلاد . فماذا يعني اذن التدخل العسكري المطلوب بصورة قانونية من حكومة بلادنا ؟ فاستعارة جيش دولة أجنبية ليقوم باعمال البوليس في بلد ما ، ليس بالعمل الوطني من جانب الحكومة المستنجدة ، وليس له الا ندرة من السوابق في التاريخ . وإذا كنا نعتقد ان من واجب الحكومة ان تكون ممثلة لشعبها ،

ديموقراطية ، ورحيمة ، فعلينا أن نتوقف عن إقناع أنفسنا بشرعية عملنا ، وإذا كنا نقول ان القانون هو الأخلاق (والقانون ليس كذلك دائماً) فعلينا ان نتوقف عن الحديث عن الحقوق الانسانية والمثل الديموقراطية ، وإذا كنا نظن اننا على حق عندما نؤيد حق تقرير المصير ، فعلينا ان نعترف بان التدخل المشروع لا يعني إلا العدوان بالنسبة للشعب .

وهل من المهم ان تكون الحكومات ممثلة لشعبها او لا ؟ وهل هناك صدقا ، يوجد حق تقرير المصير ؟ فهذه اعتراضات قليل ما يسمح بها مع انها معقولة . وقد نعترف ايضا بان ليس هناك من حافز اخلاقي للحكم الذاتي ، ولكن ليست هذه بالنقطة التي نثيرها . فلكل فرد الحق ، في ايجاد حكومة خيرة عادلة . وليس من الصدق القول ان جميع العرب يريدون حكومات ديموقراطية . ففي الحق ، ان تجاربهم قادتهم الى التفكير بان الانظمة الديموقراطية كثيرا ما جاءت لهم بحكومات مناقضة لما يريده الشعب . فالعرب يتطلعون الى النتائج ، ولا يكترثون كثيرا بالدساتير التي قد تكون سببا في نتائج خاطئة . فطريقتنا نحن في ان الحكومة تتجاوب مع الرأي العام لتأمين العدالة ، طريقة برلمانية ، ولكن عندما تفشل البرلمانات يجب العثور على اشكال جديدة في الحكم اما الهدف فواحد دائما ، وهو ان يرضى الشعب عن حكومته العادلة . وهذا هو هدف العدوان غير المباشر .

ويمكن ان نختم القول ، بان نظرية العدوان غير المباشر ، كنظرية جديدة ، امر لا معنى له ، اذ ان المراقبين منذ عهد طويل ، وجدوا انها لا معنى لها ، عندما رأوا الملامة توجه الى روسيا لانها استجابت لطلب تدخل شرعي من حكومة المجر ، بعد ثورة ايدتها نسبة كبيرة من الشعب ، وشجعتها اذاعات الغرب ، فكل ما يرضون به لانفسهم ويرفضونه للاخرين يصبح لا معنى له . وعلينا ان نضيف ان من الخير لنا ان نتعامل مع ممثلي الرأي العام على ان نتعامل مع السلطات الشرعية . واضيف ان هذا امر هام بالنسبة الينا والى سياستنا .

وهذا الحديث يوصلني الى لباب جميع المناقشات ، وهي التي تتعلق بالسياسات

العالمية او بمشكلة علاقات الغرب بالكتلة الشيوعية . ورغبة العرب في الحياد ، هي جزء من هذه المشكلة . وابدأ هنا بالحديث عن كلمة « الناصرية » التي اخذنا نسمع بها في الغرب دون ان يكون لها اي معنى واضح . انها ليست اصطلاحاً صحيحاً اذ انها توحي بوجود عقيدة ابتكرها عبد الناصر ، بينما في الحقيقة لا توجد عقيدة كهذه . لان عبد الناصر ينطق بلسان العرب ويردد اهدافهم وهي الاهداف التي نشأ على اعتناقها وهو يدافع عن كفاءة الشعب الذي نشأ فيه والذي كان حتى عهد قصير ، ذليلا مستعبدا يقتله الفساد ، والتأخر الفني ، فهو في الحقيقة ليس بخالق عقيدة . « والناصرية » ليست فكرة .

وان اكثر ما نكره في عبد الناصر سياسته الحيادية . فلكلمة الحياد وقع سيء لدى الكثيرين مع اني لا ارى مبررا لذلك . والسبب الحقيقي يبدو ناجما عن شعورنا بان الحياد معناه الميل الخطر نحو روسيا . وقد تعودنا على فكرة وجود بلاد محايدة كالهند وافغانستان مثلا ، ولكن حتى في هذه الحالات ، كنا كثيرا ما نحاول اقناعها على الميل اكثر فاكثر نحونا . فنحن لا نريدهم (والروس كذلك لا يريدونهم) ان يكونوا محايدين تماما . فنظرتنا تقول ان الحياد الحقيقي امر مستحيل ، وعكس هذه النظرية لم يبرهن عليه بعد .

ولنستعرض لبرهة وجيزة تاريخ عالم ما بعد الحرب . لقد حلت فترة اعتقد فيها الغرب ، وامريكا بصورة خاصة انه مهدد من اتساع الشيوعية . والطريقة الوحيدة التي رأتها امريكا لتقوية البلاد غير الشيوعية وتمكينها من مقاومة الامتداد الشيوعي ، هي اقامة سلسلة من الاحلاف العسكرية . وكان الهدف مقاومة الغزو الشيوعي المسلح ، لا محاربة الشيوعية داخليا ، وان كانت فكرة العون الاقتصادي قد تطورت تدريجيا . ولم يتأثر حجم الحزب الشيوعي الكبير في فرنسا بانضمام فرنسا الى حلف الاطلنطي . وفي كل حالة قامت المحاولات ، لاقناع كل دولة بالانضمام الى الغرب ، ولم تقم هناك اية فكرة بترك اية دولة عدوة للشيوعية وفي الوقت نفسه حرة من التحالف مع الغرب . فالوقوف ضد الشيوعية وحتى مكافحتها من الداخل ، دون الانضمام الى حلف عسكري ، لم

يعتبر كافيا او مقنعا؛ فعبد الناصر ، يكافح الشيوعية ولكنه لن ينضم الى حلف ضد روسيا ، وموقفه منطقي للغاية ، وهو تعبير عن الشعور الاسيوي عامة . ومع ذلك فان دول الغرب تفضل على الجمهورية العربية المتحدة ، فرنسا وايطاليا رغم حزبيها الشيوعيين الكبيرين .

والاعتراض الوحيد على الحياد ، انه لن يفيد ، لأن روسيا ستبتلع الدول المحايدة . أما انصار الحياد فيقولون ان ليس هناك دليل على ما سيحدث في بلاد لا تتعرض للغزو الشيوعي . وهم يقولون : الخطر لا يقوم في تبادل الزيارات الودية ، أو قبول المساعدة بل في تقدم الحزب الشيوعي وتغلغله للوصول الى مراكز النفوذ . وقد يكونون على خطأ في رأيهم ، ولكن ليس هناك من عمل أكثر خطورة . قد يضطرهم الى الذهاب في الطريق الخاطىء ، من استمرار ترداد القول بانهم مخطئون . ويود عبد الناصر لو اخذ المساعدات من الجانبين ، ويود أيضاً أن لا يكون معتمداً عسكرياً على أي فريق ، ولكن ليس في استطاعته انشاء صناعة سلاح كافية له في وقت سريع ، واذا كان ما يحصل عليه من مساعدات بريطانية تافهاً وقليلا ، فهذا ليس بخطيئة ، لاننا نحن لا نريد التفاهم معه . اننا نفضل الاصرار على عنادنا وترك الميدان لمنافسينا ، محاولين البرهنة على ان الحياد لا ينجح ، عن طريق دفع العرب باصرار إلى أحضان روسيا .

وهناك أسباب نظرية اخرى لكراهية الحياد ، وهو ضعف امريكي أكثر منه بريطاني وتقول هذه الاسباب ان الشيوعية الروسية أمر سيء وان الديموقراطية الغربية ، نظام طيب ، ولهذا فان اي رجل يقف في الوسط ، يكون سيئاً ، واذا ما رفض بيع روحه للغرب فهو حتماً يؤيد الشيوعية . والمحايدون طبقاً لهذه النظرية ، أسوأ من الشيوعيين ، اذ انهم غالباً يكونون شيوعيين مستورين . واعتقد ان هذا الحوار هو جزء من رغبة امريكا في الحصول على الاعتراف بالجميل . فلقد ساعد الامريكيون الكثير من الشعوب ، فكانت مساعداتهم كريمة ، وهم يريدون ان يشكرهم الناس وان يكون هذا الشكر على شكل ، استحسان ، وهذا من اسباب حقدهم على الناصرية ، وعلينا ان لا نستهزىء بهم ، فنحن أيضاً ننتظر

من الآخرين أن يعترفوا بجميلنا اذا ما قمنا لهم بخدمة ، مع اننا نرى في الخدمة ما يرونه هم فيها كاساءة . ولكن هذه كلها اعتراضات غير مقنعة ضد الحياد وهي ليست كافية لاقناع المحايدين .

وهناك نوع من الحياد علينا ان نذكره بصورة خاصة . فنحن قد بالغنا في أفكارنا حتى أصبح العدوان الشيوعي الروسي في نظرنا أشد خطورة من الحرب الذرية . اما العقلية الافريقية الاسيوية فتخشى الحرب قبل كل شيء . وعندما تحدث المدعي العام في محاكمة الجمالي عن اخطار الحرب الذرية دعمها بالارقام عن ضحايا الحرب الاخيرة وأشار الى تخوف المستعمرين (يعني بريطانيا وامريكا حتماً) من فكرة الحياد الايجابي اما نحن في الغرب . فلا نفزع من ذكريات الحرب الماضية بما وقع فيها من ضحايا ومن « الام الامهات والارامل والاطفال وانتشار الحاجة ، والفقر ، والمرض ، والمجاعة ، والارهاب ، والاضطهاد » كما اخذنا نفكر بالحرب الذرية بهدوء . ويشار في بريطانيا الى ان معارضة الحرب الذرية خدعة سياسية خائنة تحمل طابع الشيوعية ، ولكن هل في امكاننا ان نتجاهل عالماً يفزع من آلام الحرب الحديثة اذا كان هذا العالم الذي تعوزه التجربة . يعتقد ان الحرب الذرية هي أسوأ تحديد ، وان العمل للاحتفاظ بالسلام العالمي ليس ابتكاراً شيوعياً بالرغم من تأييد الشيوعيين له .

ولم يكن لروسيا حتماً أي دور في تهيئة الثورة العراقية . والشيوعيون النشيطون الان ، إما انهم عادوا الى البلاد بعد الثورة أو أخرجوا من السجون ، ايماناً من الثورة باطلاق الحريات . وإذا كان هناك من أمر مؤكد ، فهو ان الجيش ، لم يكن بين ضباطه احد من الشيوعيين ومن الواضح ان الشيوعيين لا يأملون في النجاح ، رغم نشاطهم إلا اذا انقسم الجيش على نفسه . ولكن ما ان وصلت انباء الثورة الى روسيا حتى سارعت هذه الى تأكيد وجودها عن طريق الاعتراف بحكومة الثورة والتهديد بالدفاع عن العراق ، لتكسب لنفسها الفضل فيما وقع . وكان الجزاء عظيماً . فدون ان ترفع اصبعها نالت الفضل الذي ارادته . ومن الطبيعي ان حياد العراق اكثر فائدة لروسيا من عضويته في حلف

بغداد . ولا شك في ان من خير روسيا ان تحترم حياد العراق وان تبرهن للعراقيين على ان قصص الغرب عن العدوان الشيوعي مختلقة مضللة . فهل ستكون روسيا من الحكمة بحيث تمضي في هذا الطريق ؟ هذا ما سنراه .

وإذا كانت روسيا من الذكاء بحيث استغلت الوضع لصالحها فقد كانت بريطانيا وأمريكا من الغباء بحيث سمحتا لروسيا بهذا الاستغلال ، وعملتا الوضع أسوأ ما يكون عليه بالنسبة اليهم . وقد ثبتت روسيا الفكرة العربية وأوحت للعالم بان العرب قد تبنوا فكرتها . وصدق الامريكان الزعم الروسي فمضوا في اعلان وجودهم قائلين: نحن هنا محركين قواتهم وأسلحتهم ، ومهددين ومنذرين، ورأى العرب في كل هذا مظهراً من مظاهر الروح الاستعمارية التي تواصل البحث عن مصالحها ، بينما رأوا في الروس حماية للحرية .

وليس من الخير للرئيس ايزنهاور ومن ورائه سلوين لويد ان يواصلا الحديث عن استقرار الشرق الاوسط والعطف على العرب في الوقت الذي تدعم فيه قواتها ، حكومات مكروهة . ولا يزال المستر سلوين لويد ، يشير الى ان حركة القومية العربية حركة غير حكيمة أو مفتعلة . وفي الوقت نفسه نشرت احدى الصحف المصرية تعميماً سرياً من وزارة الخارجية الأمريكية الى ممثليها الدبلوماسيين في الخارج . تطلب اليهم فيه ، التظاهر بصداقة حكومة ناصر ، فوا أسفاه على الدبلوماسية التي تفقد عنصر الاخلاص وهو العنصر الذي يتعشقه العرب . وليس من الخير لنا ان نحاول حفظ التوازن عن طريق الأمل بعدم وقوع اضطراب في الاردن . أو في أي مكان آخر وليس من الخير ارسال المساعدات الاقتصادية عن طريق حكومات فاسدة تقوم بابتلاعها قبل وصولها الى المكان الذي يجب ان تصل اليه . ولا ريب في ان المساعدة التي يمكن لها ان تصمد أمام التغلغل الشيوعي ، هي تلك التي تقدم الى الدول المحايدة .

وإذا ما نجحت الشيوعية في احداث ثورة جديدة في العراق ، فالسبب في ذلك يرجع إلى اننا قد سهلنا النجاح على روسيا ، لا إلى ذكاء روسيا نفسها او مهارتها ، وفي الحق ليست روسيا في حاجة الى المهارة وكل ما تحتاجه هو ان

تهتف للحرية في بلد عربي نسارع نحن إلى الظن ، بان هناك مؤامرة روسية في الخفاء . وإذا كنا من السخف على هذا المقياس ، فلا غرو إذا ما هزمنا ، فحماقات كهذه هي التي تبني النفوذ الروسي . فمن المؤسف اننا كنا سخفاء في الماضي حتى امنا لروسيا ما أحرزته من انتصارات . وليس من الممكن لنا ان نقنع العراقيين بان روسيا لم تكن هي التي أخافتنا فمنعتنا من التدخل في العراق بعد الثورة . وليس هناك من سبيل لان نقنعهم باننا لن نتدخل لمنع وقوع انقلاب شيوعي في العراق . أما روسيا فتحاول تشجيع الرأي القائل باننا سنتدخل ، ولكن هذه ليست بالنقطة المهمة ، والشيء المفزع ، هو انه بالنسبة لماضي بريطانيا في التدخل في شؤون العراق طيلة أربعين عاماً ، وبالنسبة لحماقتها الأخيرة في مشكلة قناة السويس فليس هناك من أمل في اقناع أي عراقي بان بريطانيا تنوي اتباع سياسة جديدة لان العراقيين لا يؤمنون بالاقوال .

ولماذا نكون كثيري الشك بسياسة الحياد ؟ فالحياد كتل محايدة سيكون اسهاماً في السلام ، لان كلا الفريقين سيصغي إلى رأي مستقل ، ويأمل في التأثير عليه لصالحه ولا شك في ان رفض العراق لميثاق بغداد سيساعد كثيراً في هذه العملية . ولكن لنأخذ الصورة الأكثر تشاؤماً . ولنفترض ان روسيا ستبدأ بالتدخل التدريجي في البلاد الغربية ، وتستولي عليها نهائياً . ففي الوقت الحاضر حيث الأمور غير مستقرة في العراق ، لا يبدو هذا الاحتمال ، وهو بعيد للغاية في مصر ، ولكننا إذا ما واصلنا سياسة اغضاب العراقيين فقد نسارع في الوصول إلى تلك النتيجة . والآن لنأخذ الرأي المتفائل . اذا استطعنا اقناع العراقيين باننا الآن اصدقاء وعلى قدم المساواة الشريفة ، فقد يكون في وسعنا استعادة بعض الود الذي خسرناه ، وقد تبدأ انذاك اخطاء الروس ، التي يتعامى العراقيون عنها الآن في الظهور أمامهم . وعلينا أن نترك العراقيين يرون الامور بانفسهم واذا كنا نؤمن باننا على حق ، فان ما سيراه العراقيون سيتفق مع رغباتنا .

وقد حاولت في الفصل السابق ، ان ادافع عن السياسة التي اؤمن بصحتها

والتي اعتقد انها السياسة الوحيدة الصالحة لبريطانيا ومصالحها . فعلينا ان نتوقف فعلا ، عن ان نكون استعماريين لمصلحتنا . فهناك سبب مهم لذلك . لقد خسرت بريطانيا « الاستعمارية » معركتها ضد الشيوعية لانها فقدت جميع تلك الميزات التي تمكنها من مناشدة العالم لتأييدها . واذا لم يكن لبريطانيا من مبدأ في العلاقات الخارجية بل تستهدف مصلحتها ، فلن يصغي اليها احد . واذا كانت العدالة والحرية والحق امور غير قابلة للتصدير . فهل هناك من امر نركز عليه ولاءنا ؟ واذا كنت امينا مع عائلتك وغير امين مع جيرانك ، فسرعان ما تصبح غير امين مع الجميع ، واذا كنا حقا نريد العدالة لانفسنا فقط ، فان الشيوعية قد انتصرت حتما . وتكون النتيجة ان لا يصغي احد الينا في الخارج ، بل ان نصبح في وضع لا يمكننا من منع الشيوعية من الانتشار في بريطانيا . وقد نعمل ذلك لمنفعة انانية ولكنه حافز اقل اهمية مما يتوقع الكثيرون . ويصبح من الخير لنا انذاك ان نستسلم للضغط . وعلى كل حال ، فالشيوعية تستهدف في دعايتها احسن المشاعر عند الناس ، لانها تخفي وجهها القبيح بحثا عن المهتدى . والطريقة الوحيدة لابعاد الشيوعية ، هي ان توجد الظروف التي تبعدها ، والا فلن تجد يدا واحدة ترتفع في معارضتها . وفي وسعنا ان نوقف العمل الذي يؤدي الى دمارنا ، واذا اردنا من حكومتنا ان تتبع العدالة مع العرب فعلينا ان نحملها على ذلك . اننا ندفع الى احضان صداقة الروس . تلك البلاد التي كان من المؤكد انها ستفضل الغرب ، ونحن في الوقت نفسه نقرب الوقت الذي يصبح فيه لزاما علينا ان نواجه الامور في بلادنا او نستسلم . ولا يمكن لنا ان نصدق ، انه عندما يصطدم الحق بالمصلحة فسنتبع الطريق الذي طالما قادنا في الماضي الى الكوارث .

الفهرس

الموضوع	صفحة

الباب الثالث

الباب الرابع